ياسين الحاج صالح

الفظيع وتمثيله

مُداوَلاتٌ في شَكْلِ سُوريا الـمُخرَّب وتَشكُّلِها العَسير









ياسين الحاج صالح

الفظيع وتمثيله

مُداوَلاتٌ في شَكْلِ سُوريا الـمُخرَّب وتَشكُّلِها العَسير














الطبعــة الأولــى، ٢٠٢١
صندوق بريد: ٥-٢٥ الغبيري، بيروت ـ لبنـــان
هاتف: ٩٦١-١-٥٥٣٦٠٥
www.dar-al-jadeed.com
ترقيم دولي: 978-9953-11-210-7
منتدى الـمشرق والـمغرب للشّؤون السجنيَّة
[مشروع بتوقيع أمـم للتوثيـق والأبحــاث]
www.umam-dr.org - www.menaprisonforum.org









أيَـادٍ بَيْضَـاء: لَوْحَـةُ الغِـلَافِ بِرِشَـةِ: عَـزَّة أبـو رَبِيعَـة • تَنْضِيْـدٌ وَإِخْرَاج: هِشَـام سَـلَام • حُسَـيْن خَشَّـاب • الغِـلافُ: إِلِيسَـار الرَشْـعِينيّ • تَحْرِيـرٌ وَتَدْقِيـق: صَـلاح الجِيـلانِيّ • إشْـرَاف: قَلَـمُ دَارِ الجَدِيـد.

إلى سميرة، دومًا
وإلى لقمان، الشريك في اختبار الفظيع




مؤسسة دار الجديد

فِهْرِسُ الكِتَاب


مؤسسة دار الجديد

مداخل

الفظيع يجمع بين نصوص هذا الكتاب الانشغال بالفظيع: بما تخرَّب شكله بعنف ما، بالعنف المخرِّبِ للأشكال، كما بعوالمَ مُخرَّبَةٍ خَبِرَها ما لا يُحصى من السوريين خلال ما يقارب، اليوم، العقد من الزمان ـ عوالِمَ حياةٍ تتزاحم فيها تجارب القسوة الرهيبة من تعذيب وسجن، ومن فقد الأحبّة، ومن تدمير بيئة العيش ومن تجربة اللجوء وتشتت الشمل، مسبوقة في حالات كثيرة بالاقتلاع والتهجير.

تتناول بعضُ النصوص تَحَطُّمَ الأجساد، وبعضُها عَمَلَ مُحَطِّمي تلك الأجساد، وسنن عمّال التَّحطيم، وبعضُها مستجدّات الموت السوري، وبعضُها الصُّوَرَ عن الأجساد المُحَطَّمَة، ولكن كلّها تروي أطرافًا من سيرة عنف مُحَطِّمٍ، يُغَيِّر الأجساد والعمران تغيرًا منكرًا، شنيعًا ومقلقًا.

بل أكثر من هذا: بلَغ من شناعة هذا التغيُّر المنكر أن جعل مَن نالهم «الفظيع» من أحياء غير معروفين لنا، ومن أشياء غير معروفة لنا... حتّى لتبدو الكائنات التي أدركها الفظيع غير ممكنة، مستحيلة، مثالات من عالم مواز، جحيمي.

فقدان الشكل، شكل الأجساد، وشكل بيئات الحياة، وشكل سوريا،

هـو دعـوة إلـى التشـكيل موجّهـة إلينـا ـ نحـن مجتمـع الفظيـع... دعـوة أن نسـتعيد شـكلنا أو أن نتشـكّل فـي صـورٍ أقبـل للحيـاة.

وبقـدر مـا إنّ الثقافـة، الفكـر والأدب والفـن، هـي عالــم مـن التشـكيل، مـن صنـع الأشـكال، فإنهـا الــمجال الــممكن للاسـتجابة لنـداء عالــم تلبّسـته الفظاعـة وتجـرّد مـن شـكله ـ عالــم مسـلوخ الجلـد ـ لأن يحـوز جلـدًا وشـكلًا.

نصـوص هـذا الكتـاب تنظـر فـي شـكلنا الــمُخَرَّب، وتتطلـع إلـى أن تكـون مسـاهَمَةً فـي تشـكّل مغايـر لنـا.

مقالات/فصـــــــول يتـوزّع الكتـابُ علـى قسـمين متسـاويين تقريبًـا. القسـم الأول مـن الكتـاب يحيـط بإنتـاج الفظيـع ومنتجيـه، فيمـا يعتنـي القسـم الثانـي بتمثيـل الفظيـع، بكيفيـة التفكيـر فيـه والتعبيـر عنـه، بمـا نولِّـده مـن أشـكالِ اسـتجابَةٍ لتحـدّي التجريـد مـن الشـكل، وكذلـك بامتنـاع التمثيـل وتعثّراتـه وفشـله.
مـن حيـث هـو محاولـة لتسـمية شَـرطنا، فـإنّ مفهـوم الفظيـع ذاتـه لا يَـرِد إلا فـي القسـم الثانـي. تجربـة الفظيـع تسـبق التفكيـر فيـه وتمثيلـه، لكـن لعلّنـا لا نــمتلك هـذه التجربـة، فنطويهـا، دون أن نشـتغل علـى تمثيلهـا واسـتيعابها، ودون تحكيمهـا أو «أخـذ رأيــها» فـي أدواتنـا وطرقنا فـي التعبيـر والتفكيـر.

لــم يعـد مسـلكًا مثمـرًا مـن طرفنـا، ونحـن سـلفًا فـي العـام العاشـر مـن اختبـار الفظيـع، أي مـن تقـدّم فَقْـدِ شـكلنا، أفـرادًا ومجتمعًـا وبلـدًا وثقافـة ـ أن نثابـر علـى طـرق التعبيـر والتمثيـل وأدواتهمـا السـابقة التـي توسّـلنا بهـا خـلال هـذا العقـد، وأن لا نعمـل علـى تطويـر مجـال التعبير/التشـكيل/التمثيل.



طرقنا القديمة غير حسّاسة لتجاربنا الجديدة، الـمهولة. بل هي تُطَبِّع الهول عبر إدراجه في لغة وأساليب وتعابير سابقة له، فتثلم الحس بالفظاعة، بدل أن تشحذه. يتطلّع هذا الكتاب لأن يكون مساهمة في وعي الفظيع في زمن قريب من وقوعه - يتطلّع لأن يحفّز غضبًا أخلاقيًّا، ولأن يدفع نحو الإبداعية والعدالة.

في القسم الأول من الكتاب أربع مقالات؛ تعني الأولى **الحب، التعذيب والاغتصاب، والإبادة**، بما يجمع الـمدركات الثلاثة الأولى من تجاوز للحدود، رضائيّ في حالة الحب، وإكراهيّ في التعذيب والاغتصاب، وما يجمع التعذيب والاغتصاب والإبادة من تجاوز حدود الفرد فالـمجتمع فالإنسانية.

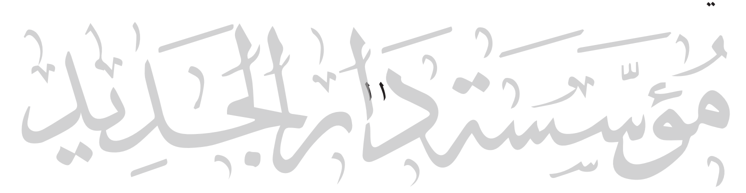
وتهتم الـمقالة الثانية، **علاقات التعذيب السياسية**، بإظهار أن التعذيب هو العلاقة السياسية الأساسية في سوريا الأسد طوال نصف قرن، وبالتالي على أنّ كلّ كلام في السياسة ينبغي أن يبدأ من هنا.

أما الـمقالة الثالثة، **السُّنّة التَّدمُريّة**، فَتُفَكِّر في تعميم نظام معسكر التعذيب في تدمر على سوريا بعد الثورة، وتقابل بين نمط القتل الأسديّ وكلٍّ من شقيقَيه النازي والستاليني، وتُرجع الاستعدادات الإباديَّة للنظام إلى تحوّل الطائفيَّة بعد الثورة السوريَّة باتِّجاه عنصريّ.

وتتناول الـمقالة الرابعة، **قبر للـمرء جميعه**، التغيّرات الكبيرة في موت السوريين بالتوازي مع تحوّلات حياتهم بعد تمردهم على الحاكميّة الأسديّة.

هذه الفصول الأربعة تتكلّم على إنتاج الفظيع ونظامه.

وفي القسم الثاني أربع مقالات/فصول، تتكلّم على تمثيل الفظيع وإمكانيته:



الـمقالة الأولى، **مسالك حيال الفظيع**، تعمل على تعريف الفظيع، وتميّز بين أربعة سبل مختلفة للتعامل مع خبرة الفظيع: الغضب والإدانة، الصمت والانسحاب، «الإبداع»، والعنف.

تنظر الـمقالة الثانية، **تحديق في وجه الفظيع**، في النقاش السوري حول الصور الفظيعة، وتنحاز إلى وجوب أن تتاح الصور للعموم، بخاصة إن كنا لا نعاني مباشرة من واقع الفظاعة، وهذا لأنّ ثقافتنا التحرّرية الـمأمولة ستُبنى على تجاربنا الـمدمرة الراهنة.

يفكّر النصّ الثالث، **الكلوم والكلمات**، في تمثيل تجاربنا وأزماتنا، ويميّز بين وجهين للتمثيل، التعبير الـمتّصل بالتجارب والتشكيل الـمتصل بالتراث. وتنظر الـمقالة في تمثيل تجاربنا في إطار تصوّر أوسع للتمثيل يشمل التمثيل السياسي وتمثيل الأعمال بدخول وعائدات...

أمّا الـمقالة/النص الرابع والأخير: **الكلمات والعنف والدموع**، فتحاول الإجابة عن سؤال ماذا يحدث حين تفشل الكلمات، وتنظر في قضيّة حرّية التعبير من زاوية مختلفة، زاوية موت التعبير أو قتل القدرة التعبيريّة أكثر من قمع التعبير.

سياسة الـمعنى هذا الكتاب محاولة لتوفير عناصر إضافيّة من أجل نموذج نظري يُمثِّل «سوريا الأسد» ويُعرِّفها. وفيه كما في كلّ أعمال مؤلّفه الكثير من السياسة. السياسة شرطنا ومصيرنا، وما يتصل بها من تجارب مدخل مُحتَّم إلى تجديد القول، إلى تحريف ما سبق قوله، وإلى تجريب أقوال جديدة. في مواجهة تجربة الفظيع النازعة لشكلنا، إنتاج الأشكال، الـمعاني



والـمفاهيم والتمثيـلات والتعبيـر، هـو ميـدان أساسـي للصـراع، الصـراع مـن أجـل الـمعنى.

أكثـر مـن ذلـك، يُظهـر العقـد الفائـت أنـه ليـس هنـاك سياسـة فـي مـا يُظـن أنهـا السياسـة فـي سـوريا (وربمـا فـي نطـاق أوسـع حولهـا). بقـدر كبيـر تنحـل السياسـة الـمتعارف عليهـا فـي التعذيـب والحـرب التعذيبيّـة مـن طـرف الحكـم الأسـديّ وحُماتـه، وفـي الديـن وأهلـه و«الجهـاد» (وهـو تعذيـب وتغييـب، وليـس حربًـا فقـط) عنـد الإسـلاميين، وفـي خنـق الذات وأشـباه الـذات عنـد الـمعارضة التقليديّة (التـي أنحـدر مـن أوسـاطها). ثمّـة سياسـة فـي الـمقابل فـي الصـراع مـن أجـل الـمعنى، فـي أن نسـمّي ونُعـرِّف مـا خبرنـا، فـلا نَفصـل بيـن الـمعرفة وبيـن التجربـة، أو بيـن الـمعنى والعنـاء. الرابط بين الـمعنى والعنـاء هـو الأرضيّـة الأصلـح لتمثيـل تجربتنـا وصُنـع داخـل ثقافـيّ مغايـر، أو جمهوريّـة معـان تتجـدّد. صحيـح أنـه لا يتحتّـم لـمن لـم يكونـوا شـركاء فـي اختبـار العنـاء ألا يكونـوا شـركاء فـي إنتـاج الـمعنى، لكـن يقتضـي الأمـر جهـدًا للتمثّـل وحـس الـمشاركة، وهـو مـا يفتقـده الـمرء فـي تنـاولات خبـراء سـوريا والشـرق الأوسـط، ممـن يتقاسـمون فـي مـا بينهـم تأويـل الشـأن السـوري فـي الغـرب. هـذا الكتـاب يفكّـر بنفسـه ضـد هـؤلاء وضـد نـوع الـمعرفة الـذي يقدّمونـه. لا يريـد القـول فقـط إن معرفـة أخـرى ممكنـة، وإنـما كذلـك أنّ الـمدخل إلـى معرفـة سـوريا هـو تجـارب السـوريين الأشـد للقسـوة الفظيعـة.

عبـر محاولـة رسـم بعـض أوجـه عنائنـا الأحـدث، والتفكيـر فـي تمثيلـه وتوليـد الـمعنى منـه، نجعـل مـن الـمعنى مجال صـراع أساسـي، ونعمل لتطويـر سياسـة مغايـرة، سياسـة الـمعنى. مـن شـأن هـذه السياسـة أن تُسـعف فـي تملّـك السـوريين تجربتهـم، وتُدْرِجهـا فـي مسعًـى تاريخـيٍّ



لتغيير شكل سوريا من العنف والتعقيد، من الفظيع وانعدام الشكل، إلى التفكير المتجدّد المنتج للمفاهيم والأشكال. تمثيل تجاربنا كركن ركين لسياسة المعنى يضعنا في موقع أقوى من أجل التمثيل السياسي والتكلّم عن شأننا بأصواتنا.

طروادة ليس معلومًا إن كانت طروادة وجدت بالفعل يومًا، وما إذا كانت حربها التي استمرّت عشر سنوات، مثل حربنا إلى اليوم، قد وقعت بالفعل، لكنّ الإلياذة والأوديسة خلقتا واقعًا أقوى من التاريخ. الأساطير الإغريقيّة والمسرح الإغريقيّ وغير قليل من الفكر الإغريقي يمدّ جذوره في سيرة حرب طروادة التي خلقها هوميروس (ليس معلومًا إن كان شخصيّة تاريخيّة هو الآخر). هذا مثال كبير لا يُجارى. ولكن ليس القصد مجاراته، بل التمثّل به.
هناك مثال أقرب إلينا: الهولوكوست، إبادة النازيين لليهود، وهو اليوم أسطورة مؤسِّسة، ليس لإسرائيل وحدها بل بصورة ما للغرب المعاصر. الهولوكوست «دين مدنيّ» في الغرب المعاصر، يستجلب درجات من الحِرَم على مَنْ يُنكِره أو يشكّك فيه، لأنه دين مشرِّع، مثل الإسلام؛ لكنه قبل ذلك وإلى جانبه مبحث هائل، لا يزال يُكتب فيه ويُقلب فيه النظر. هذا مثال تتعذّر مُجاراته كذلك، لكن لا يتعذّر تمثله.

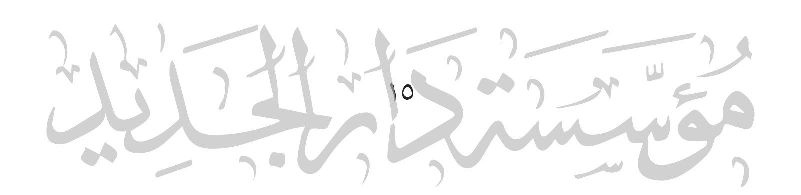
فرضيّة التمثّل ربما تفيد بأن تجربتنا خلال نحو عقد تجربةٌ مرجعية، وتمثيلنا لها مدعو إلى أن يكون مرجعيًّا، يشتبك معها، يرويها ويُفصِّلها، ويجعل منها منعطفًا في الحساسيّة والتفكير والحكم، وما تتواتر الدعوة إليه في متن الكتاب من ثورة ثقافية، ثورة في التعبير والتمثيل، في المعنى، هو استجابة للصفة المرجعية لتجربتنا الطروادية، وجهد لاحتواء فشل الثورة السياسية والاجتماعية... ولعلّ



الأصـح أنّ مرجعيّـة التجـارب تضيـع، أو لا يبقــى منهـا سـوى ذكـرى مختلطـة لألـم غامـض، حيـن لا يكـون تمثيلهـا مرجعيًّـا، يخاطـب أعمـاق الأنفـس ويثيـر فضـولًا متجـدّدًا، ويحفّـز الأذهـان إلـى أن ترجـع إليـه خـلال عقـود وأجيـال.

ياسين الحاج صالح

برلين، ٢١ تموز ٢٠٢٠



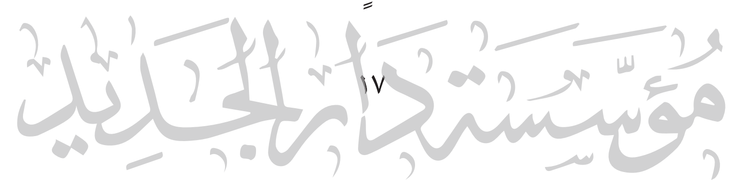

مؤسسة دار الجديد

لقمان والفظيع

مساء يوم ٢ شباط ٢٠٢١، وصلَتني من لقمان رسالةٌ تقول: "هل لكَ بنظراتٍ أخيرة على الفظيع قبل وضع اللّمسات الإخراجية الأخيرة وتَركِه لمصيره ككتاب". "الفظيع" هو هذا الكتاب الذي بين يَديِ القارئ. لقمان يُضيف: "في الصفحة ٨٤ ملاحظةٌ آمَل ألا تفوتك". ويَختِم: "على أن، سـلام".

ألقيتُ النظراتِ الأخيرةَ على الفظيع في اليوم التالي، واعتَنيتُ بالجملة المَعنِيَّة، لكنْ لسببٍ ما لم أرسِلْ ردًّا يتضمَّن الجملةَ السليمة. وفي اليوم الذي بعده كان لقمانُ قد أعدِمَ في سيّارته بستٍّ رصاصات، وهذا على طريق عودته من زيارةٍ لأصدقاء في الجنوب إلى مسكن العائلة في ضاحية بيروت الجنوبيّة.

قتلةُ لقمان معروفون إلى درجةِ أنَّ عائلتَه رفضتْ تحقيقًا تقوم به السلطاتُ اللبنانيّة التي يشغلُ القتلةُ فيها موقعًا نافذًا. في لبنان حزبُ اغتيالٍ معروف، له تاريخٌ في تصفية خصومه، وخصومِ الحكم الأسديِّ في سوريا، وله تاريخٌ أحدَث في قتل السوريِّين، يُرجَّح له أن يكونَ أعمقَ أثرًا وأوسع نِطاقًا. ومثلما في دولة الأسديِّين طوال فوق نصف قرنٍ من تاريخها، سار قتلُ الناس



وإعـدامُ الحقيقـة متعانقَيـن مثـل حبيـبَين لا يفترقـان. فـي "كاتـم الصـوت" الـذي كان آخـرَ مـا رأى لقمـان مـن العالـم يلتـقي صنـعُ الـموت بقتـلِ الصَّـوت. مصيـره مثـالٌ ناطـقٌ علـى ذلـك العنـاق السـامّ.

الفظيـع نـموذجٌ لتحطيـم الأجسـاد والعمـران البشـريّ، ولـتَحطيم الحقيقـة كـنتاجٍ لـمُداولةٍ حُـرّة بيـن بشـرٍ مُتعدِّديـن. لا توجَـد الحقيقة خـارجَ الـمداولة وخـارج التعـدّد، خـارج أجسـادٍ تتحـرّك وتتحـاور بحرّيـة وأمـان. خارجهمـا، هنـاك الاغتيـال وهنـاك "الحقيقـة" التـي تقـوم علـى الاغتـيال: افتـداء حـذاءٍ مـا .

القتـلُ الحقـود لـلقمان ينـدرج ضمـن نـموذجِ الفظيـع هـذا الـذي يتـقصَّاه الكتـاب فـي قسـمَيه، قسـم أوّل يتنـاول تحطيـمَ الأجسـاد، وقسـم ثـانٍ يحـاول التفكيـرَ فـي تسـميةِ وتمثيـلِ تحطيـم الأجسـاد. يبـدو هـذا مبعـثَ تشـاؤم، فالفظيـع لا يستسلـم للتمثيـل: يُقـتل لقمـان ليقـول إنـه لا يـزال فـي ريعـان شـبابه، إنَّ محاولـةَ وصفـه وكتابـةَ سـيرته سـابقةٌ لأوانهـا، وإنَّ مَـن يفعـلْ يَمُـتْ. لكننـا نعلـم، وكان لقمـان يعلـم، أنّ الفظيـعَ لا ينتظـر أن يُسـمَّى لـيستسلـم، مثلـما نعلـم أن تسـميتَنا لـه جـزءٌ مـن صِراعنـا معـه، صـراع كان مُكـلِفًا علـى الـدوام، كان اشـتباكًا مـع التعذيـب والقسـوة والخسـارة، كان الـموت أفقًـا دائمًـا لـه. لقمـان برهـنَ علـى ذلـك فـي حياتـه وفـي موتـه.

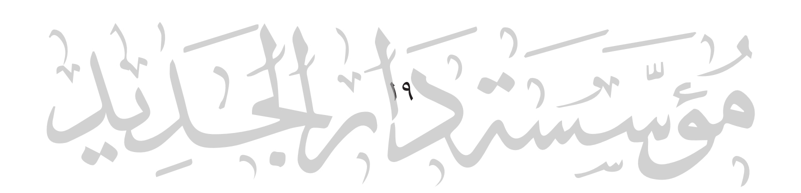
نحـن نَـروي، لدينـا قصـصٌ رهيبـة تُـروَى. لكـنَّ هـذا لا يعنـي قبـولًا بـتَقسيم عمـلٍ يُمليـه الحـذاء السيد: نحـن نـروي وهـم يقتـلون. هـم يقتـلون كـي لا نَـروي، ونحـن نـروي كـي لا نُقـتل، ولا نَقـتل، لكـنَّ وقـتَ ضـربِ اليـد التـي تُمسِـك بكاتـم الصـوت آتٍ.

هـذا الكتـاب كان مُهـدًى إلـى غائبـة، امرأتـي سـميرة الخليـل، غيَّـبها أشـباهٌ لحـزب الاغتـيال فـي لبنـان، وشـركاءُ لـه فـي هـدر الحيـاة



البشــريّة على مذبح أساطيــرَ ميــتة ومُميــتة. والكتـاب اليـوم مُهدًى إلـى لقمـان سـليم، شـريك لــسميرة فـي اختبـار الفظيـع الـذي لــم يَنــجُ، ولـن يَنــجوَ، منـه أحـدٌ فـي سـوريا ولبنـان إنْ هـو نــجا.

ياسين
برلين، ١٦ آذار ٢٠٢١




مؤسسة دار الجديد

القسم الأول

إنتاج الفظيع




مؤسسة دار الجديد

الحبُّ والتعذيب والاغتصاب، والإبادة

مقالات إلى سميرة (*)

لا يبدو أن هناك شيئين أكثر تباعدًا من الحب والتعذيب. الحبُّ يُوحِّدنا مع غيرنا فيُعطينا قوة وثقة، والتعذيب يُفرِّقنا عن أنفسنا فيكون أشد ما يُضعفنا ويكشفنا. في الحبّ نخرج من نفوسنا إلى حبيب نمتلئ به، وفي التعذيب يُلاحقنا إلى داخل نفوسنا عدوٌّ يعمل على تفريغنا وتجويفنا. فيما عدا أنّ الحبّ والتعذيب علاقتان بين طرفين، أو هكذا يبدوان للوهلة الأولى، إلّا أنهما على طرفَي نقيض في كلّ شيء آخر.

لكن بين هاتين العلاقتين ما هو مشترك، وما يُضِيءُ عَلَيْهما معًا: محو الحدود بين طرفي العلاقة المباشرين.

•

الحبّ في الحبّ نتخلّى عن حدودنا، نسمح للمحبوب بعبور الحدود إلينا والدخول في عالمنا، ويسمح لنا المحبوب بعبور الحدود إليه والدخول في مجاله. لا أتكلّم على الحدود الجسديّة، ولكن أيضًا على حدود الفضاء الشخصيّ. الحبّ هو هذا الامِّحاءُ لصنفَي الحدود،

(*) المقالةُ الخامسةُ من ثماني مقالات، روّسها الكاتب باسم زوجته المغيّبة، سميرة الخليل، ونُشرت عام ٢٠١٨.



وتَشَـكُّلنا مـع الحبيـب فـي كيـان واحـد، تُمثّلـه غالبًـا السُّـكنى فـي بيـت واحـد. وبقـدر مـا يـزول الفـرق بيننا، يبـرز الفرق بيننـا نحـن الاثنين/الواحد وبيـن غيرنـا، بمـا فـي ذلـك أسـرتانا السـابقتان. نصبـح نحـن واحـدًا بعدمـا كنـا اثنيـن، وننفصـل فـي الآن نفسـه عـن وحداتنـا السـابقة، أو نخـرج فـي الحـبّ مـن وحدتنـا إن كنـا مُنفصليـن سـلفًا عـن وحـدات سـابقة.

مــن لطائــف الحــبّ اليوميّــة مـا يتداولـه الحبيبـان مــن نــمائم عــن معارفهمـا، وحتّـى عـن أفـراد أسـرتيهما، بمـن فيهما أمَّيهمـا وأبويهمـا، مما لا يجـري تداولـه عـادة حتى مـع الأصدقاء الــمقرّبين. ومن تعثّـرات الحب الـمؤلــمة أن تُفشـى هـذه الأسـرار الصغيـرة أو أن يسـتغلها أحـد الحبيبين ضـدّ الآخـر حيـن يحـدث أن تتداعـى علاقتهمـا وتُعـاود حـدودٌ جديـدة الارتسـام بينهمـا. ومـن توتّـرات الحـبّ أن نخـاف مـن زوال حدودنـا مـع حبيـب كـي لا ننكشـف ضعفـاء، فنقتـرب نحـوه خطـوة ونرجـع خطـوة، أو لا نسـمح بـزوال حدودنـا إلا لأوقـات محـدودة، لحظـات الجنـس مثـلًا، فتصيـر هــذه اللحظـات بالـذات رمـزًا للحـدود لا لزوالهـا. الخـوف مــن الحــبّ علـى هـذا النحـو، أو كـره الحـبّ، شـائع.

وأعلـى ذرى الحـب تتّصـل بمـا يتكـرر فـي أغنيـة الحـبّ العربيـة: الذوبـان، الـزوال التـام للحـدود بيـن الحبيبيـن. وهـذا لا يقتصـر علـى أوقـات الاتحاد الجنسـي، بـل هـو مما يميّـز الحيـاة الــمشتركة الــمديدة بيـن شـريكين متحابّيْـن أيضًـا. فـي كل حـال، الحبّ تجـاوزٌ متبـادل للحـدود وزوال متبادل للآخريّـة. و«الذوبـان»، فقـدان التحكّـم بالنفـس وضيـاع الحـدود، هـو مـا يخشـى بعضنـا الوقـوعَ فيـه، وبخاصّـة فـي الزمـن الــمعاصر حيـث يحمل كثيـرون منّـا حدودهـم أينــما ذهبـوا كأنّهـم سـلاحف تحمل دروعهـا معها (وإن نكـن اليـوم سـلاحف متعجّلـة)، وحيـث يـكاد يـزول الحب لــمصلحة



علاقات التعاقد العقلاني بين أفراد. نريد الحبّ ونخشى الذوبان.

التَّعْذيب في التعذيب زوال للحدود أيضًا، يتجاوز فيها المعذِّب حدود المعذَّب أو المعذبة، بما يمسّ بهذه الحدود وبالتكامل الجسديّ للضحيّة. المعذّب، الجلاد القائم بالتعذيب، يطارد المعذّب إلى داخل نفسه، يعمل على أن يُفرغ هذا الداخل أو يحتلّه أو يدمّره.

إزالة الحدود في التعذيب فِعل انتهاكٍ عنيف، وقد يكون مميتًا. تموت الضحيّة حين تفقد حدودها كلّها، ويزول كلّ حدٍّ بينها وبين عالم الأشياء. الانتهاك قسريّ من جهة، يجري ضد إرادة المعذَّب، وهو من جهة أخرى غير تبادلي. المعذِّب والمعذبة ليسا شريكَين في علاقة التعذيب، ما يجعلها «لا علاقة» أو «ضد علاقة» إن جاز التعبير، رابطة تدمير. يكون المعذَّب في وضع انكشاف شديد، موشك على فقد ملكيّة نفسه، جسده أو جسدها هو ساحة المعركة. يقاوم، يحاول حماية حدوده بالتحمّل. لا يكاد يصدق أنه هنا، أنّه وقع هذه الوقعة التي لا تنعكس. لكن عليه أن يصدّق كي يخوض المعركة موحدًا، وينجو بما يمكن من جسده وداخله. يعرف أنه إنِ «انهار»، تداعت حدوده، ضيّع نفسه وقد لا يجدها من جديد يومًا.

في الحبّ يفقد فردان كيانَيهما ليصيرا واحدًا، في التعذيب قد يفقد المعذّب أو المعذّبة كيانه، يباح لفرد أو أفراد آخرين، كأنما يرهنون سلامة كيانهم بانعدام سلامة كيان الضحيّة.

بالاستناد إلى الخبرة السوريّة خلال جيلين، قد يمكن التمييز بين ثلاثة صنوف للتعذيب وثلاثة انتهاكات للحدود: تعذيب تحقيقيّ أو استجوابيّ، تعذيب إذلالي/انتقامي، وتعذيب إبادي.



التعذيب التحقيقيّ يلعب على حدود المعذَّب، ينتهكها، ويهدف إلى إثارة «حرب أهلية» في داخله، نزاع بين غريزة البقاء الفرديّ والالتزامات العليا للفرد ككائن اجتماعيٍّ حيال جماعة، رفاق وشركاء. تتراوح مآلات هذه «الحرب ـ في ـ النفس» بين تضحية المعذَّب بالأعلى والغيري فيه لمصلحة الأدنى والأنانيّ (بقائه)، أو بموته حمايةً لما نسمّيه في العربية سريرته، موضع السر منه. هذا ما كان يتعرّض له أعضاء المنظّمات السياسية المعارضة التي يريد النظام إبادتها كمنظمات دون إبادة أعضائها بالضرورة. جريمة المعذّب هي انحيازه السياسيّ المعارض للنظام، انتسابه إلى مجموعة معارضة، وليست فعلًا محددًا قام به كفرد. لكن هنا انفصال بين جهاز الاعتقال والتعذيب، وهما واحد، وبين جهاز الحبس، شبكة السجون.

بعد التحقيق أحيل المعتقلون الذين تعرّضوا لتعذيب تحقيقيٍّ حصرًا، وكنت منهم في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، إلى «سجون عادية» كانت العقوبات الجسديّة فيها محدودة. على أننا كنا نَشغَل في السجون موقعًا معزولًا عن غيرنا، تديره أجهزة الاعتقال والتعذيب ذاتها. السجون هي بمثابة مستودعات محروسة، نُركَن فيها لأزمنة غير معلومة، أمّا المقرّات الأمنيّة التي تقوم بالاعتقال والتعذيب، فهي بمثابة مصانع. والمنتوج كما سيقال في الفصل المقبل هو السلطة.

غرض الجلّاد، أو بالأحرى «البرنامج» الذي ينضبط عمله به، هو أن يَسود على المعذّب، يجتاز حدوده ويقيم في داخله ويتجوّل بحرّية، يُفرِّغه ويستولي على «دخيلته». وجهد المعذَّب هو أن يحول دون ذلك، أي أن يحمي ذاتيّته، داخله الأهم.



هناك صنف آخر من التعذيب التحقيقيّ، يعمل على إبادة المعنِيّين تنظيمًا وأشخاصًا. وفي جيلي هذا كان من نصيب الإسلاميين بخاصّة. هنا يتجاوز الأمر إثارة حرب أهلية في دواخل المعذّبين، إلى احتلالٍ دائمٍ لمن لم يمت منهم.

وهنا كانت تُمحى الحدود بين التعذيب التحقيقيّ والتعذيب الإذلالي. ومن هذا الصنف الأخير أكثر التعذيب الذي خبرناه في سوريا: تعذيب انتقاميّ ـ إذلاليّ، غارات تعذيب مستمرّة وعشوائيّة معًا، لا تبالي بحدود المعذب ولا داخله، ولا مصيره، تضعه في «حالة استثناء» دائمة لا يستطيع توقّع ما يحدث له، ولا يتوقّع منه جهاز التعذيب شيئًا. جريمة المعذّب هنا أيضًا ليست شيئًا محدّدًا فعله، وليست حتّى موقفه السياسيّ المعارض، بل هي انتماؤه (نصّ قانون صدر في ٧ تموز ١٩٨٠ على إعدام كل منتسب إلى الإخوان المسلمين، أيًّا يكن ما فعله أو لم يفعله).

لا شيء يُجدي المعتقل هنا، ولا ينفعه استسلام. يمكن أن يتعرّض المعتقلون لتعذيب عشوائي يوميّ لسنين طويلة، العقدين الأخيرين من القرن العشرين بكاملهما، دون أن يكون متاحًا للمعذَّب أن يستسلم وينهي عذابه، ومع هامش عريض من التسامح بموت المعتقلين.

التعذيب في معسكرات تعذيب مثل سجن تدمر أيام حافظ، وسجن صيدنايا في سنوات بشار، من هذا الصنف الذي أرجِّح أن يكون مقصوده صنع ذاكرة لا تَنسى، موجّهة نحو ما يتجاوز المعذّب نفسه من ردعِ وترهيبِ السُّكان كلّهم. جسد المعذب المنكمش وكلماته المتقطّعة هما بمثابة لوحة إعلان تخاطب من يراه كي يصير التماهي به ممتنعًا.



التعذيب بهذا المعنى علاقة سياسيّة، ليس من يجري تعذيبهم غير ضحاياها المباشرين. هذا هو الحال على الأقل في «سوريا الأسد»، التي هي دولة اعتقال وتعذيب منذ قيامها مطلع سبعينيّات القرن العشرين، اقتضت أن تكون أجساد المحكومين مباحة لها بلا حدود. «البرنامج» هنا هو تجاوز حدود المجتمع، مما كان محسوسًا من قِبَل سوريين كثيرين في أواخر سبعينيات القرن العشرين ومطلع ثمانينياته، قبل أن يجريَ تطبيع تجاوز الحدود، وتراجع استهوال أيّ انتهاك مهما يكن فادحًا، أو انحصاره في دوائر أضيق.

أتكلّم على معسكرات تعذيب لأن هذا هو ما يجري هناك أساسًا. لم نعرف في سوريا معسكرات عملٍ قسريٍّ مثلما عرفت ألمانيا النازية وروسيا الستالينية، ولم نعرف «معسكرات الغربَلة»،[1] يجري فيها تجميع كلّ الناس في منطقة ما قبل الاحتفاظ بمن تريد السلطات قتلَهم أو تعذيبهم، مثلما فعلت روسيا في الشيشان في النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي. لكنّ معسكرات التعذيب الأسدية تقارب معسكرات القتل النازية من حيث إنّ تركيز السجناء فيها قد يُمهد لقتلهم الفوريّ أو بعد حين. سجن صيدنايا هو معسكر اعتقال ومعسكر قتل في آن. سجن تدمر في العقدين الأخيرين من القرن الماضي مثله.

وفي الحالين هناك استمرار بين جهاز الاعتقال والتعذيب التحقيقيّ، المفرط الحدّ هنا، وبين معسكر التعذيب الذي يقضي فيه المعتقلون سنوات قد تتجاوز العشرين، وهذا رغم الانفصال المكانيّ بينهما. التعذيب لا يتوقف بعد التحقيق، يستمرّ حتّى موت المعتقلين أو

(١) المقصود: Filtration Camps



خروجهـم بعـد سـنوات طويلـة مُحطّميـن.

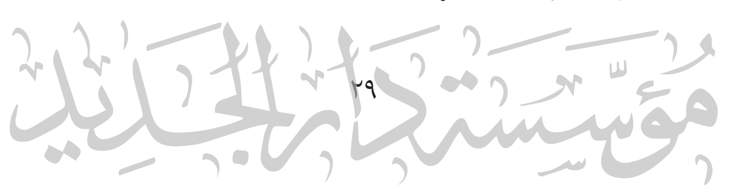
والسـؤال الـذي يُثـار فـي هـذه الحالـة: لـماذا يجـري تعذيـب وإذلال من يُرجّـح أن يعدمـوا بعـد حيـن؟ هـذه الـمفارقة اسـتوقفت بعـض دارسـي الجينوسـايد، ويبـدو أنّ التعذيـب فـي مثـل هـذه الحالـة مُـوجَّـهٌ نحـو الجلاديـن، يـروم إشـراكهم فـي الانفصـال التـام عـن الـمعذّبين والتماهـي التـام بالقاتـل. الغـرض الـمرجّح هو «التشـريط الـمناسب لـمن يقومون بـالإذلال كـي يسـتطيعوا القيـام بمـا يفعلـون»، بحسـب فرانـز شـتانغل الـذي كان آمـرًا لـمعسكرَي اعتقـال سـوبيبور وتربلنـكا النازييـن، علـى مـا أوردت إيفـا فوغلـمان فـي بحـث لهـا عـن «الاغتصـاب أثنـاء الهولوكوسـت النـازيّ: انكشـافات ودوافـع».[٢] أي أنّ الغـرض هـو ضمـان تحـول القائميـن بالتعذيـب إلـى محـض معذِّبيـن، اختصاصيِّـي تعذيـب، أكْفَـاء فـي التعذيـب يُسـتنفَدون فيـه ولا يُجيـدون غيـره، مـا مـن شـأنه أن يشـدّهم إلـى مـن يوفّـر لهـم الأجسـاد اللازمـة للقيـام بمـا هـم أهـل لـه. وتنسـب فوغلـمان إلـى بريمـو ليفـي قولـه في شـرح الشـيء نفسـه: «يجـب الحـطّ مـن شـأنهم [الـمعذَّبين] قبـل قتلهـم مـن أجـل تخفيـف الشـعور بالذنـب عنـد القاتـل».[٣] علاقـة التعذيـب لا تُقتصَـر بالتالـي علـى تفريـغ الـمعذَّب مـن ذاتيّتـه، بـل هـي تُفـرِّغ الجـلّاد أيضًـا، تجعـل منـه قـوّة جلـد وتعذيـب لا أكثـر.

علـى أنّ التعذيـب يمكـن أن يكـون إثباتًـا للقـوّة وجسـارة القلـب، ممـا لا يقـدر عليـه رجـال مخنّثـون أو «طنطـات» كمـا كان يقـال لنـا، نحـن

---

(٢) راجع صفحة ٢٥ من:
Rape: Weapon of War and Genocide, edited by Carol Rittner & John K. Roth, Paragon House, 2012.

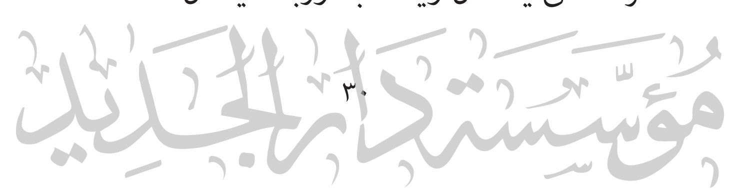
(٣) الـمصدر نفسه والصفحة نفسها.



الـمعتقلون اليساريّون في سجن تدمر عام ١٩٩٦. إنه فعل رجولة، انتصار على رجال آخرين (وإن يكونوا عُزّلًا ولا حول لهم، كحال الـمعتقلين جميعًا)، وانتماء إلى الطرف القويّ الـمنتصر حتمًا، الذي يخطئ/ يُجْرم من يواجهه وعليه أن يدفع ثمن أخطائه/ جرائمه. وهو ما يلقى التعزيز من مُعذِّبين آخرين يروون بطولاتهم ويتداولون النكت عن رعب الـمعذّبين وتَفلُّت أجسادهم منهم، فضلًا عما يَلقونه من مكافآت وترقيات وتقدير من وكالة التعذيب العامّة: الدولة.

ففي كلّ حال، التعذيب علاقة ثلاثيّة: الـمعذَّب، والـمعذِّب الـمباشر، ووكالة التعذيب. ويبقى ما تقدمت الإشارة إليه من كون التعذيب علاقة سياسية تستهدف عموم السكان هو الجوهري، وهو ما يُسوِّغ الكلام على «سوريا الأسد» كدولة تعذيب.

وهناك ضرب ثالث هو التعذيب الإباديّ، إذا جاز التعبير، حيث يُقتل الـمعذّبون بالجملة ويوضعون في شروط من الجوع والـمرض والازدحام والرعب والإذلال وتلوّث الهواء في زنازينَ خانقة كريهة الرائحة، تجعل من الـموت راحة. تقوم بالتعذيب الإباديّ آلةٌ تعذيبيّة تجمع بين أنشطة الاعتقال والتعذيب والقتل ونقل الـمقتولين ودفنهم في مقابر جماعية غير معلومة الـمواقع، فضلًا عن التوثيق ورفع الـمعلومات إلى جهات أعلى. وتشمل الآلة الإباديّة فروعًا أمنية ومَشافٍ وسجونًا مُستحدَثة أو أقدم، وهي جزء من التحوّل الإباديّ للنظام بعد الثورة في ربيع ٢٠١١. هنا صار التحقيق والإذلال يندرجان في إبادة تتجاوزهما. وجريمة الـمعذَّب هنا هي ما يكونه، وليست ما يعتقده أو ما فعله. في حالات كثيرة يكفي انحداره من منطقة ثائرة حتى يُعتقل ويُعذب، وربما يُقتل.



ومـن خصائـص التعذيـب الإبـاديّ أنـه منظّـم ومسـتمرّ، ولا يُتـرك لقـرار وكالات التعذيـب الـمباشرة. فلديهـا علـى الأرجـح توجيهـات للعمـل بكلّ الطـرق علـى إبـادة الثائريـن والـمشتبه بهـم، ويبـدو أنهـا تحـوز تفويضًـا بـألا تقـف عنـد حـد. وترقيـم جثـث الضحايـا وتصويرهـا وتوثيقها، مثلــما نعلــم مـن تقريـر سـيزار (٥٥ ألـف صـورة سـرّبها عـام ٢٠١٣ شـخص كان يصـوّر الجثـث الـمرقّمة بأمـر مـن جهـات عليـا) تؤشّـر علـى صناعـة قتلٍ منظّمة.[٤]

وبينــما يتجـاوز التعذيـبُ التحقيقـيّ حدودَ الـمعذَّب والتعذيـبُ الإذلاليّ حــدودَ الــمجتمع، فــإن التعذيــب الإبــاديّ يتجــاوز حــدود الإنســانية، ويخـرج عـن الـمقياس الإنسـاني. هـذا التعذيـب جـزء مـن مُركّب إبـاديّ، هــو مــا يســمى الجينوســايد عــادةً. فــإذا كان كلّ شــيء ممكنًــا فــي معسـكر الاعتقـال، علـى مـا قالـت حنّـة آرنـدت وجعلـت مـن ذلـك مبـدأ أساسـيًّا للتوتاليتاريـة، فـإن الوجـه الآخـر للـمعسكر هـو الحريـة الكاملـة لدولـة الإبـادة، توسّـعها فـي التعذيـب والقتـل دون حـدود. اِنتهـاك حـدود الــمعتقلين يقتضـي ألّا يكـون لوكالـة الاعتقـال والقتـل أيّ حـدود.

ولعـلّ مـن الــمناسب فـي هـذا الـمقام اسـتحضار التمييـز الـذي أقامتـه سـامنثا فلسـياتوري بيـن الـموت تحـت التعذيـب والـموت بالتعذيـب. تقــول الباحثــة الإيطاليّــة إنّ الــموت فــي الحالــة الأولــى أثــر جانبــيّ

---

(٤) يراجـع فـي هـذا الشـأن تقريـر هيومـان رايتـس ووتـش: «لـو أن الـموتى يتكلّمون» الـمتاح علـى موقـع الـمنظمة الـمذكورة.

تراجع أيضًا مقالة غارانس لوكين الـمنشورة في **الغارديان** بتاريخ 1 تشرين الأول/أكتوبر 2015:

«They were torturing to kill: inside Syria’s death machine»

الـمتاحة على موقع الصحيفة الـمذكورة، وكذلك كتابها:

Operation Caesar: At the Heart of the Syrian Death Machine , I.B. Tauris and Co. Ltd, London 2017.



للتعذيب، بينما هو نتاجه المقصود في الحالة الثانية.[٥] التعذيب في هذه الحالة الثانية هو منهج للقتل، مثل المجازر والقصف بالبراميل والسارين، يجمعها مستمرُّ الإبادة. القتل تحت التعذيب لا يقتضي الإبادة حتمًا. في عهد بشّار الأسد جرى التحوّل من التعذيب الإذلاليّ في عهد أبيه إلى التعذيب الإباديّ، ومن الموت تحت التعذيب إلى الموت بالتعذيب. كان هناك تعذيب إبادي قطاعي في عهد الأب (سجن تدمر، والمذابح، بخاصة مذبحة حماه ١٩٨٢)، صار تعذيبًا إباديًّا معمّمًا في عهد الابن. اِقترنت الإبادية بالإفلات المضمون من العقاب على ما تكرّس منذ الصفقة الكيمياويّة في أيلول ٢٠١٣ (بين الروس والأميركيين، وبإلهام إسرائيلي.[٦] وتقضي الصفقة بنزع سلاح النظام الكيمياويّ، دون أيّ تحفّظ على قتل محكوميه بوسائل أخرى، بل حتى بالكيمياوي نفسه كما تبين مرارًا بعد ذلك).

وفي أشكاله الثلاثة يحطّم التعذيب اللغة التي يعي المعذَّب نفسه يُعبِّر عن نفسه من خلالها. يحلّ محلها الصراخ، وهو مشترك بيننا وبين الحيوانات حين نُختزل في أجساد متألمة. بيان اللغة مرتبط بمسافة مُصانة بيننا وبين من نُكَلِّم، بتكامل جسدنا وتباينه عمّن نخاطب، وهو مشروط تاليًا بغياب التعذيب. لا نستطيع أن نتكلّم بينما هناك من يحاول اقتحام أجسادنا بعنف. وقد يفقد المعذب الكلام نهائيًّا، حتّى بعد انتهاء تعذيبه، أو حتى بعد خروجه من المعتقل: ينسحب إلى داخل نفسه صامتًا، وربما يفقد حتى الكلام

---

(٥) من أطروحة جامعية لها بعنوان:

S. Falciatori, *International Crimes in Syria: Options for Accountability and Prosecution*, 2016.

(٦) تنظر مقالة جودي رودورن: «الإسرائيليون ساعدوا في الإلهام بالصفقة الأميركية الروسية مع الأسد»، **نيويورك تايمز**، ١٥ حزيران ٢٠١٥.



مع نفسه.

•

الاغتصاب ليس هناك تعذيب ليس مُذلًّا، وإن لم يكن كلّ تعذيب إذلاليًّا بالدلالة الاصطلاحيّة للتعبير؛ لكنّ الاغتصاب هو الإذلال المحض. ما يجعل الاغتصاب أشنع الجرائم هو أنّه تعذيب يرتدي قناعَ العلاقة الأكثر حميميّة. تجد المُغتصبة نفسها في وضع من انتهاك حدودها سبق أن اقترن، إن كانت لها حياة عشقيّة وجنسية سابقة، بإزالتها الحدود بينها وبين شريكها، وإن لم تكن لها حياة جنسيّة اقترن بما تتخيّله من اتحادها دون حدود وحواجز مع شريك أو شريكة. في الاغتصاب تُنتهك حدودها، ويفلت جسدها منها ليس دون رضاها ودون تجاوب منها فقط، وإنما غصبًا عنها، وتجد نفسها في وضع انكشافٍ أقصى. بصيغة تُذكّر بجان آمري، المثقّف اليهودي البلجيكي الناجي من الهولوكوست، الذي يقول عن تجربته الشخصيّة إنّ أوّل لَطمة أثناء التعذيب تتسبب بتحطّم الثقة بالعالم،[٧] وتقول نور، وهي مغتصبة سوريّة من درعا في فيلم **الصرخة المخنوقة** لمانون لوازو:[٨] «أوّل طرف إيد انمدّت ولمست جسمي حسيت في شي عم ينهار». الانهيار هو تداعي الحدود، وإن إلى الداخل. وبما يتجاوز زوال الحدود إلى تعدّد كيانات المرأة وحدودها، وتبعثرها، تضيف نور: «كنت

---

(٧) انظر:
Jean Amery, *At the Mind's Limit, Contemplation by a Survivor on Auschwitz and its Realities*, Indiana University Press, 1980, P 28.

(٨) الفيلم متاح هنا:
https://www.youtube.com/watch?v=9CYQq9cW4nM



خايفة (...) فكري مو لجسمي، وجسمي مو لروحي، روحي بمكان وجسمي [بمكان] بين إدين وحوش. فكري بعالم آخر. في شي عم ينفصل بجسدي. كلّ شي انفصل عن بعض. فكري وذكرياتي وروحي غادرت جسمي». كأنما عبر انفصالها إلى كيانات متعدّدة (فكر وروح وذكريات، وجسم) تحمي شيئًا من ذاتيّتها، تُبقي شيئًا من داخلها غير مُستباح.

يكشف الاغتصاب أكثر من التعذيب جوهرَ هذا الأخير كانتهاك لحدود المعذَّب واقتحامٍ عنيف لكيانه، بقدر ما إن تَصوّر التعذيب كانتهاك للحدود يُضيء حقيقة الاغتصاب كتعذيب أساسًا. وبقدر ما إنّ تعذيب الرجال فِعلُ رجولة في عين الجلّاد كما تقدم، فإن اغتصاب النساء فعل فحولة. الفحولة هي الوجه الجنسيّ للرجولة، التي هي الوجه الاجتماعيّ العام لكفاءات الرجل الناضج الشجاع القوي. لكنّنا حيال رجولة وفحولة مُنحطّتين، فمن يجري تعذيبهم هم عُزَّل غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم، ومن يجري اغتصابهنّ نساء معتقلات ومُرتاعات.

عبر الدخول العنيف والقسري في جسم المغتصبة يضع الجلّاد يده على داخلها، على ذاتها، «فكرها وذكرياتها وروحها». أعز ما تملك المرأة هو ذاته أعز ما يملك الرجل، «الفكر والذكريات والروح»، الذاتيّة، وهذه تتحطّم أو تتشظّى حين تتعرّض للاغتصاب، وحين يُقتحم داخلها من طرف خارج معادٍ قوي.

وعن تفكُّكٍ مماثل تتكلّم السيدة فوزية حسين الخلف من الحُولة: «لما اغتصبني كنت بدِنيا صرت بدنيا تانية». لعلها في إحدى الدُّنيَيَيْن ظلّت سيّدة نفسها، وإن كانت مستباحة في أخراهما. فوزية حاولت افتداء ابنتها دون جدوى. الفتاة اغتُصبت وقتلت في



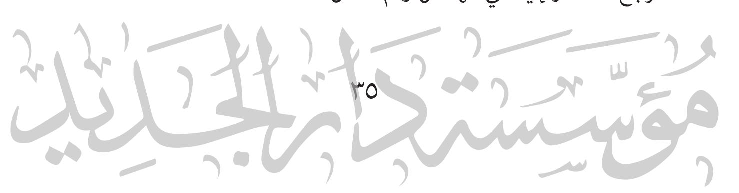
مذبحـة الحولـة، أيـار ٢٠١٢. أبوهـا قتـل أيضًـا.

وَضـع الــمغتصَبة مثـل وضـع الــمعذَّب أو الــمعذَّبة، جسـدها مُبـاح للــمعذِّبين، لكـنّ الاغتصـاب يتجـاوز ذلـك إلـى انتـزاع مُتخَيّـل إزالـة الحــدود مـع الحبيــب علــى يــد العــدو ولــمصلحته. هــذا محــوٌ انتهاكـيّ للحـدود، يُشـيّء الــمغتَصَبَة أو الــمغتَصَب ويسـلبها كيانهـا وكيانــه.

الاغتصـاب أولًا فِعـل تَملُّك: الــمرأة تُمتلَك، وليس لها مثلــما ليس للأشـياء التـي تُمتلـك رأي فـي كيفيـة اسـتخدامها. حين يقتحـم الــمغتَصِبُ بالقوّة مجـال الــمرأة الجسـديّ الحميـم، داخلهـا، لا يبقـى لهـا داخـل، «روح وفكـر وذكريـات»، تصيـر شـيئًا. هـي ذاتهـا تتـرك جسـدها، تنفصـل عنـه إلـى «عالــم آخـر» مثلــما قالـت نـور، و«دنيـا تانيـة» كمـا قالـت فوزيّـة. تحـاول علـى هـذا النحـو أن لا يأخـذ الــمغتصِب «أعـز مـا تملـك»، ذاتها، مثلــما يحـاول الــمعذَّب أن يمنـع الجـلاد مـن احتـلال داخله.

لكــنّ الجــلّاد يريــد امــرأة بــلا ذاتيــة، بــلا حريــة وقــرار واختيــار. الاغتصـاب كمزيـج مـن الإخضـاع والجنـس مـن جهة الــمغتصِب يسـتثير فـي مخيّلتـه فانتـازم الــمرأة الــمملوكة، العبـدة، التـي لا يُنتظـر منهـا اعتـراف. عبـر اغتصـاب امـرأة فـي وضـع يضمـن لـه تفوقًـا سـاحقًا فـي القـوة عليهـا يُـداري الــمغتصِبُ أوجُـه قلقـه الجنسـيّ، علـى مـا تقـول إيفـا فوغلــمان فـي البحـث نفسـه الـذي تقدّمـت الإشـارة إليـه،[9] فيقيـس ذكورتـه ويطمئـنُّ عليهـا، دون أن يخشـى اعتـراف الــمغتَصَبة الــمحرومة مـن الـكلام، ومـن الحركـة وحتـى مـن نظـرات مزدريـة. لا يسـتطيع تحمّـلَ امـرأة لــم تجـرَّد مـن حريتهـا إلـى هـذا القـدر، امـرأة

(٩) الـمرجع الـمشار إليه في الهامش رقم ٢، ص ٢٩.

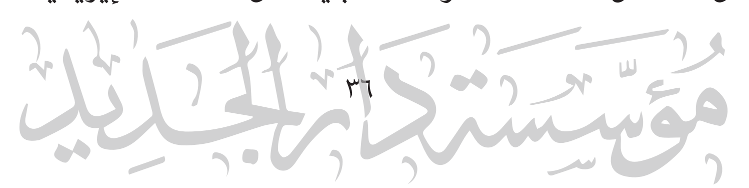


لـم تفقـد ذاتيّتهـا. نحـن حيـال لا-علاقـة هنـا أيضًـا، علاقـة مضـادة، تدميريّـة. اقتـرانُ قتـل الرجـال فـي تاريـخ الإبـادات باغتصـاب النسـاء (سربرنتشـا مثـال حديـث وبعدهـا دارفـور وإيزيديـو سـنجار مثـال أحـدث وأقـرب) يدفـع إلـى التفكيـر بالاغتصـاب كضـربٍ مـن القتـل أو مُكمِّـل لـه. الرجـال يُعذّبـون ويُقتلـون لأنهـم محاربـون محتمَلـون ومنافسـون محتملـون علـى النسـاء ومـن أجـل الاسـتئثار بهـنَّ مـن قِـبَلِ القتلـة.

الاغتصـاب فعـلُ قـوّة أيضًـا: إنـه إظهـار مَـن الـمسيطِر، وصاحـب السـلطة والكلـمة، والنظـرة، ومَـن الـمسيطَر عليهـا والخاضعـة، الصامتـة الـمكسورة العيـن، مَـن الفحـل ومَـن الجاريـة، مَـن يحتـلّ الجسـد، ومَـن تخـرج منـه لاجئـة إلـى «دنيـا ثانيـة». حيـن يقـول رابـع مُغتصبـي نـور لخامسـهم: كمِّـل، مـا بيأثـر! بينـما كانـت هـي تنـزف بغـزارة، يُضمـر أنـه لا كيـان لهـا، أنَّ نـزف دمهـا لا يَحـول بينـه وبيـن انتهـاك حدودهـا النازفـة، أن حياتهـا بالـكاد تلـزم مـن أجـل اغتصابهـا.

ومزيـج السـلطة والتملّـك يصنـع علاقـةَ سـيادة/ عبوديـة: للسـيّد الحـق فـي اغتصـاب عبدتـه أو عبداتـه. الفـرق بيـن السـيد الأسـديّ والسـيد الداعشـي هـو الفـرق بيـن نظامَيـن للعبوديـة الجنسـية. فـوق «لاهـوت» للاغتصـاب يُشـرِّعه بعبـارة فالسـياتوري، ففـي نظـام داعـش تكـون لـكلّ سـيّد عبـدة أو عبـدات، يغتصبهـنّ وقـت يشـاء، ويبيعهـن حيـن يشـاء، فيمـا العبوديّـة الأسـديّة غيـر مُقنَّنـة، وقـد تُبيـح الـمرأةَ لخمسـة مغتصبيـن أو أكثـر مثلـما جـرى لنـور، أو تُـقـسِّـم يوم الجلاديـن إلـى قسـمين: فـي الليـل يغتصبـون النسـاء اللاتـي يعذّبونهـنّ فـي النهـار، كمـا قالـت مريـم خليـف فـي الفيلـم.

لكـن داعـش أقامـت سـوقًا للسـبايا مـن النسـاء الإيزيديّـات، أي



للنخاسة الجنسية (وقتلت الرجال في سن الحرب، ما يشكّل مثالًا مخبريًّا للجينوسايد). وكان يحصل أن تُباع المرأة مرات في هذا السوق الذي نظّم الدواعش أسعار النساء فيه.(١٠) فيما اقتصرت أسواق الأسديين على منهوبات التعفيش، وإن ابتكرت لها اسمًا إباديًّا: سوق السنّة، ثم على المعلومات عن مصير المعتقلين، وقد كانت مصدر ثروات بالملايين لسماسرة المعلومات منذ أيام فيصل غانم في سجن تدمر(١١) إلى اليوم.

والعلاقة هنا أيضًا ثلاثية أو رباعية. المغتصِب، المغتصَبة، وكالة الاغتصاب التي تريد ضمان ولاءٍ لا ينعكس من المغتصِب لها، ثم جماعة المغتصَبة ومجتمعها ككل، المراد احتلاله وتحطيم ذاتيّته. مريم خليف تقول: «أنا وحيدة، أنا هون [في بلد مجاور لسوريا، غير مسمّى في الفيلم] ما لي حدا». بسبب الاغتصاب طلّقها زوجها، وأمها «قلّعتها».(١٢) العزل والوحدة، إن لم يكن القتل

(١٠) ينظر في هذا الشأن كتاب نادية مراد، الشابة الإيزيدية المسبيّة والمغتصبة التي تمكّنت من الهرب من داعش: الفتاة الأخيرة، قصتي مع الأسر ومعركتي ضد تنظيم داعش، ترجمة نادين نصرالله، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٩.

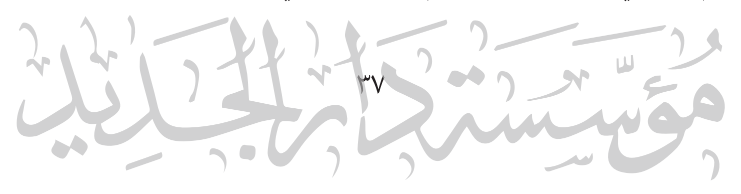
(١١) لم يُدرس الاقتصاد السياسي للاعتقال السياسي في سوريا الأسد بقدر ما يلزم من التفصيل. من شأن دراسة كهذه أن تظهر استمراريةً بين اعتقال أفراد من أجل الحصول على المال من ذويهم وبين خصخصة الدولة في سوريا لتكوين أرستقراطية جديدة متوحّشة. في شأن فيصل غانم مدير سجن تدمر في ثمانينيات القرن الماضي، يُنظر رواية مصطفى خليفة: القوقعة. يقول الراوي أن ثروة غانم توقفت عند ٦٥٠ كيلو غرامًا من الذهب، بسبب حلول نائبه محله. يراجع أيضًا مقال سلطان جلبي **تجارة الاعتقال في سجون ومعتقلات النظام السوري** المتاحة على موقع **سيريا أنتولد دوت كوم**:

https://syriauntold.com

(١٢) أفرج عن مريم في صفقة تبادل أسرى للنظام مع معتقلين، وتزوجت لاحقًا من رجل يصفها بأنها تاج على رأسه. يراجع هنا الفيديو المؤثر عن قصته.

https://www.youtube.com/watch?v=X6gq99BetH8

تقول مريم إنها تربي أولادها الأربعة، أحدهم من زواجها الثاني، ليبنوا سوريا.



كما يبدو أنه كان مصير ألوى، وهي مغتصبة من درعا، على يد والدها، هو المراد من قِبَلِ وكالة الاغتصاب. تُسهل البطريركية التي تختزل ذاتية المرأة في جسدها عملها. ألوى العذراء تعرّضت لقتل مضاعف حين اغتصبها الأسديّون، وقتلها أبوها.

بعد وجهَي السيادة، التملك والسيطرة، الاغتصاب ليس فعلًا جنسيًّا حتى في المقام الأخير. هذا جوهريًّا فعلٌ حميميٌّ، قد لا يكون مُرضيًا للمرأة، وللرجل، كما يشيع الحال في مجتمعاتنا في إطار الحياة الزوجيّة أو الغراميّة، وقد تُضطر المرأة إليه تحت إلحاحٍ أو حتى إرغام الشريك. لكنّ الاغتصاب ليس مجردَ إرغام على ممارسة الجنس، بل هو فعل استباحة، مجردٌ كُليًّا من الحميمية، ويشيع أن تتعرّض المغتَصَبَة فيه لانتهاك متكرّر من كثيرين. هكذا جرى في البوسنة على يد الجيش والميليشيات الصربيّة، ومثلما جرى لنساء من التوتسي في رواندا على يد الجيش وميليشيا الإنتراهامفي المكوّنة من الهوتو، وفي دارفور على يد ميليشيات الجانجاويد. هذه كلّها أمثلة على الجينوسايد، يندرج ضمنها ما يجري في السجون الأسديّة، حسبما روت المغتَصبات في **الصرخة المخنوقة**. الاغتصاب سلاح حربٍ شائعٌ، عرفَته حروب وعمليّات إبادة أخرى، استُخدمتِ النساء فيه للجنس، كما لخدمة محاربين حطّموا مجتمعاتهنَّ وربما قتلوا أُسرهن. إباحة المغتصبة تتجاوز الإرغام الجنسي في وضع مُخيف لها، يتعدّاه إلى شراكة مغتصبين في انتهاك حدود المغتَصَبَة واحتلالها. ويبدو أنّ هذا يَخْلُقُ رابطةً جمعيّة بين المغتصبين، ويضمنُ ولاءهم لبعضهم، بقدر ما هو يستهدف تحطيم مجتمع المُغتصبات.

يُظْهِر التكوين الإبادي للاغتصاب في اغتصاب الرجال أكثر من النساء.



هنا ليس ثمة اختبار لذكورته الشخصيّة يمارسها كرجل في الشروط الأنسب له. ثم إن الإبادة تظهر في صورة أشدَّ عريًا عند اغتصاب الرجال بأدوات. وهناك رواية شخصيّة واحدة على الأقل عن ذلك (شهادة مازن حمادة[١٣])، ومشهدٌ مُصوّر لانتهاك ولد بالعصا أدرجه أسامة محمد في فيلم **ماء الفضة**. يظهر إعلان السلطة والـمُلكيّة هنا عاريًا، منفصلًا تمامًا عن تمتّع الـمغتصِب الجنسيّ أو اختبار ذكورته. يمكن تصوّر تمتع الـمغتصب باغتصاب ولد أو رجل، لكن ليست هناك روايات شخصيّة في هذا الشأن، والـمتاح منها يُحيل إلى التحطيم والقتل. ولا يحيل إلى غيرهما إجبار معتقلين على انتهاك بعضهم جنسيًّا. هذا الـمسلك الذي يتحدّى الفهم كان مفتوحًا على الإبادة الفيزيائيّة للـمعتقلين كما أظهر تقرير منظمة العفو الدولية، **الـمسلخ البشريّ**، عن سجن صيدنايا في شباط ٢٠١٧.[١٤] وما يقوله بريمو ليفي عن الحطِّ من الـمعتقلين قبل قتلهم لتقليل شعور القتلة بالذنب قد يكون في مكانه هنا.

من حيث هو مُوجَّه نحو تدمير الجماعات، تتعهّده وكالة اغتصاب عامّة هي الدولة. الاغتصاب فعلُ إبادة يندرج ضمن الجينوسايد. التعذيب الإباديُّ واغتصاب النساء وجهان متكاملان للإبادة من حيث إنّ قَطْعَ نسل الـمرأة الـمغتَصَبة، وهو ما يتواتر

---

(١٣) هنا مقطع مدوّن منها: «وجاؤوا بآلة حديديّة وكانت عبارة عن حلقة حديديّة، وقاموا بوضع عضوي التناسلي ضمن الحلقة وكانت اليد متحرّكة، كلّما قاموا بشدّها كانت تضغط على العضو الذكريّ بشكل أكبر مما كان يسبب ألـمًا فظيعًا، وهدّدوني أنهم سيقطعون عضوي ما لم أعترف بكلّ شيء، وعلى إثرها اعترفت بكل ما طلبوا مني الاعتراف به، خصوصًا بعد جلبهم للخازوق وكان عبارة عن رمح حديديّ ذي رأس حادّ يتمّ وضعه في مؤخرة الـمعتقلين لانتزاع الاعترافات منهم». الشهادة متاحة هنا:

https://www.youtube.com/watch?v=x_Urso0gWzA

(١٤) التقرير متاح على موقع الـمنظّمة.



أن يترتّب على الاغتصاب، يُسهم، مع قتل الرجال، في تدمير الجماعة المعنيّة. الاغتصاب فعلُ قتلٍ آجِل، مُوجه نحو تعطيل فاعلية النساء الإنجابيّة، أي منع الجماعة من إعادة إنتاج ذاتها بيولوجيًّا.

•

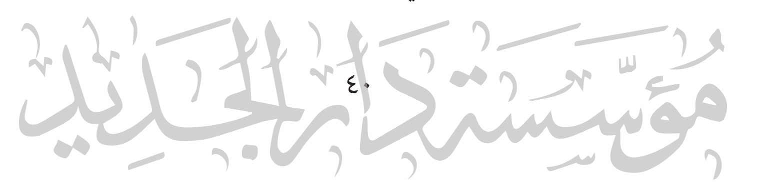
سياسات الجسد يجمع بين الحبّ والتعذيب والاغتصاب مركزيّة الجسد البشريّ. نحبّ بأجسادنا، ونتعرّض للتعذيب لأنّ لنا أجسادًا تتألم، ونُقتل بأن تُحطّم أجسادنا. وتُنتهك أجسادنا في الاغتصاب الذي يمسّ مساسًا خطيرًا بقدرتنا على الحبّ، وعلى الجنس وعلى الإنجاب. وما قد نسمّيه الإبادة هو تحطيمٌ جماعيّ للأجساد، يأخذ أشكالًا متنوعةً تضاف إلى التعذيب والاغتصاب، منها الحصار والموت جوعًا، ومنها القصف بالغازات السامّة والبراميل المتفجّرة، ومنها عمليات الإعدام في السجون والمقرّات الأمنيّة.

دولة التعذيب من الصنف الذي نعرفه في سوريا منذ نصف قرن هي سلطة مباشرة على الأجساد، تنزع ملكيّتها من أصحابها وتُبيحها لمديري وكالة «احتكار العنف الشرعيّ» التي لا تتطلّع إلى غير البقاء في الحكم «إلى الأبد». في العربيّة علاقة اشتقاقيّة بين الأبد والإبادة، فلا يكون ذاك ممكنًا دون هذه. سياسة الأبد، وأستعير التعبير من تيموثي سنايدر في سياق مختلف،[١٥] هي

(١٥) ليس مختلفًا جدًّا، فالأكاديميّ الأميركيّ يتكلم عن روسيا البوتينيّة، تنظر مقالته المطوّلة في **الغارديان**، ١٦ آذار ٢٠١٨:

Timothy Snyder : Vladimir Putin’s politics of eternity.

ويقصد سنايدر بسياسة الأبد السياسة التي تنكر أنّ المستقبل يمكن أن يكون مختلفًا، وأنّ أفعال



الإبـادة.

لـم يُكتـب التاريـخ السياسـي لأجسـاد السـوريين، ولـم يُفكَّر فـي معنى إباحـة الأجسـاد علـى تلـك الأنحـاء الـمختلفة. يحـدث أن يجـري نقـاش حـول الحجـاب، ومـا يسـميه الإسـلاميّون «اللبـاس الشـرعي»، فـي أشـكاله التـي تحجـب شـعر الـمرأة، أو وجههـا وجسـدها كلّـه، وصـولًا إلـى منعهـا مـن الخـروج مـن البيـت. ولا يُخفِـقُ أحـد تقريبًـا فـي إيـراد مفارقـة أنّ النسـاء الـمَدينِيّات فـي الجامعـة والوظيفـة والشـارع كـنّ سـافرات الوجـوه والأسـماء، فـي خمسـينيات القرن العشـرين وسـتّينياته وبعـض سـبعينياته، فيمـا أكثرهـنّ محجبـات اليـوم. وبينـما يصعـب ألّا نـرى الاقتـران التاريخـيّ بيـن تطـوّر النزعـات التعذيبيّـة للدولـة وبيـن حجـب النسـاء فـي سـوريا (وعلـى نطـاق أوسـع فـي الشـرق الأوسـط) فإنّـه ليـس هنـاك دراسـات جدّيـة تنظـر فـي هـذه العلاقـة. تزامـن الأشـكال الـمجنونة مـن التديُّـن وحجـب الأجسـاد مـع الأشـكال الـمجنونة مـن الحكـم وانتهـاك الأجسـاد لا جـدال فيـه. صـار التحكّـم بجسـد الـمرأة آخـر حصـون سـلطة آبـاء وإخـوة فقـدوا السـلطة علـى أنفسـهم فـي الفضـاءات العامّـة. التديُّـن ضـروريّ مـن أجـل السـيطرة علـى جنسـانيّة البنـات (وعلـى الزوجـة والأبنـاء).

قـد لا تكـون العلاقة سـببية ومباشـرة، لكـن لا يمكن إلا ملاحظـة الاقتران بيـن التعذيـب الإذلالـيّ فـي ثمانينيـات القـرن العشـرين والحجـاب الـذي يغطّـي شـعر الـمرأة، وبيـن التعذيـب الإبـاديّ فـي سـنوات مـا بعـد ٢٠١١ واللبـاس الأسـود الفضفـاض الـذي يحجـبُ الشـعر والوجـه وجسـم الـمرأة كلّـه. هنـاك مقاومـة فـي الحالتيـن مـن النسـاء تعمـل

الناس يمكن أن تغيّر الواقع، وتسقط مبدأ الـمسؤوليّة، فالأمور ستكون سيئة في كلّ حال.



علـى تقليـص مسـاحة الحجـاب، لكنّهـا تواجِـه عدوّيـن لا واحـدًا: دولـة التعذيـب والاغتصـاب، وإسـلاميّة عدميّـة تسـلّطية. لا تغيـب مقاومـات متنوعـة مـع ذلـك. مريـم خليـف وفوزيّـة حسـين تظهـران باسـميهما ووجهيهمـا رغـم غطـاء الـرأس، لتقـولا إنّهمـا اغتُصبتـا ولترويـا جوانـب مـن القصـة الـموجعة. هـذا مثـال بطولـيّ فـي الـمقاومة، جديـر بـأن يسـجَّل ويُحتفـى بـه فـي تاريـخ كفـاح النسـاء السـوريّات وعمـوم السـوريين.

أيًّـا يكـن الأمـر، فإنـه مـن غيـر الـمتصوّر الخـروج مـن أحـد وجهَـي سياسـة الجسـد، التعذيـب والحجـاب، دون الخـروج منهمـا معًـا. تجـاوز حـدود الأجسـاد والـمجتمع والإنسـانيّة هـو منهـجُ حُكـمٍ يرفـض أن تكـون لـه هـو ذاتـه أيّ حـدود. وضـع حـدود هنـا، أي للدولـة، ومنـع تجـاوز الحـدود هنـاك، أي للأفـراد والـمجتمع والإنسـانية، هـو مـا يعطـي كفـاح السـوريين معنـاه ومـداه. يجـب أن نأمـن علـى أجسـادنا فـلا نُعـذّب ولا نغتصـب، أن تصـان كرامـة أجسـادنا، كـي تسـتطيع مـن وجـه آخـر أن تختـرق الحجـاب وتنـال الاعتـراف العـامّ. يجـب ألا تكـون أجسـادنا مهـددة بالتفتّـت كـي تسـتطيع التصـرّف موحّـدة ويكـون لهـا قـرار. ويجـب أن نسـتطيع الحـداد كـي نبقـى مجتمعًـا، ونتيـح للـماضي أن يمضـي.

أن يصيـر لنا تاريخ ونخرج من الأبد.



علاقات التعذيب السياسيّة

التعذيب ونمط إنتاج السلطة في «سوريا الأسد» قد يتعذّر تجريد وضعٍ أو علاقةٍ أساسيّة تتكثف فيها ممارسة الشر، وتُشتقّ أشكال الشر الأخرى منها. لكنّ التعذيب يصلُح منطلقًا لدراسة الشر بقدرٍ يفوق غيره مما يمكن أن نتّفق على أنها ممارسات شريرة. هذا لأنّه إذا كان الشرّ هو الإيذاء، أيْ إلحاق الأذى بغيرنا، فإنّ التعذيب شكل متعمّد وصبور من الإيذاء، تتكرّس فيه طاقةٌ ووقت وعاطفة لإيلام الغير. لا يحدث التعذيب عفو الخاطر، فهو أذى مُتَروًّى فيه، مفكَّر به، مُخطط له، إبداعيّ على ما تسجل عبارة فنون التعذيب، وما يصادق عليه تاريخ التعذيب عبر العصور.[1] التعذيب شرّ أساسيّ من حيث إنه إبداع في الأذى، تخصيص أفضل ما في الإنسان، قدراته الخلّاقة، لخدمة أسوأ ما فيه، تحطيم غيره من الناس.

القتل أسوأ من التعذيب من حيث إنه غير عكوس، لكن القتل يمكن أن يحدث بأثر «حماوة الدم»، بدون تفكير وتدبّر، فيما

(١) يراجع كتاب **تاريخ التعذيب** لبيرنهاردت هroود، وهو يُظهر تنوّع فنون التعذيب عبر التاريخ والحضارات، والإبداع المستمرّ فيها. الكتاب من ترجمة الراحل ممدوح عدوان، وصادر في طبعته الرابعة عن دار ممدوح عدوان، ٢٠١٧.

يقتضي التعذيب فكرًا من الجلّادين و«عذابًا»، ويمكنه أن يكون عملًا مُضنيًا. ثم إن القتل، لأنه غير عكوس، لا يمكن أن يكون موضع تذكّر ممن يُقتلون، يذهبون وتذهب قصة لحظاتهم الأخيرة معهم. التعذيب لا يحدث تحت وطأة انفعال حادّ، تصعب السيطرة عليه. وهو قد ينتهي بالقتل أو لا ينتهي، لكنه في كلّ حال شُغل مرهق على جسد شخص آخر، مقترن بالكره وبتوتّر في النفس والجسم. وهو، خلافًا للقتل، موضع تذكّر لمن تعرّضوا له (وليس دومًا لمن أوقعوه، على الأرجح لأنّه من ممارساتهم الاعتيادية). أي أن التعذيب يبقى معنا، في النفس وفي المجتمع، وفي العالم.

وفي حين لا يزال القتل حكمًا قضائيًّا ممكنًا، جزاءً على بعض الجرائم في دول كثيرة، فإنه لا يبدو أن هناك أحكامًا قضائيّة بالتعذيب في أي مكان في العالم المعاصر.

وليس التعذيب من وجه آخر، أي شكل من العنف الجسدي، صفعة أو لكمة أو ركلة... مما كان شائعًا في الأُسر والمدارس والمعسكرات، وقد يحدث بدوره بأثر الغضب أو الانفعال، ولا يزال يمارَس بمقادير متفاوتة هنا وهناك. في التعذيب هناك وسائل تعذيب، وهناك ترتيبٌ لمسرح تعذيب وفن في ممارسته، وهناك سلطة تُقرّر التعذيب فتشرِّعه في عين مُمارسيه. فليس هناك تعذيب بلا قصد أو بدون نيّة مسبقة، أو يمارس كـ «أخطاء فردية»، دون قرار أعلى. قد يتحوّل التعذيب إلى روتين كما في سوريا، لكن هناك نيّة تعذيب أصلية يقوم عليها النظام، وهي مترسخة في بنية تعذيبٍ تتخلل البلد، هي أجهزته الأمنيّة.

تعمل هذه المناقشة على الجمع بين التحليل النظريّ والتجربة السوريّة، بين النظر في بنية علاقة التعذيب وبين السياسة التي



تقوم عليه في بلدنا، على نحو يؤمل أن «يوضِّع» التحليل أو يدرجه في سياق عيني، ويعمل في الوقت نفسه على إدراج التجربة السوريّة في سياق إنساني أوسع.

•

التعذيب وأشكاله ما الذي يجري في التعذيب؟ وما التعذيب أصلًا؟ في أبسط صوره، هو عنف متروًّى فيه، يوقعه شخص أو مجموعة على شخص آخر، مُلْحِقين به الألم، سعيًا لتحقيق غرض ما. سيجري لاحقًا اقتراح تصوّر لـ«تعذيب المجتمع»، لكن التعذيب مبدئيًّا ممارسةٌ تُفرِّد، تعزل الفرد عن غيره وتحبسه في جسده أو تختزله إلى جسد. تجري محاصرتنا في جلدنا الذي هو حدود كياننا الفيزيائيّ ونقع تحت خطر انهياره وانهيارنا. نفسيًّا، يتقابل في التعذيب خوفٌ من جهةٍ من يجري تعذيبه، وكراهيةٌ من جهة المعذِّبين، تُسهِّل لهم إيلام ضحيتهم وإيذاءه.

وليس التعذيب عقابًا جسديًّا معلوم المقدار سلفًا من قبل مَن يتعرّض له. على أن هناك ممارسات تعذيبيّة معروفة المقدار، منها «الحدود» في الإسلام، حيث يعاقَب من قاموا بفعل معيّن، شرب الخمر مثلًا، أو «زنا غير المُحْصَنين»، بعدد مقرّر سلفًا من الجلدات. هذا تعذيب عقابيّ، صنف التعذيب الذي يمكن أن يكون محدودًا ومعلوم الحدود.

أشكال التعذيب الأخرى التي عرفناها في سوريا، الاستجوابيّ والإذلاليّ والإبادي،[٢] ليس لها حدّ معلوم، وفيها يتحالف الألم الذي

---

(٢) تقدَّم التمييز بين أشكال التعذيب هذه في الفصل الأول من هذا الكتاب.
وتفيد المقارنة مع تمييز هادي العلوي بين أربعة أصناف من التعذيب في العصر العباسي:

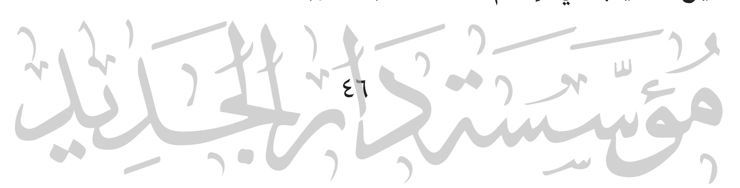


يُوقعه الجلّادون مع الخوف على الحياة الذي يثيره حتمًا تعذيب لا يُعرف أين يقف، ولا ما إذا كان سيقف أصلًا. إذ ليس مضمونًا بحال أن يقف التعذيب عند حدود الاحتمال الجسديّ لمن يجري تعذيبه، والجلّاد أخبرُ بهذا الشأن من المجلود بحكم تمرّس الأول بالأجساد المجلودة.

في كلّ حال ليس هناك مقدار معلوم مسبقًا للتعذيب، ولا حدَّ زمنيٌّ أقصى. عجز المعذَّب عن التنبؤ هو عنصر جوهريّ في تعذيبنا السوري بكلّ أشكاله، بما فيها العقابيّ. ليس هناك «تسعيرة» محددة للمخالفات في سجن تدمر أو أيٍّ من السجون السوريّة (ليس هناك تعريف معلوم لما يمكن أن يكون مخالفة أصلًا). الأمر «عرفيّ»، مثل «الاعتقال العرفيّ» ذاته الذي لا يعلم ضحاياه متى قد ينتهي. وهو في النهاية يحيل إلى موازين قوى اجتماعية وسياسية فاحشة الاختلال، تتصرف فيها وكالة التعذيب العامّة، الدولة، كمالكة لأجساد وحيوات من يجري تعذيبهم، وعموم السكان.

في التعذيب الاستجوابيّ أو التحقيقيّ، مثلما نعرفه في سنوات الحكم الأسديّ، ربما ينتهي بـ«اعتراف» المعذَّب إن اقتنع المُعذِّبون باعترافه. وهو ما يترك الأمر مفتوحًا، لأن اقتناع القائمين بالتعذيب ليس مسألة نقاش حرّ، بل هو قرار مِزاجيّ وأحادي الجانب من طرفهم. هذا لا يلغي حتمًا مساحة مناورة متفاوتة الاتساع، يمكن لمن يجري تعذيبه أن يتحرّك ضمنها، وربما ينجح في خداع جلّاديه. والواقع أن هذا ما يحصل طوال الوقت، فالتعذيب علاقة

التعذيب للاعتراف، التعذيب للجباية، التعذيب للعقوبة، وتعذيب المقابلة بالمثل. ينظر كتابه: **من تاريخ التعذيب في الإسلام**، المدى، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤، ص ١٤.



عدم ثقة جوهريّة، والضحية إما يُقلّل إلى أقصى حدّ من قول ما لا يعرفه الجلّاد، أو يقول ما يريده الجلّاد وليس الحقيقة كي يتوقّف تعذيبه. وهو ما يكفي للقول بأن التعذيب ليس منهج «تحقيق» مثمرًا. إنّه منهج تزوير، تعذيب للحقيقة ذاتها.[٣] هذا يجيب عن سؤال محتمل: هل الاعتراف معرفة؟ هل له قيمة معرفيّة؟ ينبغي أن يكون الجواب لا واضحة وحاسمة. ولحسن الحظّ لا نعرف مؤرخًا واحدًا اعتمد على تحقيقات المخابرات في دول تعذيب. يشبه الأمر الاستناد إلى اعترافات معذَّبين يظهرون على شاشة التلفزيون الأسديّ «معترفين» بما يريده النظام، أو أن يكون للمرء ضمير كضمير صديق المخابرات الأسديّة الصحافيّ البريطانيّ روبرت فيسك.[٤] وليس لدى كاتب هذه السطور علم بأن الأدب والفن،

(٣) هذا يثير سؤالًا صعبًا: كيف يرضى حكم يقوم بالتعذيب خداع نفسه بالحصول على حقائق مشوّهة وإجبار الضحايا على قول ما يريد هو، وقلّما ما وقع فعلًا؟ وهو ما يثير الشكّ في مفهوم التعذيب التحقيقيّ كلّه، والقول إنّ تمازج هذا التعذيب بالذات هو إرادة إنتاج الخوف والإذلال العام، هذا حين لا يكون طريقة إعدام مغايرة. ولعلّ المثابرة على التعذيب متّصلة بكونه موجّهًا بقدر ما ضد الجلّادين أو عناصر وكالات التعذيب التي تسمى فروع الأمن في سوريا، أعني للحفاظ على تماسك النظام عبر الرهبة والخوف الشامل. وما يمكن أن يتحصّل من معلومات حقيقية من معتقلين تحت التعذيب ينغرس في بيئة سامّة من التفاعلات الاجتماعيّة، لا يبعد أنها أنتجت «حقائق» مما يجري «التحقيق» بشأنه الآن.

(٤) قابل الصحافيّ البريطاني معتقلين في مكتب ضابط مخابرات أسديّ بعد الثورة السوريّة، وقالوا له إنهم جهاديون، وكتب مقالًا عن ذلك بوصفه تحقيقًا صحافيًا. لدينا هنا امّحاء للفارق بين ضابط المخابرات والصحافيّ، وبين تحقيق الجلّاد والتحقيق الصحافي. هذا يشبه زيارة معسكر إبادة نازيّ والخروج منه بتحقيق صحافيّ يتكلّم على متورّطين في «مؤامرة يهوديّة بلشفيّة» ضد الاشتراكية القومية، بناء على وجود يهود وشيوعيين بين المعتقلين. يصعب العثور على كلمات احتقار مناسبة بحقّ السيد فيسك الذي كان فوق ذلك قد رافق قوات النظام أثناء مذبحة داريا في صيف ٢٠١٢.

عن زيارة معتقلين في مكتب ضابط مخابرات، انظر مقالة فيسك في **الاندبندنت**، ٢ أيلول ٢٠١٢ :

Syria's road from jihad to prison.



الرواية والـمسرح والسينـما وغيرها، تعاملت مع اعترافات معتقلين معذّبين كمادّة للتخيّل والتخييل.

التعذيب الإباديّ هو استباحة كاملة مفتوحة على القتل، وإن لم تنته حتمًا به. الـمهمّ هنا هو أنّ موت الـمعذّب ليس ذا قيمة، وأن بقاءه على قيد الحياة وموته سيّان. وليس التعذيب الإذلاليّ من الصنف الذي كان يُمارس في جيلنا في سجن تدمر «مُنزّهًا من الغرض» مثل التأمُّل الجماليّ عند كانط، أو هو من صنف «التعذيب للتعذيب»، على ما كان بدا لي في تناول آخر.[5] فمن أغراضه التحطيم النفسيّ والسياسيّ، ومنها أيضًا صنع ذاكرة ومنعكسات مناسبة عند الضحيّة، تجعله «يتوب» و«يطيع». الغرض باختصار توطين خبرة الذل في نفس من يتعرّض لهذا التعذيب على نحو ينهاه عن العصيان. أي أنّه تعذيب رَدعي.

من الـمهمّ عند هذه النقطة توضيح أنه في حين أنّ التعذيب مُذلٌّ في كلّ حال، وأن الإذلال عنصر مكوّن للتعذيب دومًا، فإنه ليس كلّ تعذيب من الصنف الإذلاليّ. ثمة إذلال في التعذيب الاستجوابيّ والتعذيب الإباديّ، وفي التعذيب العقابيّ كذلك،[6] لكن نخص

وأمّا عن مرافقته قوّات النظام وقت مذبحة داريا، فمقالته الـمنشورة في **بلفاست تلغراف**، ٢٩ آب /أغسطس ٢٠١٢:

Inside Daraya, Syria: How a failed prisoner swap turned into a massacre.

ومن أجل ردٍّ على فيسك لم تتكرّم **الاندبندنت** بنشره، تنظر مقالة ريم علّاف وياسين الحاج صالح في ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠١٢ على موقع **أوبن ديموكراسي**:

Syria dispatches: Robert Fisk's independence.

(٥) في مقالتي: «وجوه الجلّاد وعالـمه» الـمنشورة في ٣٠ أيلول ٢٠١٦ على موقع الجمهورية دوت نت والـمتاحة عليه.

(٦) في كلّ صوره التعذيب ماسٌّ جوهريًّا بالكرامة الإنسانية، وهذا كاف وكلّ ما يلزم

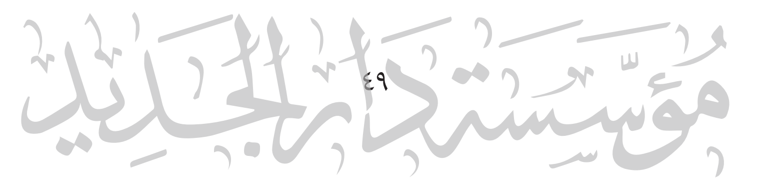
بعبـارة التعذيـب الإذلالـيّ التعذيـب الـذي يسـتهدف صنـع ذاكـرة أو «تلقيـن درس لا ينسـى».

ولعـلّ تأصُّـل الصفـة الـمذلّة للتعذيـب تشـرح قلـة وصـف التعذيب على يـد مـن تعرّضـوا لـه مباشـرة، وهـذه ملاحظـة يوردهـا بدرايـك كنـي، أسـتاذ التاريـخ الأميركـي البولونـيّ، وإن كان بحثـه يقتـرح لـه تفسـيرًا باسـتحالة وصـف التعذيـب.[٧] أُقـدّر أنّ للصفـة الـمذلّة والـمؤلـمة لهـذا التذكـر الـدور الأكبـر. تعافِينـا النفسـي مـن تجربـة الانكشـاف، والرّضّـة القاسـية التـي نخبرهـا فـي التعذيـب رهـن بـأن نعمـل علـى نسـيانها أو دفنهـا فـي أعمـاق أنفسـنا. قـد نتكلّـم علـى تعذيـب تعرّضنـا لـه فـي سـياق بنـاء قضيّـة عامّـة ضـد وكالـة التعذيـب، الدولـة ومـن تشـبّه بهـا، لكـنّ التقريـر الـمفصّل يشـبه أن ننـكأ بأنفسـنا جرحًـا احتجنـا إلـى طاقـة ووقـت كـي يندمـل. أهـم مـن ذلـك أننـا، أثنـاء التعذيـب، نُختـزل إلـى جسـد متألّـم، ولا نسـتطيع تسـجيل مـا يجـري لـه، مثلـما قـد نفعـل بدرجـات متفاوتـة مـن الوعـي بخصـوص تجـارب أخـرى، جديـدة علينـا. مـا فـي داخلنـا مـن شـخص يلاحـظ مـا يجـري، يلاحظـه ليرويـه لاحقًـا، يصغـر حتّـى التلاشـي فـي وضعيـة التعذيـب. هذا الشـخص هـو «الوعي»

لتحريمـه وتجريمـه. ليـس هنـاك تعذيـب شـرعيّ، وليـس هنـاك شـرعية يمكـن أن تقـوم علـى التعذيـب. عطفـت الأمـم الـمتّحدة بحـق التعذيـب علـى «غيـره مـن ضـروب الـمعاملة أو العقوبـة القاسـية أو اللاإنسـانيّة أو الـمهينة» فـي الاتفاقيّـة الخاصّـة بهـذا الشـأن، الصـادرة فـي اليـوم العالـمي لحقـوق الإنسـان فـي عـام ١٩٨٤. انظـر: «اتفاقيّـة مناهضـة التعذيـب وغيـره مـن ضـروب الـمعاملة أو العقوبـة القاسـية أو اللاإنسـانية أو الـمهينة» التـي اعتمدتهـا الجمعيّـة العامّـة للأمـم الـمتحدة وفتحت بـاب التوقيـع والتصديـق عليهـا والانضمـام إليهـا فـي القـرار ٤٦/٣٩ الـمؤرخ فـي ١٠ كانـون الأول/ ديسـمبر ١٩٨٤ .

(٧) انظر:

Pedraic Kenney, *Dance in Chain, Political Imprisonment in the Modern World*, Oxford University Press, 2017, p. 53.



فـي جانبـه الـمُسجِّل أو الـموثِّق. الجانـب الـمنتبه مـن الوعـي يبقـى حاضـرًا، لكنـه يتركّـز كلّـه علـى الجسـد، ومواقـع الألـم منـه بخاصّـة. هذا حيـن لا يُغمـى علينـا، نغيـب عـن الوعـي أو يغيـب الوعـي عنـا، فيـزول الانتبـاه كذلـك. غيـاب الوعـي شـائع فـي وضعيّـات التعذيـب، ويشـيع تصنُّعـه كذلـك مـن قِبَـل الضحايـا قطعًـا لـمسار العمليّـة التعذيبيّـة. وفضـلًا عـن كلّ ذلـك، أخمّـن أنـه يحـدث بعـد تجربـة التعذيـب ضـرب مـن إغمـاء الذاكـرة، أو إغماضهـا، فـلا تحضـر «حفلـة» التعذيـب فـي الذاكـرة إلا كصـورة ناصلـة اللـون.

•

بنيــة علاقــة التعذيــب جوهـر علاقـة التعذيـب هـو تحطّـم الرابطـة الإنسـانيّة، أو خـروج طرفـي العلاقـة منهـا. خـروج الـمعذِّب بـأن يرتفـع فـوق مرتبـة الإنسـان، يوقِـع الألـم، ويُخـرِج جسـد الـمعذّب مـن التماثـل مـع جسـده هـو، فيعطّـل عمليّـة التماهـي بينهمـا، وهـو مـا يحـرره (الـمعذِّب) حيـال الـمعذَّب، فيكـون سـيد قـراره فـي أن يتركـه حيًّـا أو يقتلـه. هـذا التحكّـم بالحيـاة والـموت هـو أعلـى ذرى السـيادة، ضـرب مـن التألّـه.[٨] ومـن جهـةٍ ينحـدر الـمعذَّب دون الإنسـانية، يفقـد التحكـم بنفسـه التـي تجنـح فـي أوقـات التعذيب إلـى أن تطابق جسـده، و«الجسـد يسـاوي الألـم الـذي يسـاوي الـموت»، بحسـب جان آمـري.[٩]

---

(٨) بالـمقابل ليـس إجبـار مناكيـد وقعـوا بيـن أيـدي شـبّيحة النظـام علـى الشـهادة بـأن لا إلـه إلا بشـار تعبيـرًا عـن ورع دينـي، بـل هـو بالضبـط تعذيـب. علـى أنّ إنتـاج الإلـه بشّـار تـم أساسًـا عبـر نـمط لإنتـاج السـلطة قائـم أساسًـا علـى التعذيـب. طلـب الشـهادة بألوَهَـته هـو بمثابـة مسـرحة لعمليـة إنتـاج السـلطة التعذيبيّـة.

(٩) انظر:

Jean Amery, *At the Mind's Limit, Contemplations by a Survivor on Auschwitz and its Realities*, translated into English by Sidney Rosenfeld



يـزول التماهـي كلّما أمعـن ممارسـو التعذيـب فـي ممارسـتهم، وكلّما ترسـخ التعذيـب كعلاقـة اجتماعيّـة. وكمـا قـد نتوقّـع، تجنـح العلاقـات الاجتماعيّـة لأن تصيـر علاقـات سـيادةٍ وتبعيّـة حيـث يسـود التعذيـب، ويـزول الـمجتمع بالـذات لـمصلحة جماعات منغلقـة بمقاديـر متفاوتة. مـآل علاقـة التعذيـب تقابُـل آلهـة بأشـياء، وليـس بشـر ببشـر. فالشـخص الـمختزل إلـى جسـدٍ محاصَـرٍ متألّـم هـو موضـوع لقـوة تعمـل علـى تحويلـه إلـى شـيء، حسـبما عرّفـت سـيمون فيـل القـوّة. تقـول فيـل إن القـوّة تُحـوّل مـن تطالـه إلـى شـيء، وحيـن تبلـغ حدّهـا الأقصـى تُحـوّل الإنسـان إلـى شـيء بالـمعنى الحرفـيّ للكلـمة: جثـة.[١٠] وبقدر ما إن التعذيـب ممارسـة للقـوة علـى الأجسـاد مباشـرة، يتجسّـد فيهـا زوال التسـاوي الإنسـانيّ الـمبدئي، والتماهـي الـذي يقـوم عليـه، فإنـه بهـذا بالـذات يصلـح تعريفًـا للشـر. نتحـدّث عـن شـرٍّ أساسـيٍّ حيـن تتنقّـل العلاقـة بيـن النـاس إلـى علاقة بين بشـر ولا بشـر، أو بين بشـر وأشـياء. أو لنقُـل إنـه إذا عرَّفنـا الشـر بنـزع الإنسـانيّة، علـى مـا فعلـت حنـة آرنـدت فـي **أصـول التوتاليتاريّـة**، فـإن التعذيـب هـو علاقتـه الـمُعرِّفة. علـى أن نُـدرِج فـي نـزع الإنسـانيّة نـزعَ إنسـانيّة الجـلّاد أيضًـا، وليس الـمجلود أو الـمعذَّب وحـده. وإذا قلنـا إن الشـرّ هـو جعـل الإنسـان فائضًـا أو نافـلًا، حسـبما قالـت آرنـدت فـي الكتـاب نفسـه، فـإنّ التعذيـب أيضًـا هـو مـا يمثّـل هـذا النفـول مـن حيـث إنـه يُشـيّء الـمعذَّبين، يجعـل إنسـانيّتهم غيـر لازمـة. هـذا فيمـا يُغنـي الـمعذِّبين عـن الإنسـانية، وإن هنـا باتجـاه قطـب السـيّادة والتألُّـه.

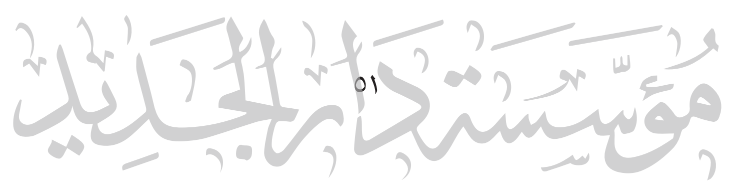
---

and Stella P. Rosenfeld, Indiana University Press, 1980, p. 34.

(١٠) يراجع:

The Iliad or the Poem of Force.

الـمتاح على موقع أرشيف دوت أورغ.



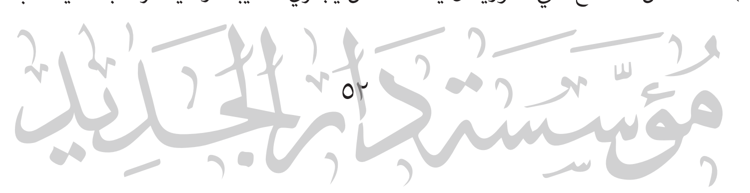
ويحفـز التعذيـب فـي تقديـري نـازع إلـى القـدرة أو التحكّـم، يصـل إلـى درجـة أن يُحيـي الـمعذّب ويميـت. أعذّبـك لأنّـي أسـتطيع ولأنـي لا أخشـى عواقـب لفعلـي، بـل فـي الواقـع أنـا مسـيطر، كلّـي التحكّـم، أتحكـم بالأمـور بقـدر يضمـن أن أتصـرّف بجسـدك وبحياتـك ذاتهـا دون عواقـب. هـذا يعطـي شـعورًا بالقـدرة يبـدو أنّ كثيـرًا مـن البشـر يحتاجونـه حيـال غيرهـم. وقـد يكـون مـن أصـول الآلهـة إرادة خـروج بشـرٍ مـن التماثـل مـع بشـر آخريـن. التحكّـم بالحيـاة والـموت، عبـر التعذيـب الجسـديّ أساسًـا، هـو مـا ينتـج الواحـد الـذي لا يدخـل فـي علاقـة مـع غيـره، إلا أنْ تكـون علاقـة عبوديّـة. لكـن، وهنـا تناقـض علاقـة التعذيـب: لا بـد مـن بشـر لتعذيبهـم والخـروج عـن التماثـل معهـم، وينبغـي أن يكونـوا مثلـي كـي أخـرج بتعذيبهـم مـن الـمثليّة. تعذيـب حيـوان لا ينفـع فـي ذلـك. فالـمثليّة غائبـة أصـلًا. التعذيـب إنسـانيّ جدًّا مـن حيـث إنـه لا يجـري بيـن غيـر البشـر، ولا إنسـانيّ جـدًّا مـن حيـث إنـه لا يبقـى أحـد مـن طرفـي العلاقـة إنسـانًا بمحصلتهـا. وهـو، مـن بـاب إلغـاء الإنسـانيّة هـذا، علاقـة الشـرّ الأساسـيّة.

فـي الـمحصّلة، ليـس التعذيـب علاقـةَ قـوّة تضـاف إلـى غيرهـا، بـل هـو الشـكل النـموذجيّ والأقصـى لعلاقـة القـوة: أنـا قـوي وأنـت ضعيـف! أنـا جبّـار وأنـت حشـرة! أنـا اللـه وأنـت لا شـيء! وعلـى هـذا الشـكل الأقصـى يقـوم الحكـم الأسـديّ فـي سـوريا.

•

التعذيـب كإبـادة سياسـيّة مـا يقتضيـه التعذيـب مـن جهـد ووقـت، و«عـذاب»،[١١] يعنـي أنّ مـن يجـري تعذيبـه لا يطيـع، لا يتطـوع

(١١) مـن الشـائع فـي سـوريا أن يقـال لـمن يجـري تعذيبـه ولا يعتـرف بأنـه يُعـذّب جلّاديـه.



لكشـف سـريرته، يُقـاوم، وأنّ الـمطلوب هـو كسـر مقاومتـه ليعتـرف. بمـاذا؟ بمـا يُخفـي مـن معلومـات، وأهـمّ مـن ذلـك لكـي يرضـخ ويستسلـم، «يفـرش»، يعتـرف بالجـلّاد وتفوّقـه عليـه.

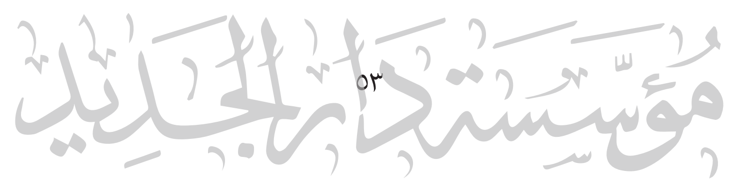
وبقـدر مـا إننـا نقـاوم الاعتـراف ليـس فقـط لكـي لا نُدلـي بمعلومـات عـن رفاقنـا أو شـركائنا، وإنّمـا أساسًـا صونًـا لكرامتنـا، ورفضًـا للاستسـلام لعـدوٍّ يعمـل علـى احتلالنـا، فـإن اعتـراف الـمعذَّب بمـا لديـه ليـس غايـة التعذيـب إلا بقـدر مـا إنـه ينطـوي علـى استسـلام للجـلاد، اعتـراف بتفوّقـه وانتصـاره، بأنّـه السـيد. الاعتـراف بالجـلّاد، مفهومًـا كقـوّة تعذيـب جمعيّـة لا كفـرد عـارض، هـو مـا يسـجّله ويوثّقـه الاعتـراف للجـلّاد. رهان الجـلّاد يتجـاوز تفريـغ الـمعذَّب مـن أسـرار يكتمهـا إلـى بلـوغ سـريرته واحتلالهـا. السـريرة هـي موضـع الاسـتقلال[١٢] والخصوصيّـة الـمكنون الـذي لا يطَّلـع عليـه أحـد، ويؤهّـل اختـلاف سـرائرنا لأن نطالـب بالندِّيـة مـع بقـاء الواحـد منـا مختلفًـا. فـإذا انكشـفت سـرائرنا فقَدنا كلّ اسـتقلال وكيـان شـخصي. لــم يشـعر النازيّـون بضـرورة تعذيـب اليهـود، نظريتهـم العنصريــة تقــول ســلفًا كلّ مــا هــو مهــم بخصــوص ســرائر اليهــود الشـرّيرة، فتخرجهـم مـن الندّيـة، وتخفـض مـن شـأنهم إلـى حـدّ أن لا يسـتحقّوا حتّـى جهـد التعذيـب. لـم يُقتَـل اليهـود فـي محرقـة «مجنونـة وعملاقـة» بتعبيـر جيورجيـو أغامبيـن، بـل بالضبـط «مثـل القمـل» علـى مـا قـال هتلـر، أي كمجـرد حيـاة، أو حيـاة عاريـة.[١٣] ومـن الـمحتمل أنّ

فـي سـياق تخيّلـي يجسّـد علـي بهلـول هـذا القلـب بعبـارة تجـري علـى لسـان ضابـط الـمخابرات وهـو يعـذّب الجاحـظ، ويقـول لـه: «بـدك تعذبنـا إنـت بربـي»! انظـر: علـي بهلـول، «إمامـة الجنـون»، الجمهوريـة، ٢٩ أيـار ٢٠١٩. متوفّـر علـى موقـع الجمهوريّـة دوت نـت.

(١٢) Autonomy

(١٣) يراجع:

A. Dirk Moses, *Empire, Colony, Genocide: Conquest, Occupation, and Subaltern Resistance in World History*, Berghahn Books, Kindle copy, Loc 4263.



التكويـن التعذيبـيّ للحكـم الأسـديّ مكتـوب فـي رغبتـه فـي أن ينـال اعترافًـا لا يبـدو مطمئنًـا إلـى حصولـه عليـه، أي لتذليـل مقاومـات وقراءة سـرائر مـن لا يعترفـون بـه. وهـو يفتقـر إلـى نظريـةٍ بقـوة «العنصريّـة العلـميّة» النازيّـة، تُقـوّض التماهـي الإنسـانيّ قبـل التعذيـب. الطائفيّـة مـن جهـة أقـلّ قـوّة «علـميّة»، حتـى إنهـا ليسـت عقيـدة يُجهـر بهـا، وإن كانـت تفعـل فعلهـا فـي تحطيـم الرابطـة الإنسـانيّة (والوطنيّـة)، وتُسـهّل الانخـراط فـي تشـيِيء الـمعذبين دون وسـاوس كثيـرة. ولعـل ما تُسَـهِّل مـن أمـره الطائفيـة تحديـدًا هـو خلـق مسـاحة الْتبـاس مرغوبـة بيـن فكـرة: أعـذّب لأنّـي قـادر، وفكـرة: أعـذّب لأنّ مـن أعذّبهـم سـيّئون وأشـرار، فيظهـر التعذيـبُ فعـلَ خيـر، وليـس فعـل قـوّة حصـرًا.

ومـا يحبـط الجـلّاد، قـوّة التعذيـب الجمعيّة، هـو أن الـمعتقل لا «يفرش» حتّـى حيـن يعتـرف، لا يتطـوّع دليـلًا للجـلّاد إلـى أعمـاق نفسـه، أي أنّ سـريرته تبقـى مغلقـة دون مُعَذِّبِـه، وتبقـى الطاعـة غيـر مضمونـة مـا دام الـمعذّبون أو الـمساءة معاملتهـم أحيـاء. ربّما يتظاهـرون بالخضوع، لكنّهـم لا يخضعـون فعـلًا. كلّ مـا يتوفّـر مـن تقاريـر عـن سـجن تدمـر مثـلًا، وقـد كان معسـكر تعذيـب، يشـير إلـى تمسـك الـمعتقلين أكثـر بمعتقدهـم الدينـيّ، بـل تصلُّـب أكثرهـم فيـه، وبممارسـتهم الصـلاة الـممنوعة بعيونهـم.[١٤] هـذا لأن الاختـلاف الـذي آل بهـم إلـى الاعتقـال والتعذيـب، والقتـل، يتّصـل بمعتقدهـم، علـى الأقـلّ فـي عيـن جلّاديهـم الذيـن يعاقبونهـم بمنـع تعبيـرات الإيمـان الطقسِـيّة مـن صـلاة وصيـام وغيرهمـا، وهـم يتمسّـكون بـه لأنّ فيـه تتجسّـد كرامتهـم، والفـرق الأكبـر بينهـم وبيـن الجلّاديـن. وفـي حالتنـا نحـن الـمعتقلين اليسـاريين الذيـن

---

(١٤) كمثـال حديـث، تنظـر مقالـة حسـن النيفـي «طقـوس رمضانيّـة فـي سـجن تدمـر»، موقـع تلفزيـون سـوريا، ١ أيـار ٢٠٢٠. وكان حسـن قضـى نحـو سـتّ سـنوات فـي سـجن تدمـر.



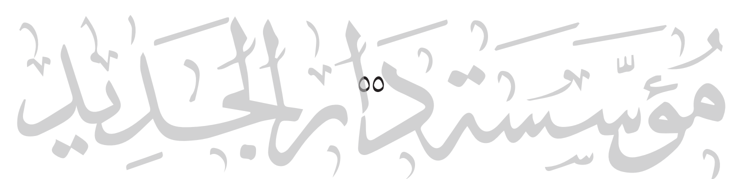
رأينـا الوجـه الدكتاتـوريّ للنظـام وليـس وجهـه الإبـاديّ الـذي نظـر بـه إلـى الإسـلاميين، كنـا نقـاوم «الانسـحاب» مـن أحزابنـا رغـم أنّ غيـر قليلٍ منـا غيّـروا فـي سـريرتهم أفكارَهـم وانتماءاتهـم، وذلـك مـن بـاب الدفـاع عـن الكرامـة، حمايـة للـمساحة التـي يُنـال منـا بسـببها.

فـإذا جـرى قتـل الـمعذَّبين للتغلّـب علـى كلّ مقاومـةٍ ذهبـت سـريرتهم معهـم، فلـم يعـد لـدى الجـلّاد مـن يجلـده، ويُكـرّس فـي عينـه الفـرق والهويّـة. يخسـر هويّتـه بالـذات إنِ امَّحـت الفـروق، وبخاصّـة الفـارق بيـن مـن يَجلـد ومـن يُجلـد. وعلـى هـذا الفـرق يقـوم نـمط ممارسـة السـلطة.

ولكـن مـاذا يعنـي أنّ رهـان التعذيـب تجـاوزَ علـى الـدوام فـي «سـوريا الأسـد» التفريـغ مـن الأسـرار إلـى تفريـغ السـريرة؟ يعنـي أن ينكشـف الـمعذَّب ولا يبقـى لـه داخـل أو ذاتيّـة، يصيـر مكشـوفًا تمامًـا ومقـروءًا، مطواعًـا ومطيعًـا. يعنـي بالضبـط الإبـادة السياسـيّة. ولذلـك لا يكفـي أن تعتـرف معتقـلات مـن النسـاء بأسـرار عملهـنَّ العـام، بـل أن يُغتصبـن، تُختـرق حدودهـن ويلغـى اسـتقلالهن، يُمتلكـن مـن قِـبَلِ جلّاديـن يحـوزون بالـمقابل شـعورًا بالسـيادة. يأخـذ التفريـغ مـن السـريرة هنـا معنًـى فيزيائيًّـا مباشـرًا: احتـلال داخليّـة الـمرأة. اغتصـاب النسـاء هـو تعذيـب وتسـيّد، وليـس فعـلًا جنسـيًّا.[١٥] الانتهـاكات الجنسـية، للنسـاء

---

(١٥) علـى أنّ الفعـل الجنسـيّ لا يـزال فـي بيئـات اجتماعيّـة كثيـرة فـي عالـم اليـوم، وبيئتنـا مـن أبرزهـا، فعـل سـيادة وتملـك، وليـس فعـل شـراكة ورغبـة مشـتركة واعتـراف متسـاو. مـن غيـر الـمحتمل فـي تصـوّري أنّ الجـلّاد الـمغتصِب فـي «فـرع الـمخابرات» يمـارس جنسًـا غيـر اغتصابـيّ وغيـر سـياديّ مـع امرأتـه. يتعلّـق الأمـر فـي كلّ حـال بفعـل اختـراق وغـزو، أو فتـح. «مفتوحـة» هـي الصفـة الـمستخدمة لامـرأة فقـدت بكارتهـا قبـل الـزواج، فخسـر الـزوج فعـل الاختـراق السـياديّ الـذي يضعـه فـي موقـع الفاتـح مثـل مـن يغـزون أراض، يفتحونهـا ويسـودون عليهـا. هنـاك بنيـة سـياديّة مشـتركة تجمـع بيـن غـزو بلـدان ومجتمعـات وفتحهـا، وبيـن غـزو النسـاء وفتحهـنَّ، وبيـن غـزو



والرجـال، تجمـع بيـن ميـزة أنهـا إذلال أقصـى مـن جهـة، ولا تهـدّد الحيـاة مباشـرة مـن جهـة ثانيـة. فكأنهـا قتـل دون قتـل، أو إبـادة رمزيّـة تعـزّز الإبـادة السياسـية.

والخلاصـة أنّ هـدف التعذيـب قـد يكـون إذلاليًّـا، أو اسـتجوابيًّا أو إباديًّـا، أو حتـى عقابيًّـا، لكـن التعذيـب فـي كلّ حـال، وفـي آليتـه بالـذات، يحوّل الـمعذَّب إلـى موضـوع، كائـن بـلا ذاتيّـة ولا داخل.

وإنــما بهـذه الدلالـة يصلـح التعذيـب لأن يكـون نظامًـا سياسـيًّا قائمًـا علـى الإبـادة. «بحـب عرّفكـم علـى حالي، أنـا عزرائيـل، أو ليـش عزرائيل، أنـا اللـه، سـتذهبون معـي إلـى ديـار الحـق، لكـن باعتبـار أننـي اللـه سـأطيل بأعماركـم بضعـة أيـام». هـذه الكلـمات التـي دوَّنتهـا الغائبـة رزان زيتونـة فـي أيلـول ٢٠١٣، فـي نطـاق توثيقهـا لشـهادة خمسـة معتقليـن هربـوا مـن الاعتقـال فـي قصـة نـادرة[١٦] تكشـف بصـورة ممتـازة التعذيـبَ كنـزعِ إنسـانيّة متقابـل: تألُّـه مقابـل تشـيـيء. الضابـط القصيـر الـملتحي، علـى مـا وصفـه الناجـون الخمسـة، يُكشّـف بكلـمات قليلـة علاقـة التعذيـب، ليـس فقـط أنـه إلـه الـمعتقلين الـمعذَّبين، ولكنّـه يمهـل ولا يهمـل كذلـك، ليـس مسـتعجلًا علـى تحويـل ضحايـاه إلـى أشـياء لأنّـه قـادر علـى ذلـك فـي كلّ وقـت، ولأنّ لهـم اسـتخدامًا نافعًـا قبـل ردِّهـم إلـى أشـياء؛ (كانـوا يحفـرون خنـادق لقـوات النظـام الـمحاصِرة للغوطـة).

الطبيعـة والسـيطرة عليهـا، مثلـما دعـا ديـكارت الـذي أسّـس عبـر الكوجيتـو لـمثال الـذات السـيّدة. إنّهـا مشـكلات الإمبرياليّـة والتمييـز ضـد النسـاء والبيئـة.

(١٦) التقرير متاح على موقع «مركز توثيق الانتهاكات في سوريا»:

www.vdc-sy.info

وقد صدر في أيلول ٢٠١٣، قبل نحو ثلاثة شهور من تغييب رزان في دوما.



أربط بين التعذيب والإبادة، رغم أنّه ليس كلّ التعذيب إباديًّا، للقول بأنّ كلّ التعذيب مُبيد سياسيًّا، وهذا مثلما أنّ التعذيب مذلٌّ بكلّ أشكاله رغم أنه ليس كلّ التعذيب إذلاليًّا. وإنما لذلك التعذيب منهج حكم أساسيّ، فإبادة المحكومين سياسيًّا تعني خفضهم إلى أتباع، أي إلى ما دون بناء مجموعات سياسيّة، وما دون الحقوق والمواطنة والمطالبات العامّة. ليس هناك دول أو متَّحدات سياسيّة تجمع بين التعذيب وحياة سياسية قائمة على التعدّد، وليس هناك دول أو متّحدات تتساهل في ممارسة التعذيب دون أن يُنذر ذلك بمخاطر تتهدّد تعدّدها السياسيّ الذي هو مرادف للحياة السياسيّة.

لكن هل ينجح التعذيب في الإبادة السياسيّة؟ الواقع أنّه إذا فكّرنا في التعذيب ضمن مركَّب من التعذيب والحبس المديد، فإنه يبدو ناجحًا بقدر لافت. لقد تم تحطيم المنظّمات السياسيّة السوريّة المعارضة والمستقلّة في عقود حكم حافظ الأسد، وغُذّيت نزعات التدمير الذاتيّ والغيريّ في أوساطها بفعل الفشل في حماية نفسها وفقدان عوامل الحيويّة، كما جنح قطاعٌ من الضحايا إلى عنف إرهابيّ أعشى.

•

التعذيب كمنهج تقليل وتكثير سياسيّ لا يقتصر أمر علاقة التعذيب على ما تقدّمت الإشارة إليه من فعل مُفرِّد، يفصل المعذَّب عن غيره ويردّه إلى جسد متألّم، بل يتعدّى ذلك إلى واقع مطّرد: أن المعذِّبين كثرة مسلّحة، والمعذَّبين أفراد عزّل معزولون. في كلّ واقعة تعذيب، يجري تفريق المعذَّب عن أيّ جماعة يحتمل أنه يرتبط بها (عائلة، منظّمة، روابط صداقة أو عمل...)، ليصير وحيدًا ضعيفًا، بما يسهّل من كسر مقاومته. ثم إنّه يَشْتَغِلُ على

الجسد الواحد أكثر من جلّاد واحد، ورشة من الجلّادين. التعذيب هو النواة الأولى لسياسة فرّق تسد، تفريق المرء عن جماعته المحتملة، قبل تفريقه عن نفسه، تفريق جسده المكشوف عن سريرته المحجوبة، أو أخذ جسده رهينة مقابل تسليم محتوى سريرته وخيانة قناعاته العليا، تفريق كيانه الفيزيقي عن كيانه الميتافيزيقي بلغة آمري.[١٧] وبالمقابل، تكثير وتوحيد الجلّادين في مواجهته للوصول إلى هدفهم في هزيمته واحتلاله والسيادة عليه. يُحتمل لمن يجري تعذيبهم أن يكونوا كثيرين جدًّا كمجموع، لكنّهم يُفرَّقون بعضهم عن بعض ويُفرَّدون قبل عمليّة التعذيب من أجل إضعافهم، ثم إنّ عمليّة التعذيب ذاتها تُضعفهم أكثر. فبعد تقليل الواقعين تحت التعذيب إلى أصغر الأقلّيات، فرد وحيد، يُعْمل على تقليل هذا القليل بدوره إلى أجزاء أقلّ من واحد. وفي هذا ما يجعل التعذيب المنهج الأنسب للطغيان.
«تشريفة» سجن تدمر مثال نموذجيّ على صنع الأقلّية والأكثريّة بالعنف التعذيبيّ: «تتحاوف» المجلودَ الواحد مجموعةٌ، يتناوب اثنان منها على الأقل على جلده، بينما يراقب العمل رئيسُهم، ويُحْضَرُ احتياطيّ من جلّادين آخرين، وهذا مع رقابة من أسطح المهاجع من قبل الحرس الخارجيّ المسلح. المعذَّب عاري الجسم أو شبه عار، في حالة انكشاف قصوى، أقل من نفسه.

عبر التفريد والتفريق، علاقة التعذيب عكس علاقة السلطة حيث قلة تحكم كثرة، إنها كثرة تعذّب قلّة، وإن تكن القلة هذه مصنوعة

---

(١٧) تراجع صفحة ٢٨ من:
At the Mind's Limit, Contemplations by a Survivor on Auschwitz and its Realities

سبقت الإحالة إليه.



مـن كثـرة عبـر عمليّـة فـرز وفصـل وتفريـق مسـتمرة، محميّـة بالسـلاح بطبيعـة الحـال، وإن تكـن الكثـرة الـمُعذِّبة مصنوعـة بالجمـع والضـم والتطويـع، وبالإقنـاع والخـوف كذلـك. لعلّـه كان فـي سـجن تدمـر آلاف الــمعتقلين أو فـوق عشـرة آلاف فـي أوقـات مـن ثمانينيـات القـرن العشـرين وتسـعينياته، والأرجـح أنّ مجمـوع عناصـر السـجن كانـوا فـي مرتبـة مئـات فقـط. هذا على أن لا ننسـى أن لـمصنع السـلطة هـذا عمقًا اسـتراتيجيًّا يتمثّـل فـي الدولـة الأسـديّة. وإن اقتضـى الأمر، أو لـم يقتض، يمكـن أن تأتـي قـوة كومانـدوس وتقتل الــمعتقلين فـي زنازينهم، مثلــما جـرى يـوم ٢٦ حزيـران عـام ١٩٨٠.

الــمعذِّبون قـوّة جمعيّـة حتـى حيـن يشـتغل واحـد منهـم فقـط علـى الجسـد الواحـد فـي الوقـت الواحـد. بعـد قليـل يأتـي مـن يـؤازره أو بديـل عنـه ليرتـاح هـو مـن «عـذاب» التعذيـب. تعذيـب الــمعتَقَل الــمعرَّض للتعذيـب للجـلّاد الـذي يعذّبـه، أي مقاومتـه التحـول إلـى شـيء، هـي مـا يعمـل التعذيـب للتغلّـب عليـه، ومـا يقتضـي أن يكـون القائمـون بالتعذيـب كثـرة، أكثريّـة، مقابـل الــمعذّبين الــمفرّقين. كأنّمـا لسـان الحـال يقـول: نعذّبكـم لأنّكـم تعذّبوننـا بعـدم الاستسـلام التـامّ لنـا والتطـوّع لكشـف سـرائركم! نعذّبكـم لأننـا نتعـذّب فـي حكمكـم إن لـم تكونـوا طيِّعيـن كالخـراف!

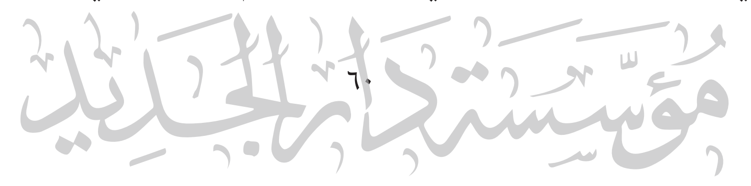
وتقديـري أنّـه فـي كلّ وقـت كان الــمجموع الكلّـي للقائميـن بالتعذيـب والقتـل فـي سـوريا أكبـر مـن مجمـوع الــمعتقلين في هـذا الوقـت، فوق تمكّنهـم مـن تقنيـات العـزل، ثـمّ فـوق تفـوّق السـلاح، وفـوق الــموارد الــمتفوّقة بدورهـا. وبينــما يبـدو أنّ حاكمـي أيّ بلـد قلّـة، وأن الحكـم يقتضـي ضربًـا مـن «العبوديّـة الــمختارة»، بحسـب نظريّـة إتييـن دو لا بوسـيه، فـإنّ نظـرةً عـن قـرب ربمـا تُظهـر أنّـه فـي كلّ وقـت محـدّد



تكـون قـوّة التعذيـب الــممكنة، أو قـوّة التحكّـم والإكـراه الــمنظّمة عمومًـا، أكبـر مـن القـوّة الــمقاومة لهـا الــمنظّمة كثيـرًا أو قليـلًا. ولعـلّ النظـم السياسـيّة تنهـار حيـن تتـوازن القـوى أو تَرجـح قـوّة الــمقاومين.

أكثـر مــن القــول إنّ التعذيــب علاقــة سياسـيّة أو قاعــدة دعــم نظــام سياســيٍّ قائــم علــى السّــيادة والتبعيّــة، أريــد ممّــا تقــدّم القــول إنّ «الأكثريّــة السياسـيّة» تبنــى فــي التعذيــب. أعنــي بالأكثريّــة السياسـيّة فـي هذا الــمقام مـن يحكمون ويقـرّرون للعمـوم، وبالأقليّة الــمحكومين الــمفرّقين. أو لنقــل إن التعذيــب هــو عمليّــة أساسـيّة لصنــع أكثريّــة وأقليّــة. مـن يجـري تعذيبهـم يُقلّلـون مهمـا تكـن كثرتهـم، ومـن يقومـون بالتعذيـب يكثـرون مهمـا يكونـوا قلّـة. الــمعذَّب يصيـر أقـلّ مـن نفسـه، والــمعذِّب أكثـر مـن نفسـه. وبقـدر مـا إنّ التعذيـب يفـرّق الــمرء عـن غيـره، ويفرّقـه عـن نفسـه، فـإنّ لـه فاعليّـة تقليليّـة مضمونـة. وبالعكـس، مـن يقُـم بالتعذيـب، يجـد نفسـه قويًّـا وسـيّدًا، وكثيـرًا. وهـو مـا ينبغـي أن يدفـع إلـى التفكيـر بعمليّـات التكثيـر والتقليـل السياسـيّة فـي مقابـل الـكلام علـى أقليّـات وأكثريـات اجتماعيّـة ثابتـة. التعذيـب منهـجُ تقليـل، يقلّـل الفـرد الواحـد إلـى كائـن منكمـش، خائـف، فاقـد للثقة والــمبادرة، هـذا حيـن لا يجـري تحويلـه إلـى شـيء، أي جثـة، ويقلّـل الــمجموعة إلـى أفـراد متناثريـن منكفئيـن علـى بعضهم، والــمجتمع إلـى مجموعات تديـر ظهرهـا لبعـض، تخـاف مـن بعضهـا ولا تثـق ببعضهـا. وهـو مـن وجـه آخـر منهـج تكثيـر، حيـن يتيـح لــمن يعذِّبـون أن يظهـروا ويعمّـوا، ويهيمنـوا، أن يصيـر الواحـد أكثـر مـن واحـد، والــمجموعة أكبـر مـن نفسـها.

فـي سـوريا هـذا واقـع أساسـي. يعتمـد الحكـم الأسـديّ فـي بقائـه علـى



التعذيب وأجهزته من أجل تكثير نفسه وتقليل محكوميه.[١٨] ومثلما تقدّم القول، يندرج التعذيب هنا في إقامة نظام للسيادة والتبعيّة وليس للمواطنة. أعني بالسيادة في هذا المقام امتزاج الحكم بالملك، وفق النموذج السلطانيّ، وما يقتضيه ذلك من عصمة المالك وعلوّه، ومن تصرّفه بملكه كيفما يشاء، بما في ذلك القتل. انقلاب سوريا إلى ملك أسَّس لتوريث الحكم في عام ٢٠٠٠. ومثال السّيادة هذا يُخرِج السيّد من أن يكون فردًا، ليصير معادلًا عامًّا للبلد بكلّ ما فيه. السيّد لا يدخل في علاقة، إنه فوق الجميع، أكثر من كلّ أكثريّة ومن الكلّ. على أنّ السيّد لا يبقى سيّدًا دون تعذيب، ما يعني أنه ليس داخلًا في علاقة فقط، وليس معوزًا لعلاقة فقط، بل إنّه لا يكمل عوزه بغير إيلام وإذلال محكوميه. أي أنّ السيّد تابع للأتباع، لا يوجد مِن دون تحطيمهم المستمرّ كي لا يخلعوا طوق التبعيّة. دمار سوريا الحاليّ مكتوب في هذه العلاقة.

على ضوء ما تقدّم يظهر للتعذيب وجهان، وجه نوعيّ يتمثّل في فصم الرابطة الإنسانيّة وتشييء المعذَّب/ المعذَّبين أو تخفيض مرتبته لهم الوجودية، ووجه كمِّي يتمثّل في تقليل المعذَّب/ المعذَّبين وبعثرتهم. وجه لامتناع التماهي، ووجه للتقليل.

•

تعذيب المجتمع تعذيب المجتمع لا يتبع منطقًا مختلفًا. يمكن التفكير في الحصار كمنهج لتفريق مجتمع محليٍّ محاصر عن غيره، مثلما جرى في حماه عام ١٩٨٢، ومثلما تكرّر حدوثه

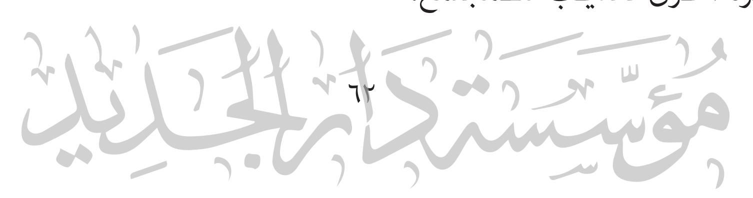
---

(١٨) ليس هذا هو المنهج الوحيد، الأيديولوجيّة الوطنيّة تقوم بدور في ذلك، وكذلك توزيع المنافع. لكنّ التعذيب هو ما يحرس تماسك النظام.



فـي حمـص وداريّـا والغوطـة الشـرقيّة ومخيّـم اليرمـوك ومضايـا وحلـب الشـرقية وغيرهـا فـي سـنوات الثـورة. وغيـر الحصـار يجـري قصـف الـمناطق الـمحاصرة بالبراميـل والقنابـل العنقوديّـة والفوسـفوريّة، مـع الحـرص علـى اسـتهداف الـمشافي والأسـواق مثلـما تكـرّر حدوثـه فـي الـمناطق الـمحاصرة. الحصـار والقصـف مَنهجَـا تقليـل مثـل التعذيـب، مناهـج لإنتـاج أقليّـات.

وليـس فقـط عبـر كـون التعذيـب علاقـة سياسـيّة يمكـن الـكلام علـى تعذيـب الـمجتمع. فـي سـوريا اقتـرن تعذيـب الأفـراد بأشـكال مـن الإذلال و«الـمرمرة» وتنكيـد العيـش طالـت أهالي الـمعتقلين أو مدنًا أو مناطـق اسـتهدفت بالتمييـز: حمـاه مثـلًا أو حلـب، أو منطقـة الجزيـرة. التمييـز الـذي يحميـه التعذيـب هـو تمييـز اجتماعـيّ عـامّ، حيـال مـن يرتـاب النظـام بمـا تكنّـه سـرائرهم. ثـم إن الأمـر أخـذ يتجـاوز بعـد الثـورة التمييـز إلـى العـزل والحصـار، إلـى التجويـع، والقصف والـمجازر. الـمجزرة هـي تعذيـب للـمجتمع، ضحيّتهـا ليـس مـن قُتلـوا حصـرًا وإنـما مجتمعهـم كذلـك، الأهـل والقرابـة والجـوار، البيئـة الاجتماعيّـة ككلٍّ. وبخاصّـة أنّـه يغلِـب أن يتبـع الـمجزرة تهجيـر، أو أن تُرتكـب أصـلًا بغـرض التهجيـر. يـدرك مديـرو الـمجازر أن تهجيـر البعـض مـن الحيـاة يقـود إلـى تهجيـر الآخريـن مـن بيئـة حياتهـم، أو أنّ قتـل أفـراد عديديـن يقـود إلـى اقتـلاع مجتمعهـم الـمحلي. ومعلـوم أنـه سـارت عمليّـات الحصـار والـمجازر والتهجيـر يـدًا بيـد فـي سـوريا فـي سـنوات مـا بعـد الثـورة. وكان سـبق أن جـرى الشـيء نفسـه بخصـوص الـمجتمع الفلسـطينيّ فـي النكبـة. ثـم إنّـه فـي غيـر مجـزرة فـي سـوريا اقتـرن القتـل بالاغتصـاب، كمـا فـي كـرم الزيتـون والحولـة عـام ٢٠١٢. الاغتصاب فـي سـياقنا ليـس انتهـاكًا يُفـرِّد، إنـه اعتـداء علـى جماعـة الـمغتصبة. أي مـرة أخـرى تعذيـب للـمجتمع.



ويظهر الاغتصاب كتدمير للمجتمع بجلاء لا مزيد عليه في كتاب الفتاة الأخيرة لنادية مراد، «السبيّة» الإيزيديّة عند داعش بعد استيلائها على الموصل في صيف ٢٠١٤، وعلى قريتها كوجو في سنجار في العراق. كان سَبي النساء واغتصابهن، والمتاجرة بهن، أحد وجهين لتحطيم المجتمع الإيزيدي، ثانيهما هو قتل الرجال الذين «أنبتوا». والوجهان معًا يشكّلان الإبادة أو الجينوسايد الإيزيديّ. نادية تعرضت لاغتصاب متعدّد من دواعش قبل أن تتمكّن من الهرب لتجد أنها فقدت أمّها والعديد من إخوتها وأخواتها.[١٩] كان اغتصاب ما قد يتجاوز ١٠٠ ألف امرأة ألمانية من قبل «الجيش الأحمر» وقت احتلال برلين في نهاية الحرب العالمية الثانية[٢٠] إذلالًا جمعيًّا، لا يحتمل أن يكون دون توجيه مركزيّ، سوّغ نفسه على الأرجح بالصّفة الجمعيّة للحرب والإبادة النازيَّين.

تعذيب المجتمع يظهر بوضوح أكبر في الحصار والتجويع الذي طور له النظام شعار «الجوع أو الركوع»، الذي ينسخ البنية العدمية لـ«المساومة» التي تجري مع السجناء («تتعاون»، أي تصير مخبرًا، وإلا تبقى في السجن)، وكذلك بنية الدستور الباطن

(١٩) نادية مراد: الفتاة الأخيرة، قصتي مع الأسر ومعركتي ضد تنظيم داعش. ترجمة نادين نصر الله، الطبعة الأولى، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٩. قصّة نادية و كوجو (قضاء سنجاب) رهيبة، وهي تظهر أن سبي النساء واغتصابهن هو استمرار لقتل الرجال، وكليهما وجهان للإبادة. بروايتها لها أعطت نادية المجتمع الإيزيديّ قصّة فخورة، عزّزها فوزها بجائزة نوبل للسلام بالمناصفة في عام ٢٠١٨. يمكن المجادلة في السياسة المتضمّنة في كتاب مراد، لكن ليس هناك وجه عادل للوم شابّة تعرّضت لما تعرضت له على سياسة تبحث عن أوضاع خاصّة، وليس عن حقوق وأوضاع متساوية لجميع العراقيّين.

(٢٠) انظر:

Nicholas Robins and Adam Jones (editors), *Genocide by the Oppressed, Subaltern Genocide in Theory and Practice*, Indiana University Press, 2009. p 61.



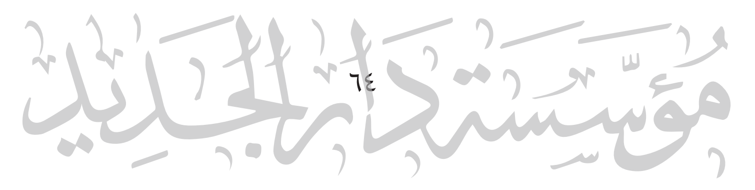
للنظام: الأسد أو لا أحد! رهان الحصار هو الطاعة وكسر الإرادة مثل السجن المديد الذي هو استمرار للتعذيب. تقارن سميرة الخليل بين الحصار والسجن في يوميّاتها المكتوبة في دوما في صيف وخريف ٢٠١٣. قالت سميرة إن السجن الذي خبرته شخصيًّا في دوما مزحة قياسًا إلى الحصار الذي خبرته في دوما نفسها.[٢١] فإذا أضيف القصف إلى الحصار، نحصل على مجتمع مقيّد بالحصار ومجلود عبر القصف، مُقلّل ومُفرّد.

ويمكن أن نفكّر في البراميل المتفجّرة تحديدًا كأداة تعذيب اجتماعي، ليس من حيث إنّها تتسبّب بقتل وتدمير واسعين فقط، لكن من حيث إنّها تدمر بيئة الحياة، وتبدو لذلك مُصمّمة للتهجير. البرميل يصلح رمزًا للحاكميّة أو السيادة الأسديّة على المستوى الجمعيّ مثلما الكبل الرباعيّ رمز لها على مستوى تعذيب الأفراد.

•

التعذيب والسجن في سوريا لا يكاد يكون بين من هم في السجون من لم يمرّوا بالتعذيب أوّلًا. التعذيب هنا بنيويّ، ونسقيّ، وليس شيئًا يصادف أن يمارَس. ما يعني أيضًا أن الإذلال بنيويّ ونسقيّ. ومن السمات البارزة للحقبة الأسديّة، بعد التعذيب، المُدد الماراثونيّة التي قضاها سوريّون كثيرون في السجون، تتجاوز مدّة الحكم النازي كلّه. هذه النقطة جديرة بالتوقّف عندها قليلًا لأهمّيتها التحليليّة. في سنوات اعتقالنا في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين كان ممّا يحضر في تداولنا المقابَلة بين مقدار

(٢١) سميرة الخليل، **يوميات الحصار في دوما ٢٠١٣**، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت ٢٠١٦، ص ٧٥-٧٦.



التعذيب ومدّة الاعتقال. لم يتبلور بيننا تفضيل واضح لأنْ نُعذَّب أقلّ مقابل وقت أطول في السجن، أو للاحتمال المعاكس، أي أن نعذب أكثر مقابل تقليل مدّة السجن. لم يكن ثمّة «سعر تحويل» ثابت يترجم العلاقة بين التعذيب ومدّة الاعتقال، يوم تعذيب مقابل سنة سجن مثلًا، ولم نكن نقدر المدد التي قضيناها في سجون النظام، وكانت أطول من أسوأ تقديراتنا جميعًا. الواقع أنّ المقابلة بين مقدار التعذيب ومدة الاعتقال تولدت بالضبط كتمرين ذهني عن طول المدّة. كان في حضور هذا التمرين ما يشير إلى استمرارية بين مقدار التعذيب ومدة الاعتقال، أو ما يظهر أن طول المدة هو ضرب من التعذيب المختلف، وأننا في الواقع لم ننج من التعذيب حين توقّف بإحالتنا إلى السجون، ما دام السجن استمرارًا مغايرًا له.

وهذا على كلّ حال ليس مسألة استدلال. في تجربتنا، نحن المعتقلون اليساريّون في سجن عدرا، أُحلنا إلى معسكر التعذيب في تدمر بعد سنوات طويلة في السجن، شارفت ١٥ عامًا في حالات كثيرة، وجاوزتها بأسابيع قليلة في حالتي. وهذا بعدما كنّا أحلنا إلى محكمة أمن الدولة ونلنا أحكامًا كان سقفها ١٥ عامًا. كان ذلك مثل اعتقال جديد، وبدأ بتعذيب جديد، وبحبس عرفيٍّ لم نكن نعرف متى يمكن أن ينتهي، وتجاوز في معظم الحالات حكم المحكمة.

يجمع بين الاثنين، التعذيب والسجن، فقدان التحكّم بالحياة أو تحوُّلنا إلى مواضيع لسلطة تحتكر لنفسها الذاتيّة والمبادرة والتفكير والقرار. على أنّ شروط الحياة في السجن يمكن أن تسمح بأشكال من المقاومة والحريّة تلغي مفعول السجن بمقدار، الأمر المتعذّر كلّيًّا بخصوص التعذيب. في التعذيب، فضلًا عن الألم الجسديّ



الـمبرّح، نحـن نَخبَـر الـموضعة القصـوى، الانكشـاف والوقـوع، أنّنـا لـم نعـد ملـك أنفسـنا وسـادة أنفسـنا، أننا مملوكـون لغيرنا يسـودنا بمشـيئته. إذ نكـون علـى قـرب مـن الـموت فـي التعذيـب، فإنّنـا نخبـر فيـه زوال الحريـة بالـمعنى الوجـودي، وليـس الحقوقـيّ والسياسـيّ فقـط. الهلـع الـذي نشـعر بـه أثنـاء التعذيـب يجمـع بيـن الشـيئين: الألـم والانكشـاف أو الاسـتباحة. لقـد سـبق القـول إنّ الاغتصـاب تعذيـب. العكـس صحيـح كذلـك فـي تصـوّري: التعذيـب اغتصـاب. ليـس هنـاك كلـمة تكثّـف الانكشـاف والرعـب والانتهـاك، مشـاعرنا تحـت التعذيـب، أكثر من كلـمة اغتصـاب.[٢٢] وفـي هـذا مـا يدعـم فكـرة أنّنـا لا نتكلّـم عـن التعذيـب بالتفصيـل لأنّ التجربـة مذلـة، فالأمـر يشـبه اسـتحضار تجربـة اغتصـاب.

•

مسـتويات التعذيـب السـوريّة تأسيسًـا علـى مـا سـبق، مـن الـممكن التمييـز فـي الإطـار السـوري بين ثلاثة مسـتويات مـن التعذيب. التعذيـب كعمـل أو كعلاقـة مباشـرة، والتعذيـب كمعمـل وإدارة، ثـم التعذيـب كدولـة ونظـام سياسـيّ. أو بعبـارات أخـرى، التعذيـب كفعـل جلّاديـن؛ ثـم التعذيـب كمؤسسـة أو جهـاز يسـمى فـي سـوريا فـرع الأمـن أو الـمخابرات، وهـو الوحـدة الأمنيّـة التـي قـد تكـون ضخمـة، كالأجهـزة الـمركزيّة فـي دمشـق، أو أصغـر كمفـرزة الأمـن العسـكري في الرّقـة، لكنّهـا فـي كلّ الأحـوال الجهـة التـي تتولّـى الاعتقـال والتعذيـب؛ ثـم فـي الـمقام الثالـث التعذيـب كنظـام حكـم. وهـو مـا تركّـز عليـه هـذه الفقـرة.

---

(٢٢) لعـلّ فـي هـذا مـا يسـوِّغ إلحـاق التعذيـب مـن حيـث البنيـة بـكلٍّ مـن الإمبرياليّـة والتمييـز ضـد النسـاء ومشـكلة البيئـة. التعذيـب غـزو وفتـح للأجسـاد كذلـك.



ليس التعذيب شيئًا يمارسه الحكم الأسديّ روتينيًّا فقط، وإنّما هو شيء يكونه،[23] تمامًا مثلما أنّ الحرب هي شيء تكونُه التيّارات السلفيّة الجهاديّة وليست شيئًا يحدث أن تفعله. سوريا دولة تعذيب بما هي دولة أمنيّة أو دولة تقوم على مركزيّة دور الأجهزة الأمنيّة في ترويع السكّان وكسر عزيمتهم. وما يقوله جان آمري من أنّ التعذيب هو جوهر الاشتراكية القوميّة (النازيّة)[24] أشدّ انطباقًا على «سوريا الأسد». الواقع أنّ التعذيب والإبادة ذاتها تابعان للحرب والتوسّع في ألمانيا النازيّة، فيما حروب النظام الأسديّ بعد عام ١٩٧٣ تعذيبيّة، تستهدف الأضعف منه، ومسخّرة لدوام سلطته. مبدأ حفظ السلطة يقتضي التفكير في المحكومين كمصدر خطر، أي كعدو، والعمل على استئصال هذا الخطر باستمرار. التعذيب ضروريّ، وتاريخ الحكم الأسديّ خلال نصف قرن يدلل على ذلك بقدر كاف. وبقدر ما إنّ التعذيب جانب من وظيفة مُركّب جهازيّ، جانبه الآخر هو صنع المخبرين، أي تدريب المحكومين

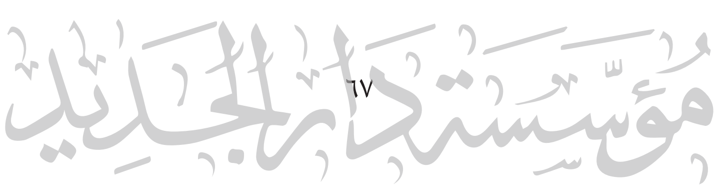
(٢٣) يجب أن يكون المرء بشّار الأسد حتّى يستطيع أن ينكر التعذيب في سوريا، ويتنكّر لما يعانيه جلّادوه من «عذاب» في التعذيب. الحكم الأسديّ مذهل في الصفاقة وانعدام الكرامة، وفي الاستعداد لقول ما يعرف أنّ كلّ السوريين يعرفون أنّه كذب. لكنّ المرء لا يستطيع أن يهين الحكم الأسدي مهما يقل، فهو المهانة مجسدة طوال تاريخه. انظر مقابلة بشار مع **روسيا اليوم** في تشرين الثاني ٢٠١٩:

https://www.youtube.com/watch?v=b3xCq4YMq-c

على أنّ بشّار كان محتشمًا فلم يقل إن السوريين يعذّبونه بحكمه لهم، على ما يقول جلّادوه لمجلوديه.

هناك مكتبة صغيرة من أدب السجون السوري، كُتابها معتقلون سابقون، وليس بينهم من لم يقل إنه تعرّض للتعذيب. وملفّ سيزار صار معروفًا عالميًّا (ينظر كتاب غارانس لو كين، **عمليّة قيصر ـ في قلب آلة الموت السوريّة**، ترجمة أنس عيسى، مركز حرمون، ٢٠١٨). وتقرير منظمة العفو الدوليّة: «المسلخ البشريّ» وهو متوفر على موقع المنظمة.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٠.



علـى الخيانـة، خيانـة أنفسـهم ورفاقهـم، وخيانـة مواطنيهـم، فـإنّ جوهـر الأسـديّة يظهـر فـي هـذا الضـوء كخيانـة مسـلحة مسـتمرة.

بـل إن ممارسـة هـذا الـمزيج مـن التعذيـب والإذلال والخيانـة طـوال نصـف قـرن تظهـر الحكـم الأسـدي كقـوة اسـتعمار أجنبـيّ تتحكّـم بسـكّان أصليين، أو بالأحـرى تطابـق نـموذج اسـتعماريّة السـلطة الـذي تتكلـم عليـه النظريّـة النقديّـة الأميركيّـة اللاتينيّـة.(٢٥)

يقـوم الـمستوى الثالـث، الدولـة، علـى الـمستوى الثانـي، الـمخابرات، الـذي يقـوم بـدوره علـى التعذيـب كفعـل مباشـر. النـواة السياسـيّة للحكـم الأسـديّ هـي علاقـة التعذيـب، لا يقـوم بغيرهـا ولا يُفهـم مـن دونهـا.

ولعـل مـن الأوجَـه بخصـوص سـوريا تحديـدًا أن نتكلّـم عـن مسـتوى رابـع: التعذيـب كعالـم. ليـس فقـط لكثـرة الفاعليـن العالـميين فـي سـوريا، ولا لأن نظـام العالـم القائـم علـى الدّولـة السـيّدة كان دومًـا أقـرب بكثيـر إلـى ضمـان نجـاة دولـة التعذيـب الأسـديّة منـه إلـى نجـاة مـن تقـوم بتعذيبهـم، إلـى درجـة تعبيـر هيـلاري كلينتـون، وقـت كانـت وزيـرة للخارجيّـة الأميركيّـة، عـن حرصهـا علـى «البنيـة التحتيّـة الأمنيّـة» فـي الحكـم الأسـدي الـذي كانـت تشـمئز منـه، ولكـن كذلـك لأنّ مـا جعـل هـذه النجـاة ممكنـة هـو مـا اقتـرن بعـودة مسـاحات اسـتثناء يمـارس فيهـا التعذيـب إلـى دول كانـت تعـظ ضـد التعذيـب قبـل زمـن لـمّا يسـقط مـن الذاكـرة بعـد: أعنـي «الحـرب ضـد الإرهـاب». ليسـت

---

(٢٥) تنظر في هذا الشأن الورقة الأساسيّة لأنيبال كويهانو:

Coloniality of Power, Eurocentrism, and Latin America.

أي تشـكّل السـلطة والـمعرفة وفـق النـموذج الاسـتعماريّ. عبـر التشـكّل الاسـتعماريّ للسـلطة، الاسـتعمار لـم ينتـه.



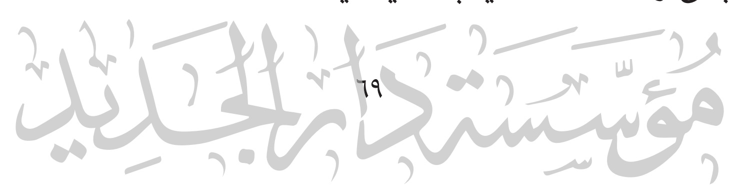
هـذه حربًـا عالــمية، إنــما هي تعريف للعالــم كعالــم حربـيّ. إذ تنقلب الجيـوش إلـى مخابـرات فـي مواجهـة «الإرهـاب»، ينفتـح البـاب لإلحـاق الحـرب بالتعذيـب.

•

خلاصـات سياسـية عملـت هـذه الــمناقشة علـى إظهـار بنيـة التعذيـب وتعـدّد أشـكاله وأوجهــه ومســتوياته: تعذيــب اســتجوابيّ وتعذيــب عقابــيّ وتعذيــب إذلالــيّ وتعذيــب إبــاديّ، تعذيــب الأفــراد وتعذيــب الـــمجتمع، التعذيــب كعمــل مباشــر والتعذيــب كمؤسّســة والتعذيــب كدولــة والتعذيــب كعالــم.

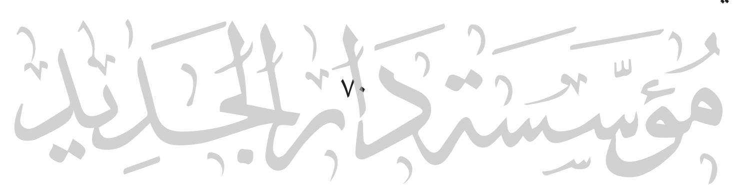
بالاسـتناد إلـى هـذا التحليـل، الــمستند بـدوره إلـى التجربـة السـوريّة فـي نصـف القـرن الأسـديّ، يظهـر أن الــمصنع السـرّي/ العلنـي للسياسـة هـو فـرع الــمخابرات، وأن التعذيـب هـو العلاقـة السياسـيّة الأساسـيّة، وأنّ علاقـات التعذيـب السياسـيّة هـي الــمدخل إلـى فهـم الحاكميّـة أو السـيادة الأسـديّة خـلال نصـف قـرن. يحاكـي الاسـتمرار بيـن التعذيـب والسـلطة الاسـتمرار بيــن العمـل والسـلعة فـي نظريّـة القيمـة عنـد ماركـس، بمـا يتيـح التفكيـر فـي قـوّة العمـل كسـلعة مـن نـوع خـاص، وفـي السـلعة كعمـل محقّـق. فـي ثنائيّـة التعذيـب والسـلطة لدينـا بـدل العمّـال جـلّادون، وبـدل الــموادّ الأوّليّـة لدينا مجلـودون، ونتـاج التعذيب الـذي هـو السـلطة مفصـول عن منتجيـه أو عمّالـه الــمباشرين، الجلّادين، مثلــما السـلعة مفصولـة عـن الــمنتجين الــمباشرين في الرأسـمالية.

يمكـن أن نسـمي نــمط إنتـاج السـلطة فـي سـوريا فـي الحقبـة الأسـديّة بالنــمط السـيادي الـذي يقـوم علـى التعذيـب وإنتـاج التبعيّـة. وهـو مـا يعنـي أنّ كلّ كلام فـي السياسـة فـي سـوريا ينبغـي أن يبـدأ مـن هنـا، مـن بُنـى وعلاقـات التعذيـب السياسـيّة.



ومـن هنـا أيضًـا نعـرِّف مـا يمكـن أن تكـون سياسـة تحرّريّـة بأنّهـا جملـة الـممارسات والقواعـد والـمؤسّسات الـمصمّمة لـمنع تعذيـب الأفـراد والـمجتمع، ومـن بـاب أولـى القتـل والإبـادة. هـذا لأنّ التعذيـب نـازع لاجتماعيـة الـمجتمع بالـذات، وكذلـك لسياسـيّة الدولـة. وهـو مـا يقتضـي ألا تكـون الدولـة احتـكارًا للعنـف الشـرعيّ، بحسـب تعريـف ماكـس فيبـر لهـا، إلّا علـى أرضيّـة تحريـم التعذيـب، لأنـه ليـس هنـاك تعذيـب شـرعيّ. حيـن ينكـر بشّـار الأسـد ممارسـة التعذيـب فـي دولتـه فإنـه يكـذب كمـا يعلـم الجميـع، لكـنّ كذبـه بالـذات هـو بمثابـة إقـرار بـلا شـرعيّة التعذيـب. فـإذا مـورس هـذا العنـف غيـر الشـرعيّ مـن قبـل الدولـة، وهـو ممـارس علـى نطـاق واسـع ومترسّـخ، كان محتمـلًا بقـدر كبيـر أن يمـارس العنـف غيـر الشـرعيّ مـن قبـل الـمجتمع فـي صـورة الإرهـاب أو الجريمـة أو العدوانيّـة العامـة. والسـوق السـوداء للعنـف التـي يـروّج فيهـا شـكل مـن اللاشـرعيّة يـروّج فيهـا كلّ شـكل آخـر، واللاشـرعية الدولتيـة تفتـح أبـواب اللاشـرعيّة كلّهـا: الإرهـاب والجريمـة واللاقانونيـة العامـة، أو الأنومـي بعبـارة دوركهايـم، وهـي بـاب للجنـوح والانتحـار والعنـف. ومـا يُبنـى علـى ذلـك هـو أنّ الحـرب ضـدّ الإرهـاب دون حـرب ضـد التعذيـب غيـر مثمـرة وغيـر عادلـة، فـوق أنّهـا تجنـح لأن تكـون تعذيبًـا وإرهابًـا هـي ذاتهـا.

فـإذا صـح مـا قيـل فـي الـمتن مـن أن سـوريا الأسـد دولـة تعذيـب، وليسـت مجـرّد دولـة يحـدث أن يمـارس فيهـا تعذيـب، فـإن إعـادة بنـاء الـمتّحد السياسـيّ السـوريّ يمـر حتمًـا باجتثـاث وكالات التعذيـب الأسـديّة. اجتثـاث الـمخابرات، «البنيـة التحتيّـة الأمنيّـة»، وليـس اجتثـاث البعـث مثـلًا، ولا حـل الدولـة، هـو الـمدخل إلـى سـوريا جديـدة قابلـة للسياسـة.

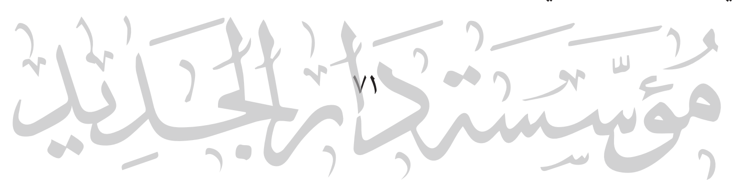


التعذيب والتفكير، والشر التحليل الوارد هنا يتعارض مع نظريّة حنة آرندت في الشرّ المبتذل، الذي ينشأ من عدم التفكير مثلما ميّزته عند أدولف آيخمان. لكن بينما قد يوافق المرء مؤلّفة **آيخمان في القدس** على أنّ الشر ليس فعل أشرار ساديين ذوي أعماق سوداء، وأنّ الواحد منا يمارس الشر ويكرّر ممارسته فيصير شرّيرًا، وليس العكس، وهو ما يعني أنّ في الأمر تأهيلًا وتمرسًا، وقبل ذلك اجتماعًا وسياسة، فإنّ التعذيب من بين صنوف الشر أقلّها بقرطة وأكثرها شخصيّة، ومن الأكثر اقتضاء لجهد الذهن والجسد.

يبدو التفكير ممتنعًا من قبل القائم بالتعذيب أكثر من امتناعه من طرف من يقع عليه التعذيب. هذا يبحث عن مخرج ينهي عذابه. وما لم يكن التعذيب إباديًّا فإنه لا يمحو كلّ استقلال ومبادرة من طرفه. لقد سبق القول إن ما يجعل شخصًا يُعذّب شخصًا آخر هو ما يحتمل أن يمنحه إياه التعذيب من شعور بالقدرة والتحكم، من شبه صراع يخرج منه منتصرًا. لا صراع في واقع الأمر، وانتصار الجلّاد مضمون سلفًا، مع «صفر خسائر» يتكبّدها. لكن في الحالة القصوى حين يجري تشييء المعذَّب وتَسَيُّد المعذِّب، يتكشف السيّد عن قوّة تعذيب محض لا معنى لها، بينما يصير من تشيّأ «شهيدًا»، غنيًّا بالمعنى. تنقلب العلاقة فيصير «الإله» عبدًا لقوّته الفالتة، ويصير «الشيء» رمزًا لقضية وصراع تحرّر.[٢٦]

---

(٢٦) قد يمكن التفكير في المقابر الجماعيّة والإذلال الخارق للمعتقلين، على ما تسرّب في ملفّ قيصر وغيره، وحجب المعلومات عن مصير المعتقلين كمساع من طرف النظام للحيلولة دون ظهور شهداء، خلق مساحة من الغموض لا يمكن قول شيء محدد بشأنها. أو رد المقتولين إلى مثال الإنسان المباح (Homo sacer) الذي لا قيمة قربانيّة لموته. الإذلال مكوّن أساسيّ للوظيفة الأمنية في الحقبة الأسديّة، إن عبر التعذيب أو عبر الخيانة المفروضة بالقوة.

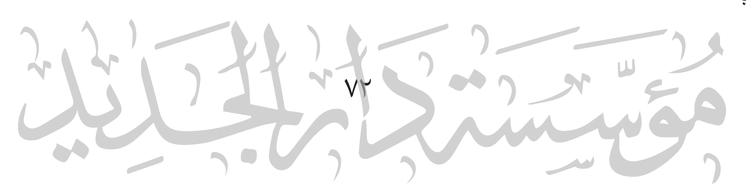


فيما دون هذه الحالة القصوى، هناك جهد عضليّ بلا تفكير من قبل الجلاد، وهناك مساحة للحيلة والتفكير من قبل من يقع عليه التعذيب. قد ينجح في خداع جلّاده، فينتصر عليه بالحيلة، أي بالسياسة. يمثّل الشخص الواقع تحت التعذيب سياسةً أخرى، السياسة التي معناها الحرّية في مواجهة السياسة (بل السيادة) التي معناها الموت. ثم إنه قد يواتيه الحظّ ويستطيع أن يهرب إلى الحرّية حتى من عزرائيل، المقدم معن، مثلما روت الغائبة رزان زيتونة في تقريرها المتقدم ذكره.

في ألمانيا النازيّة، مرجع آرندت الواقعيّ للتفكير في الشر، لم يُغيِّب التعذيب، لكنّ معظم من جرت إبادتهم أبيدوا ليس لشيء فعلوه ولكن لكونهم هم من هم: يهود أو غجر أو سلاف أو مصابون بأمراض خلقية... وإن يكن جرى تعريف من يكونون، تصنيفهم وتمييزهم وفصلهم عن غيرهم، كأحد وجوه عمليّة الإبادة. وتأمّلات آرندت عن الشر تولدت عن محاكمة آيخمان الذي كان مسؤولًا عن نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال النازيّة. لو كانت تتناول مسؤولًا في الغستابو أو في قوات الصاعقة النازية (SS)، لكان محتملًا أن تقول شيئًا مغايرًا. لجان آمري الذي تقدّمت الإشارة إليه غير مرة تعليق مرير على نظريّة آرندت يفيد بأنها «تعرف عدو الإنسان من القيل والقال، رأته فقط من وراء قفص زجاجيّ».[٢٧]

أميل في المحصّلة إلى أنّه ينطبق على التعذيب تعريف الشر الجذريّ الذي استعارته آرندت من كانط، واستخدمته في أصول التوتاليتاريّة، الشر الذي يصدر عن نيّة شرّيرة ومقصد شرّير.

(٢٧) يحيل آمري إلى قفص زجاجيّ لا يخترقه الرصاص، ظهر آيخمان فيه أثناء محاكمته في القدس. المصدر نفسه، ص ٢٥.



فـإذا عدنـا إلـى مسـتويات التعذيـب السـوريّة، الفعـل والجهـاز والدولـة، فـإنّ مسـتوى الدولـة هـو مسـتوى التفكيـر والقـرار، بيـده تقريـر الاعتقال والتعذيـب والسـجن والإعـدام، فيمـا الجهـاز هـو إدارة، تنظّـم عمليّـات الاعتقـال والتعذيـب والسـجن والإعـدام، وتترجـم التفكيـر إلـى عمـل يقـوم بـه الـمستوى الثالـث، جيـش التعذيـب العامـل. وبنيـة فـرع الأمن الأسـديّ تحمـل هـذه الثلاثيّـة: مكتـب فخـم لرئيـس الفـرع الـذي يقـود العمليّـات وتلتقـي عنـده الـمعلومات، مكاتـب إداريـة لضبّـاط ومحقّقين وموثِّقيـن، ثـم غـرف للعناصـر أقـرب إلـى أقبيـة التعذيـب. الشـرّ يتركّـز فـي الـرأس فـي الحاليـن.

وأختـم بمـا يبـدو تمثيـلًا لانقـلاب جدلـيّ بيـن الجـلاد والـمجلود. الأول يخـرج مـن الإنسـانية نحـو السـيادة والتألـه، لكـن كذلـك نحـو الصمـت. ليـس لـدى الجـلّاد مـا يقولـه عـن عملـه، ليـس لديـه قصـة، حكايـة مختلفـة تـروى لـمهتمين، وتنطـوي علـى مثـال أو عِبـرة. أمـا الـمعذَّب الـذي يُـردّ إلـى جسـد، الـذي يُقلّـل ويُشـيّأ، فلديـه قصّـة إن لـم يمـت، قصّـة نضـال ومخاطـرة مـن أجـل الحرّيـة، الشـخصيّة والعامّـة، وهـو إن مـات صـار رمـزًا ومعنـى، قصـة يرويهـا مـن يأتـون بعـده.

وفـي هـذا الشـأن لا يسـجّل الجـلّاد الرمـزي، الـمنشغل بتسـفيه معارضي النظـام ونفـي أن لهـم قضيّـة عامّـة، اختلافًـا حاسـمًا. ففضـلًا عـن افتقـاره إلـى أجسـاد يجلدهـا، خلافًـا لنظيـره الجسـديّ، ليـس لديـه قصّـة يرويهـا. يثابـر علـى الجلـد الرمـزيّ لخصـوم دولـة التعذيـب، يكـرّر الشـيء نفسـه مـرّة تلـو الـمرة لأنـه ليـس لديـه قصة.

•

اسـتخلاص عـام عملـت هـذه الـمقالة علـى إظهـار أن التعذيـب علاقـة شـرّ أساسـيّة، إن لـم تكـن الأساسـيّة. عملـت كذلـك علـى إظهـار

أن سـوريا فـي الحقبـة الأسـديّة دولـة تعذيـب، مـا يعنـي أننـا عشـنا فـي شـرّ عميـم طـوال نحـو نصـف قـرن، وأن الـذرى التـي عرفناهـا خـلال مـا يقتـرب مـن عقـد هـي اسـتمرار فـي شـروط مغايـرة لشـر مُمأسـس، مترسّـخ فـي نظـام حكـم.

مـا تقولـه خبـرة السـنوات الــمنقضية هـو أن «سـوريا الأسـد» دولـة تعذيـب، وأنـه لا يمكـن لسـوريا بـدون تعذيـب إلا أن تكـون سـوريا لا أسـديّة.



السُّنّة التدمُريّة:
صيدنايا، التحوّل العنصريّ، الإبادة

«المَسلخ البشريّ» هو عنوان التقرير الرهيب، الذي أصدرته يوم ٧ شباط ٢٠١٧ منظّمة العفو الدوليّة عن سجن صيدنايا في سوريا. المنظّمة المتحفِّظة في الموقف السياسيّ وفي لغة التعبير تبدأ تقريرها، مع ذلك، بالجملة الصادمة التالية: «سجن صيدنايا العسكريّ هو المكان الذي تقوم الدولة السوريّة فيه بذَبح شعبها بهدوء». وفي نحو خمسين صفحة، يُورد التقرير وقائع تَقشعِرُّ لها الأبدان عن التعذيب والإذلال والتجويع والبهيميّة والقتل في ذلك الجحيم المعزول والمحروس بحِرص. ويُقدِّر التقرير الذي يتناول «عمليّات الشنق الجماعيّ والإبادة الممنهجة في سجن صيدنايا» أنه من المحتمل أن ١٣ ألف معتقل قد تم شنقهم فيه بين أيلول ٢٠١١ وآخر عام ٢٠١٥.[١]

مَن كان من أهل التجربة في سجون الدولة الأسديّة سيَشعر بأنّه سبق أن عرَف أكثر ما يَقرأه في تقرير منظّمة العفو، ومع ذلك يبدو أن هناك تقدّمًا في مستوى الفظاعة لم تُسجِّل مثله شهاداتٌ مباشرة من سجن تدمر في ثمانينيّات القرن العشرين وتسعينياته.

---

(١) التقرير متاح على موقع منظّمة العفو الدوليّة.



فقد اقتضى الأمر نحو عقدين من السنين كي يصير مجمل عدد المفقودين في سوريا في سنوات الأب بين ١٥ و١٧ ألفًا، يُعتقَد أنّ معظمهم أُعدِموا في ذاك المعزل الصحراويّ، بينما هناك اليوم ما قد يتجاوز ١٣ ألفًا من المقتولين خلال ما لا يتجاوز أربع سنواتٍ وثلاثة أشهر يُغطِّيها التقرير الذي بين أيدينا. وهذا دون أن يكون سجن صيدنايا هو المسلخ العامر الوحيد في «سوريا الأسد».

على أنّ السُّنَّة التدمُريَّة التي أرساها حافظ الأسد تبقى هي الساريَة في الحقبة الأسديّة الثانية، رغم الفارق الكَمِّي، وتبدُّل موقع مصنع الرعب الأساسيّ من تدمر إلى صيدنايا. في سنوات الأب كان يجري في تدمر إعدامٌ دوريٌّ لمعتقلين طوال الثمانينيّات وبعض التسعينيّات، وكذلك تعذيبٌ عشوائيّ للسجناء يومِيّ طوال عقدَيِ القرن الماضي الأخيرَين، وكان معظمهم من الإخوان المسلمين أو المَحسوبين عليهم، بمَن فيهم نساء، قضى بعضهنّ تسع سنوات هناك. لكن مرَّ بالسجن لسنواتٍ وتعرَّض للتعذيب فيه كذلك معتقلون يسارِيُّون وبعثِيُّون مُوالون للحكم العراقيّ، ولبنانيّون وغيرهم.

تَدْمَرَةُ سوريا، أعني تعميم نظام سجن تدمر على البلد، وعلى نحوٍ تدميريٍّ للمجتمع السوري، هي النَّقلة النوعيّة التي تحقَّقتْ لبشّار، ويستحقّ أن يرتبط اسمه بها تاريخيًّا. ستتفحَّص هذه المقالة السُّنّة التدمريّة أو التقليد التَّدمُري، أعني ما يُميِّز سجن تدمر في وقتٍ سابق وصيدنايا اليوم، وما يجعلهما معسكرَيِ اعتقالٍ وتعذيب، وليسا مجرّد سجنين، وتَنظر في أوجه اختلافٍ بين صناعات الموت الأسديّة والنازية (والستالينية)، وتَقترح تفسيرًا لتطوُّر النَّزعات الإباديّة في الدولة الأسدية، وتختم بالنظر في الشروط السياسيّة والثقافيّة الدوليّة التي وفَّرتِ الحصانة لصناعة القتل الأسديّة حتى اليوم.



السُّنَّة التدمرية من أكثر الوقائع صدمًا للمعتقل السياسيّ في «سوريا الأسد»، وبخاصّة في سجن تدمر، أنّ الجلّاد يُحِبُّ عمله، يُنجِزه بـ«تقوى» بحسب تعبيرٍ دمشقيٍّ عن العمل المُتقَن. الأمر بعيدٌ عن تنفيذٍ روتينيٍّ لعملٍ مُنفِّر، يقوم به المرء مضطرًّا بحكم الوظيفة. لدينا هنا مساحات واسعة من التطوع والحرّية، ومن الحبّ، في عمل الجلّادين، وهم لا يكفُّون عن الابتكار والإضافة. الأمر بعيدٌ عن الشر المُبتذَل، مثلما وصفَته حنّة آرندت: شرٌّ خاضع لتراتُبٍ بيروقراطيّ مُنضبط، يخلو من انفعالٍ شخصيٍّ مباشر ومن هامشِ مبادرةٍ حرة للجلاد. ليس هناك جلاد أصلًا في معسكرات الاعتقال النازيّة. هناك آلة، فيها عاملون يقومون بدورهم وفق نظامٍ ثابت. لا شيءَ شخصيّ في وصف بريمو ليفي[٢] لتَجربته في آوشفيتز، معسكر الاعتقال النازيّ.

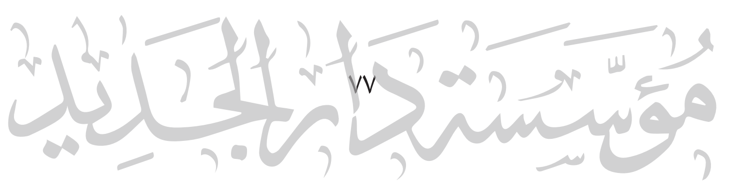
المعتقل هناك عضوٌ في «جيش معتقلين» يعملون جماعيًّا (وإن كان هناك ضرب من تقسيم العمل بحسب مؤهّلاتهم) يُجوَّعون جماعيًّا، ويُقتَلون جماعيًّا أيضًا. القتل في معسكر الاعتقال النازيّ «صناعيّ»، مُرتبط بنظام إنتاجٍ مُعَقلَن ورأسماليّ، ويجري «انتخاب» معتقلين إلى أفران الغاز، بخاصة حين تنضب طاقتهم على العمل، وهناك قبل ذلك نظريةٌ حول انحطاط اليهود والغجر والمرضى... وحول تفوُّق العرق الجرمانيّ وألمانيا التي «فوق الجميع»، حسبما كان يقول النشيد الوطنيّ لألمانيا النازيّة. لكن لا يبدو أن هناك انفعالًا شخصيًّا قويًّا من قِبَلِ أفراد القوّات النازّية حيال المعتقلين.

---

(٢) يراجع كتابه: **أليسَ بَشَرًا؟**

If this is a Man

والكتاب متوفّر على عدد من المواقع الإلكترونيّة.



ليفـي يتسـاءل فـي كتابـه: «كيـف يمكـن لأحـدٍ أن يضـرب شـخصًا دون غضـب؟»، ويقـول إنّ الشـعور الوحيـد الـذي تركَـته أولـى اللكمـات التـي تعـرَّض لهـا هـو «الاندهـاش العميـق» (ربّمـا نتوقّـع الــمهانة، أو الغضـب، أو الكراهيّـة). وكتابـه يُعطـي الانطبـاع بـأن التمـاسَّ الجسـديَّ بيـن قـوّات الصاعقـة النازيّـة وضحاياهـم اليهـود (والــمجرمين الجنائييـن والــمعارضين السياسـيين) محـدودٌ جـدًّا. لويـس ألتوسـير الـذي قضـى ٣ سـنوات فـي معسـكر اعتقـال نـازيٍّ كـأسير حـربٍ فرنسـي يُـورد فـي مذكّراتـه، **الــمستقبل يـدومُ طويـلًا**، The Future Lasts a Long Time صـورةً عـن أوضـاع أقـل وحشـيّةً بكثيـر، لكـنّ تجربتـه أيضًـا تُعطـي الانطبـاع بنظـام مُعَـقلَن وغيـر شـخصيٍّ.[٣]

فـي الــمعتقل الأسـديّ، بالــمقابل، لدينـا شـرٌّ مُمـارسٌ بشَـغف، يُفسِـح مجـالًا واسـعًا لــمبادرة الجـلّاد وإبداعِيَّــته، ودومًـا مـع تمـاسٍّ جسـديٍّ مباشـر. يُمسـك مثـلًا جـلّادان معتــقلًا مهـزولًا مــن يديــه ورجليــه، ويُؤرجِحانـه وهمـا يصرخـان بجَـذل: واحـد تنيـن، واحـد تنيـن... قبـل أن يقذفـاه عاليًـا ليسـقط علـى الأرضيّـة الإسمنــتيّة فـيُدقّ عنقـه وينكسـر ظهـره، ويمـوت خـلال دقائـق. أو يندفـع جـلّادٌ مسـرعًا، ثـم يقفـز عاليًـا قبـل أن يحـطَّ بقدميـه علـى ظهـر سـجينٍ مُنبطـح علـى بطنـه فـي الباحة الإسـمنتية ذاتهـا، فـيُقـتَل أيضًـا خـلال دقائـق. هاتان مَروِيَّــتان مـن زميلِ دراسـةٍ مـن مدينـة حمـاه السـوريّة، قضـى ١٢ عامًـا فـي سـجن تدمـر. وأورد مـا يُشـبههما مـن حيـث الــمبادرة والابتـكار مصطفـى خليفـة فـي روايتـه عـن سـجن تدمـر **القوقعـة**،[٤] وفـرج بيرقـدار فـي **خيانـات اللغـة**

---

(٣) اعتمدت على نسخة مقرصنة من الترجمة الإنكليزية.

(٤) دار الآداب، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢.



والصمت،[٥] وبراء السرّاج في **مِن تدمر إلى هارفارد**،[٦] ومعبد الحسون في **قبل حلول الظلام، حين يصير الدم ماء**.[٧]

والوسيط، حين لا يكون التماسُّ الجسديّ مباشرًا، هو أداة التعذيب.

تعرضتُ شخصيًّا وقتَ اعتقالي في أواخر عام ١٩٨٠ لتعذيبٍ غير قاتل، اقتضى جهدًا عضليًّا من الجلّاد. كان يعمل ضدّ الوقت، ويريد الفراغ من مهمّته. لم يكن جسدي مباحًا له تمامًا، وهامش الإبداعيّة ظل ضيقًا: أقحمَ خيزرانةً رفيعة في أنفي وحرَّكها وقت كُنت أتصنَّع الإغماء حتى غرغرتُ بالدم، ودعَس شريكٌ له بحذائه على فمي كيلا أصرُخ، وهذا بينما كنت محشورًا في الدولاب، أجلد ويداي مُقيَّدتان تحت ظهري. الباقي هو الجلد على القدمين في بساط الريح والدولاب، أي التعذيب الروتينيّ، على تناقض هذا التعبير الذي يُضمر أنّ الجلّاد قوةُ تعذيبٍ آليةٌ فحسب، عليها أن تُنتِج الناتج المرغوب: اعتراف المجلود، دون انفعال من قِبَلِ الجلّاد، ودون مساس مُهلِك بتكامل المجلود الجسديّ. لا يكون الأمر كذلك أبدًا، أعني لا يكون التعذيب روتينيًّا مجردًا من الانفعال الشخصيّ، لكنّ مستوى الروتينية في جَلدنا، نحن معتقلي الدولة الأسديّة اليسارِيِّين، كان أعلى من مُعدَّلها في جلد الإسلاميين.

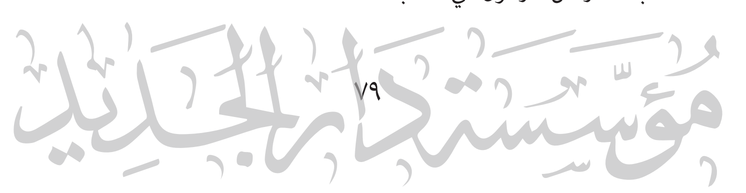
كان مستوى الإبداعيّة بالعكس تمامًا، أعلى في التعامل مع الإسلاميين. عمومًا يبدو أنّ مساحة الإبداعيّة تتناسب طردًا مع

---

(٥) الكتاب صادر عن دار الجديد في بيروت، ٢٠١٢.

(٦) الكتاب متاح على www.foulabook.com

(٧) الكتاب صادر عن دار نون في عنتاب ٢٠١٩.



إباحة أجساد الـمعتقلين للجلّادين، أي مع حريّة الجلّاد في التعامل مع جسد الـمُعذَّب، لذلك كانت أوسعَ في التعامل مع أجساد الإسلاميين. كان الوصول إلى السَّقف، أعني قتل الـمعتقل الإسلاميّ تحت التعذيب، متاحًا وآمنًا (بالـمقابل، قُتِلَ منا نحن اليساريّون آحاد تحت التعذيب).

والخلاصة أن السُّنَّة التدمريّة تقوم على الإبداع في التعذيب. فإذا وضعنا في بالنا أنّ مفهومَيِ السُّنة والإبداع نقيضان، وجب أن يُسجَّل للأسديّة التي لم تُبدع في شيء آخر أنّها جعلت الإبداع سُنة، وتشكَّلت هي بالذات في سُنّة تعذيب، قد لا تُذكَر في التاريخ بغيرها.

•

أنظمة القتل يشترك نظامَا القتل الجماعيّ الأسديّ والنازيّ في نطاقهما الواسع، لكنّ مستوى العَقلَنة أعلى بكثير في الـمعسكرات النازيّة. هنا ثمّة صناعةٌ كبيرة من حيث التنظيم، ومن حيث الإنتاجيّة، والـمُنتِجون الـمباشرون فيها، قوّات الصاعقة النازيّة، مُنفصِلون عن أدوات إنتاج الـموت، لا يملكونها، على ما يقتضي نمط الإنتاج الرأسماليّ. لكنّهم ليسوا بروليتاريا تُنتِج القتل لتعيش، إنهم إدارِيُّو صناعة القتل، بالأحرى، الذين يُشرفون على تقسيم العمل بين الـمعتقلين النافعين اقتصاديًّا، وعلى تنظيم قتل غير النافعين من أطفالٍ ومرضى.

لا تصلح كلمة جلّاد لوصف مُنتِج الـموت النازيّ، لأنّه عنصر في نظامٍ صناعيٍّ للقتل لا يترك له هامشَ مبادرةٍ واسعًا. أما القتل الأسديّ فيُمكن اعتباره صناعة من حيث الإنتاجية، أعني عددَ الـمقتولين، لكنّه متواضع من حيث التنظيم الداخليّ ومستوى العَقلَنة، ونمط إنتاج الـموت فيه من صنف الـمانيفاكتورات، الإنتاج



الحرفـيّ الـمُتــدنِّي التنظيـم والقائـم علـى تقسـيم عمـل بسـيط. كان تعبيـر صناعـيٍّ قـد راج فـي وسـائل إعـلام غربيّـة (قـد تكـون الغارديـان البريطانيّـة أوّل مـن اسـتخدمه وقتهـا)[٨] فـي وصـف القتـل الأسـديّ بعـد تقريـر سـيزار، لكـن يبـدو أنّ الأمـر بحاجـةٍ إلـى اسـتدراك. يُمكـن الـكلام عـن صناعـة قتـلٍ أسـديّة مـن وجهيـن. مـن حيـث إنتاجيتهـا العاليـة نسـبيًّا، ثـم مـن حيث كـون هـذه الصناعـة مُنظَّمـة بحـرص، يُشـارك فـي حضـور حفلاتهـا مَندوبـو أجهـزةٍ أمنيّـة متنوّعـة حسـب تقريـر منظّمـة العفـو الدوليّـة، ثـم مـن حيـث درجـةٍ مـن العَقــلَنة، أعنـي توثيـق القتلى وترقيمهـم علـى مـا رأينـا فـي صـور تقريـر قيصـر، ومـا يُحتمـل أنـه تقديـم تقاريـر حـول الإنتاجيّـة إلـى جهـةٍ عليـا.

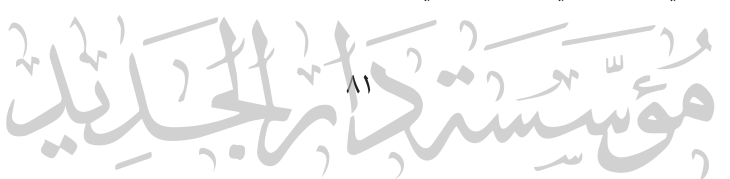
لكــنّ القتــل الأســدي قتــلٌ دون صناعــي مــن حيــث وســائل إنتاجــه: التعذيـب والـمَشنقة. وهـذان يقـتلان أفـرادًا، قـد يبلغ عددهم خمسـين كلّ دفعـة حسـب تقريـر منظّمـة العفـو، الـمَبني على شـهادات معتقلين سـابقين وعناصـر شـرطة عسـكريّة وقضـاة مُنشـقّين. وحتّـى إن أضفنـا ضحايـا الجـوع والـمرض فـي الـمعتقلات الأسـديّة، يبقـى القتـل غيـر مُمَكْنَــن، إن جـاز التعبيـر، كمـا فـي أفـران الغـاز النازيّـة. والخلاصـة أن نصيـب العلـم والتكنولوجيـا الـمتطورة فـي صناعـة القتـل الأسـدية متواضـعٌ خلافًـا لشـقيقتها النازيّـة. ومـن أجـل قتـل سـتة ملاييـن سـوريّ، العـدد الـذي ربمـا قتلـه النازيّـون مـن اليهـود، يلزمهـا ثـورةٌ تكنولوجيّـة وتَجـاوز نظـام الـمانيفاكــتورة.

---

(٨) انـظر مقالة يان بليك:

Ian Black, Syrian regime document trove shows evidence of 'industrial scale' killing of detainees.

الـمنشورة في **الغارديان** في 21 كانون الثاني 2014 والـمتاحة على موقع الصحيفة.



ورغـم أن ضحايـا النازيّـة لـم يُقتـصروا علـى مَـن جرى شَيُّـهم فـي أفران الغـاز، بـل تشـمل كثيريـن ماتـوا مـن الجـوع والـمرض فـي معسـكرات الاعتقـال، أو مَـن جـرى قتلهـم بالرصـاص فـي مَرحـة الجيـوش النازيـة الغازيـة،[٩] فـإنّ لنِظـام العمـل والقتـل النازِيِّيـن طابعًـا جماعيًّـا، يحِـدُّ هـو الآخـر مـن هامـش إبداعيّـة الجـلّاد. فـي مـا أُسـمِّيه السـجون الباطنـة فـي «سـوريا الأسـد»، مثـل تدمـر فـي سـنوات الأب وصيدنايـا فـي زمـن الابـن، والـمقرّات الأمنيّـة فـي كلّ وقـت، التعذيـبُ جمعـيّ، لكنّ أسـوأه ما يطـال أفـرادًا، مثـل مَـن كان يجـري «تعليمهـم» فـي تدمـر لسـببٍ مـا أو دون سـبب، أي إفرادهـم عـن غيرهـم بعقـاب لا «تسـعيرة» مُحـدَّدة لـه. ومرجـع الأمـر إلـى مـزاج الجـلّاد وتفضيلـه الشـخصي. علـى أنّ النظـام مُصمَّـم مـن فـوق بحيـث يُتيـح له هـذه الـمساحة الواسـعة مـن الحريّة.

والتواضـع التكنولوجـيّ لنَمـط الـموت الأسـدي هـو سـبب اقتضائـه للجهـد العضلـيّ والتمـاسِّ الجسـديّ، وهـو مـا يشـرح هامـش الحرّيّـة الأوسـع لحِرَفِيِّـي الـموت الأسـديين، إذ يتعـذَّر عليهـم إنتـاج الحجـم الـمطلوب مـن الـموت دون أن تُبـاح لهـم أجسـاد الـمعتقلين ويحـوزوا حرّيّـةً تامّـة حيالهـا. ومـن هنـا «التقـوى» فـي عملهـم. ومـن هنـا كذلـك ضعـف صلاحيّـة مفهـوم الشـرّ الـمبتذل لتعريـف شَـرِّهم.

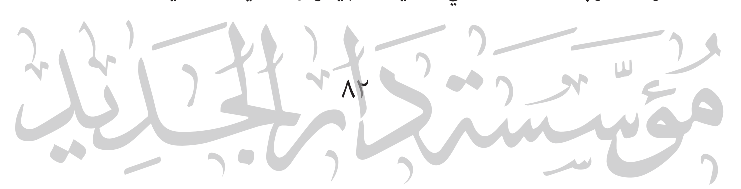
ومـن هنـا، كذلـك، اسـتحقاق حِرَفِيِّـي الـموت هـؤلاء صفة الجـلّاد خلافًا لنظرائهـم النازيين.

---

(٩) ينظر من أجل «هولوكوست الرصاص» كتاب كرستوفر براونغ

Christopher Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland*, Penguin Books, 1998.

والكتـاب يتنـاول تصفيـة اليهـود بالرّصـاص مـن قِبَـلِ كتيبـة شـرطة احتياطيّـة تشكّـلت ممَّن تجـاوزوا سـن الحـرب، وعملـت فـي خلفيّـة الجيـوش النازيّـة الغازيّـة.



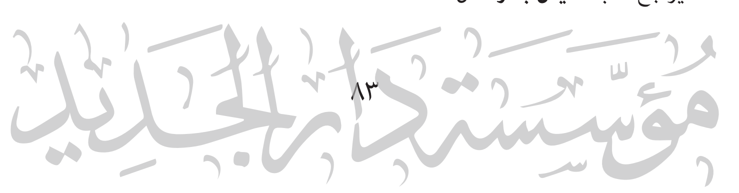
الجـلّاد هنـا هـو صبـيُّ الحِرفـة، لا يملـك وسـائل إنتاجـه، ولا يأخـذ الـدولاب أو بسـاط الريـح أو الكبـل الرباعـي معـه إلـى البيـت. والتماهـي بـالـمعلّم (لقـب حافـظ الأسـد، وقـادة فـروع الأمـن، وكذلـك لقـب قـادة الشَّـبيحة) يُسـهِّل للصبيـان التحمُّـس للقتـل إرضـاءً لـه. التنظيـم الاجتماعـيّ السياسـيّ لحِرفـة القتـل، وللطائفيّـة كذلـك دورٌ حاسِـم فيـه، يُقنـع حِرَفِيِّـي القتـل بـأن أدوات القتـل ونظامـه العـام، الدولـة الأسـدية، مِلكهـم.

والقصـد أنّ الفـارق الجوهـري بيـن نـمطَي القتـل الأسـديّ والنـازيّ يُحيل إلـى نـمطَين مـن إنتـاج الـموت وتنظيمـه الاجتماعـيّ. القتـلُ النـازيّ رأسـماليٌّ كمـا سـبقت الإشـارة، يسـتنفد قـوّة العمـل لـدى الـمعتقلين قبـل أن يَشـويهم، ويُبـادر إلـى التخلّـص ممـن لا يُسـتفاد منهـم مـن أطفـال ومرضـى وعاجزيـن. صحيحٌ أنـه يقتـل اليهـود لأنهـم يهـود، لكنّـه رغـم ذلـك يسـتغلّ القادريـن منهـم علـى العمـل إلـى النهايـة، وإن لـم يكـن يُبالـي بإعـادة إنتـاج قـوّة عملهـم. يُشـير ليفـي فـي كتابـه إلـى أنّـه كان ينتمـي إلـى فئـة «اليهـود النافعيـن اقتصاديًّـا»، وهـو بقـي علـى قيـد الحيـاة إلـى وقـت سـقوط النازيّـة لأنّـه كان مـن هـذه الفئـة. لـو انهـار فـي أي وقـت، لـو تحـوَّل إلـى «مُسُلـمان»(١٠) لجـرى انتخابـه إلـى أفـران الغـاز.

هنـاك حـدودٌ لعَقلانيّـة نظـام القتـل النـازيّ، تتمثّـل فـي اللامبـالاة بإعـادة إنتـاج قـوّة عمـل الـمعتقلين، وقبـل ذلـك فـي عنصريّة مُعـاداة السـاميّة، الـمثابرة علـى «الحـلّ النهائـيّ» حتّـى حيـن أخَـذ يسـتهلك مـوارد علـى حسـاب الجهـد الحربـيّ للنظـام النـازيّ بعـد عـام ١٩٤٢. أمّـا نظـام القتـل

---

(١٠) يراجع كتابه: **أليسَ بشرًا؟** ص. ٤٦.



الأسـديّ فمُرتبـط بالاقتصـاد الرّيـعيّ للسَّـلطنة الأسـديّة، الـذي يقـوم على خَصخصـة الدولـة واسـتباحة الــموارد العامّـة، أي علـى أنّ الدولـة هـي بئـر البتـرول الـذي لا تنضـب عوائـده، وهـو مـا يُتيـح للدولـة الأسـديّة أن تسـتقلّ عـن مَحكوميهـا اسـتقلالًا واسـعًا مثـل كلّ الـدول الريعيّـة، وألا تُفكِّـر فـي السـوريين كأفـرادٍ ومُنتجيـن، وأن تتخلَّـص مـن الثائريـن منهـم، لأنهـم خطِـرون ولا يُنتــفَع منهـم بشـيء.

ويبــدو أن نــمط القتــل الســوفيتيّ، كان أشــد تمركــزًا حــول الإنتــاج مـن نظيـره النـازيّ، علـى مـا يُسـتدلُّ مـن **عالــم علـى حـدة** لليهـوديّ البولونـيّ غوسـتاف هيرلنـغ الـذي كان معتقـلًا هنـاك.(١١) وإن يكن الــمآل الأخيـر لــمن استُنــزِفت قدرتهـم على العمـل وهدَّهم الجوع والــمرض هـو الــمقبرة، وليـس غـرف الغـاز (غالبًـا عبـر حيِّـز وسـيط يقضـي فيـه الــمعتقل أيّامـه أو أسـابيعه الأخيـرة ويسـمى، مَماتـة(١٢)). إلا أنّـه أقـرب إلــى القتـل النـازيّ مـن حيـث تشـغيل السـجناء والاسـتفادة مـن «قـوّة عملهـم». سـجون الغـولاغ السوفـيتيّة (يقـول هيرلنغ إن عدد الــمعتقلين فـي مطلـع أربعينيـات القـرن العشـرين يُقـدَّر بنحـو ٢٠ مليـون معتقـل) هـي معسـكراتُ عمـلٍ إجبـاريّ أو سُـخرة، وهـو مـا يشـير إلـى مركزيـة العمـل والإنتـاج فيهـا. إلّا أنّ القتـل السـوفيِتيَّ يُشـبه القتـل الأسـديّ مـن حيـث إنـه غيـر مُمَكنَـن، وإن الــمعتقلين يموتـون فيهـا بأعـدادٍ كبيـرة، لكـن فُـرادى. والتقابـل الأساسـي بيـن نظامَــيِ القتـل النـازي والسـوفيِتي والنظـام الأسـديّ هـو حلـول التعذيـب فـي سـجون الأسـديين الباطنـة

---

(١١) انـظر:
Gustaw Herling: *A World Apart*, translated by Andrzej Ciolkosz, Penguin Books, 1986.

(١٢) الـمقصود:
Mortuary



محـلّ «الأشـغال الشـاقة» فـي سـجون ومعسـكرات الـروس والألــمان. تُسـاء معاملـة السـجناء بشـدّة عنـد الأخيرَيـن، وهـم جِيـاع غالبًـا، لكـن لا يجـري تعذيـبُ غيـر الــمقاومين. السـجون الباطنـة الأسـدية بالــمقابل تَجمـع بيـن التعذيـب والجـوع.

التــبذيرُ فـي الحيـاة البشـريّة والتصرُّف بهـا بحرّيّـة، مُشـتركٌ بيـن أنظمة القتـل الثلاثـة، لكـن يبـدو النظـام الأسـدي أكثـر شـخصيّةً وأشـدّ امتـلاءً بالكراهيّـة والإذلال.

•

الكراهيــة والطائــفيّة غيـر الاقتصـاد، هنـاك دورٌ سياسـيّ مهـمّ للرابطـة الاجتماعيـة الإيديولوجيّـة. جـلّادو الدولـة الأسـديّة هـم مَـن حـازوا أفضليـةً معلومـة طـوال عقـود فـي التماهـي بهـذه الدولـة واعتبروهـا مِلـكًا لهـم، فصـاروا حُماتهـا الــمُتحمِّسين. الـكلام عـن التماهـي يعنـي الـكلام عـن الحـبّ، فنحـن نتماهـى مع مَـن نُحـبّ ونُجِـلّ، ولا يمكـن أن نتماهـى مـع مَـن لا نحـبّ أو نجـلّ. مَـن نحـب ونجـلّ هـو مثـلنا الأعلى، سـندنا وعزوتنـا، و«قائدنـا إلـى الأبـد» هـو «الأميـن حافـظ الأسـد» (أو هـو «سـيدنا محمـد» عنـد «الأسـلاميين»).[١٣] نفعـل كلّ شـيء مـن أجـل القائـد الأبـديّ، نُعـذِّب مـن أجلـه ونقتـل مـن أجلـه. التماهـي يعنـي أنّ مـا يُريـده مَـن نتماهـى بـه هـو شـيء نَستَـبطِنُه نحـن ونريـده شـخصيًّا،

(١٣) حـول «الأسـلاميين»، تراجـع مقالتـي: «صـورة، عَلـمان وراية، مقاربـة اجتماعيّـة رمزيّـة لتفاعـل وصـراع أربـع سـوريات»، ضِمـن كتـاب **الثـورة الــمستحيلة: الثـورة، الحـرب الأهليّـة والحـرب العامّـة فـي سـوريا**، الــمؤسسة العربيـة للدراسـات والنشـر، بيـروت، ٢٠١٧. ص ١٥٩ ـ ١٧٤. الأسـلاميّون هـم مَـن أحلّـوا كلــمة «الأسـلام»، (حتـى إنهـم لـم يبدلـوا موقـع الهمـزة)، محـل الأسـد فـي شـعارات أسـدية مـن نـوع «الأسـد أو لا أحـد» أو «الأسـد أو نحـرق البلـد»، فصـارت «الأسـلام أو لا أحـد»، أي هـم أسـديو الإسـلاميّة.



أنّ «مَرضاتـه» هـي رضانـا أيضًـا، نحـن الـمؤمنين بـه، وأنّنـا نتفانـى فـي خدمتــه ونُضحِّــي بأنفســنا مــن أجلــه. وموضــوع التماهــي شــخصيّ، وهـو فـي الحقبـة الأسـديّة الأولـى حافـظ الأسـد، واليـوم بشّـار (بحكـم الــموقع والوراثـة ربمـا، وليـس بحكـم الشـخص). جـلّادو الدولـة الأسـديّة الأشـدّ ضـراوةً والأقـوى عـداءً لـمُعارضيها هـم الأقـوى حبًّـا وإجـلالًا لهـا، وتفانيًـا فـي خدمتهـا بوصفهـا دولـة أسـديّة، وليـس بوصفهـا «سـوريا» أو «الوطــن» أو «الدولــة»... وإن كانــت إيديولوجيّــة الأســديين تقــوم علـى اسـتغلال هـذا الالتبـاس لـمصلحتهم. هـذا مهـمٌّ مـن وجهـة نظـر الــمسؤوليّة القانونيّـة: نظـام القتـل فـي الحقبـة الأسـديّة مُرتبـطٌ بالـولاء لشـخص، علـى نحـوٍ يجعـل هـذا الشـخص مسـؤولًا مباشـرة عـن كلّ قتـلٍ وتعذيـب مُـورس فـي عهـده. وهـذا علـى نحـوٍ يُسـوِّغ القـول إن حافـظ، ثـم بشّـار همـا شـخصيًّا منبـع الشـر فـي نظامهمـا، أو إنّ شـرّ النظـام مُتــركِّز في رأســه.

فـإذا كان الجـلّادون الأسـديّون يفتِكـون بالــمعتقلين بــغِلٍّ شـخصيٍّ، فلأنّ العلاقـة بينهـم هـي علاقـة تـنـافٍ، العلاقـة بالعـدو ومـا يرتبـط بهـا مـن انفعــالات الكراهيّــة والرغبــة بــالإذلال والقتــل. نصــون هويّتنــا ونظــام تماهينــا بنَفــي العــدوّ وإفنائــه. وحيــن يصــل التماهــي ذروةَ الالتحــام بالــمُتماهَى بـه، «الفنـاء» بلغـة الصوفيّـة، يبلـغ أيضًـا أقصـى حـدٍّ مـن إرادة إفنـاء مَـن تجمعنـا بـه علاقـة تنـافٍ: الإبـادة. أفـق الإبـادة تُكـثِّــفه شـعارات مـن نـوع «الأسـد أو لا أحـد»، «الأسـد أو نحـرق البلـد». وهـي تُكـثِّــف الرغبـة بقتـل الجميـع إن كان للأسـد، وهـو موضـع التماهــي وسـند الهويـة، أن يَـبيــد.

تتميَّــز الــمعسكرات الأسـديّة عـن النازيّـة والسـوفيتية بمـا يتولَّـد عـن الكراهيــة الشــخصيّة مــن نــازعٍ قــويٍّ نحــو الإذلال الشــخصي. بحــدود مـا أُتيـح لـي مـن اطِّـلاعٍ علـى أحـوال معسـكرات النازييـن والسـوفيِت،



لـم يكـن هنـاك اغتصـابٌ إذلالـي للسـجناء، الرجـال والنسـاء، وللأطفـال. بالعكـس، النظريّـة العنصريّـة للنازييـن قضَـت بتحريـم العلاقـة الجنسـيّة مـع اليهـود، وكذلـك البولونيّيـن وغيرهـم مـن الشـعوب الأدنـى مرتبـة، ويبـدو أن انتهـاكات هـذا التحريـم كانـت محدودة. في السـجون الأسـديّة مَرويـاتُ الاغتصـاب مُتكـرِّرة جـدًّا فـي سـنوات الثـورة. ورغبـة التوسُّـع فـي الإذلال تدفـع الجلّاديـن إلـى إجبـار معتقليـن علـى انتهـاك بعضهـم جنسـيًّا، مثلــما ورد فـي تقريـر منظّمـة العفـو. إجبـار الــمعتقلين علـى صفـع بعضهـم يُحرِّكـه أيضًـا مـا يُحـرِّك الاغتصـاب مـن توسّـعٍ فـي الإذلال وتحطيـم الــمجتمع. يجـب أن يَكـره الــمعتقلون أنفسـهم وبعضهـم.

كمصـدر طاقـةٍ يُغـذّي تماهِيـاتٍ وتنافِيـاتٍ نَشـطة، تُوفِّر الطائفيّـة مقادير كبيـرة مـن الـولاء دون مقابـل، أو بمقابـل قليـل، ومـع الـولاء اسـتعدادٌ كبيـر لـلإذلال والقتـل دون عواقـب. وهــي بهـذا الــمعنى اقتصاديّـة أو قليلـة الكلفـة سياسـيًّا، ولهـا مفعـولٌ ريعــيٌّ كمناجـم لاسـتخراج الـولاء الرخيــص، مثــل امتــلاك الدولــة. الطائفيّــة مُضــادّة لعَقلَنــة السياســة والنظـام الاجتماعـي بهـذا الــمعنى، علـى نحـو مـا هـو الريـع النِّفطـي مُضـادّ للعَقلَنـة الاجتماعيّـة والسياسـيّة فـي بلـدان البتـرول.

ومـا يرتبـط بالتماهـي مـن كراهيّــةٍ هـو مـن التجـارب الأكثـر صدمًـا للــمعتقل وهـو بيـن أيـدي الجلّاديـن الأسـديّين. لسـنا هنـا بعيديـن عـن التجـرُّد والروتينيّـة فقـط، وإنّمـا نحـن مُتورِّطـون فـي علاقـة عـداءٍ شـخصيٍّ مباشـر كأنّـك اعتديـتَ علـى هـذا الجـلّاد بالـذات، كأنــما هـو ينتــقم منك ردًّا علـى عـدوان شـخصيّ بـادرتَ إليـه. هــذا أيضًـا يُحيـل إلـى درجـةٍ متقدّمـة مـن التماهـي بالنظـام أو عشـقه، تُسـهِّل منـه علاقـات القُربـى (الدمويّـة أو الــمُتخيَّلة)، بمـا يــجعل مـن معارضـة الدولـة الأسديّــة عــدوانًا علـى مُحبِّيهـا والــمتماهين بهـا. كارهـو الــمعتقلين هـم مُحِبُّـو



حافـظ الأسـد وبشـار الأسـد وأتباعهـم الأوفيـاء. كان حافـظ شـخصيًّا قـد سـوَّغ اعتقـال سـجينٍ يسـاريّ، تمكَّنـت عروسـه مـن الوصـول إليـه، بالقول: إذا حـدا يقلـك زيـح لأقعـد محلـك، شـو بتعمـل؟ (الــمعتقل أُحيـل بعـد ١٢ عامًـا مـن اعتقالـه إلـى محكمـة أمـن الدولـة العليـا بدمشـق، ونـال حكمًـا بــ١٥ عامًـا، أتمَّهـا قبـل أن يُخلَـى سـبيله؛ كانـت العـروس هجرتـه قبـل سـنوات). الجـلّادون يَكرهـون الــمعتقلين لأن الأسـد الـذي يُحبّونـه يكرههـم.

الكراهيــةُ أحــد أوجــه علاقــة التنافــي، بقــدر مــا الحــبّ أحــد أوجــه التماهــي. ومَــن يجـري التَّــفظِيع بهـم هـم علـى نحـوٍ خـاصٍّ مـن الــمكروهين الطائفيّيــن، علـى نحـو مـا أخـذَت تُعرِّفهـم دولـة الأسـديّين، وبخاصّـة مَـن نازعوهـا احتـكار السـلاح، وعملـوا علـى أن «يُـزاح» حافـظ كـي «يقعـدوا محلّـه»: الإسـلاميّون. ولذلـك أيضًـا فـإنّ التعذيب الــمستمر ّوالقتـل يَجريـان فـي السـجون الباطنـة للدولـة الأسـديّة مثـل تدمـر فـي زمـن الأب وصيدنايـا فـي زمـن الابـن، وليـس فـي السـجون الظاهـرة. السـجون الباطنــة هــي سـجون التقابـل الطائفــيّ الأشـد حِـدَّة بيــن السـجناء والسـجّانين، بينــما السـجون الظاهـرة مثـل عـدرا قـرب دمشـق والـمسلــميّة فـي حلـب، وصيدنايـا نفسـه فـي زمـن الأب، فهـي السـجون السـوريا العامــة التــي لا يــكاد يختلـف تركيـب سُـجنائها عـن تركيـب سَـجّانيها الــمُختلط، وفيهـا قضـى معظـم سـنواتهم مُعتــقلو النظـام غيـر الإسـلاميّين، ومنهـم كاتـب هـذه السـطور. السـجون الظاهـرة هـذه تقابل الدولـة الظاهـرة التـي تعـرض وجهًـا عامًّـا، عابـرًا للجماعـات الأهليّـة.

السِّـجن الباطـن هـو معسـكر اعتقـالٍ وتعذيـب علـى كلّ حـال، وليـس سـجنًا بالــمعنى الــمتعارف عليـه للكلــمة. ونُــزلاؤه مُغيَّبـون قسـريًّا، وليسـوا سـجناء. وقـد يقضـي الواحـد منهـم سـنواتٍ تصـل إلـى عشـرين



عامًا ولا يعرف أهله عنه شيئًا، وقد لا يعرفون أنه مات إلا بعد سنوات طويلة عن طريق أحد الناجين من الـمعسكر.

أفتحُ قوسًا هنا للقول إن تقريرًا لهيومان رايتس ووتش (مرصد حقوق الإنسان) صدَر في أواخر عام ٢٠١١ يتكلّم عن إعادة استخدام سجن تدمر، وعلى أنّ عدد الـمعتقلين فيه نحو ٢٥٠٠.[١٤] هنا ثمّة فجوة في الـمعلومات، فلا نعلم ماذا كان نظام سجن تدمر عند إعادة استخدامه، وهل كانت تجري فيه عمليّات إعدام، ومتى أُخلي قبل الاستيلاء الأول لداعش على الـمدينة. أُغلِقُ القوس.

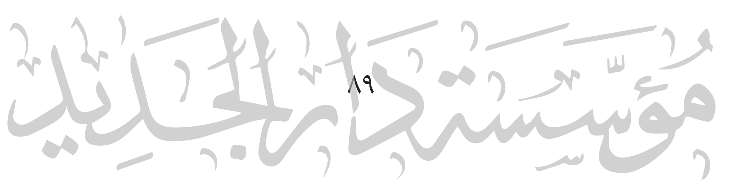
عبر ثُنائيّة السجون الظاهرة والسجون الباطنة تَنسخ الدولة الأسدية بِنيتها الأساسيّة، أعني التمايُز بين دولةٍ ظاهرة ودولةٍ باطنة، على نحو ما كنتُ ناقشتُه بشيء من التفصيل في «السلطان الحديث».[١٥] الباطن والظاهر يتأسَّسان هنا أصلًا، في التلاحم الأمنيّ الطائفيّ الـمحجوب وراء الدولة العامّة الظاهرة.

•

الـمُركَّب الطائفيّ/العُنصريّ فإذا وضعنا في البال أن الطائفيّة تتحرّك على مستوى الدولة الباطنة ورموزها غير الـمُعلنة وخطابها غير العام الذي يعتمد الإيماءات غير الـمباشرة والتلـميحات غير الصريحة، ساعدَنا ذلك على فهم اقترانها بأشدِّ العنف والـموت والوحشيّة في مثل سجن تدمر أيام الأب وصيدنايا أيام الابن. وساعدَنا أكثر على فهم تقدُّم القدرات الإباديّة للدولة الأسدية بين

(١٤) التقرير بعنوان: «بأيّ طريقة، مسؤوليّة الأفراد والقيادة عن الجرائم ضدّ الإنسانيّة في سوريا»، وهو متاح على موقع الـمنظمة.

(١٥) ينظر الفصل الأول من كتاب **السلطان الحديث** الـمحال إليه سابقا؛ ص ٢٧ ـ ٩٥.



الزمنَيــن الأســديَّين.

بيـد أنّنـا مُحتاجـون أولًا إلـى وقفـةٍ أمـام مفهـوم الطائفيّـة. يبـدو لـي أنّ الــمفهوم، وفـي سـياق الــمسارات الــمُتشعِّبة للثـورة السـوريّة، لــم يعد وافيًـا بمطلــب الإحاطــة بجملــة الوقائـع والعلاقـات والعمليّـات التـي لا نـزال نُدرجهـا تحتـه منـذ ثمانينيـات القـرن العشـرين. فــمِن حيـث دلالتـه اللغويّـة فإنهـا تُحيـل إلـى الجـزء مـن الشـيء أو القِطعـة منـه، أو إلـى العـدد الــمحدود (بيـن واحـد وألـف حسـب «لسـان العـرب»، والإسـلاميّون يستــنِدون حصـرًا إلـى الدلالـة اللغويّـة للــمفهوم لنَفـي صفــة الطائفــة عــن الــمسلــمين السُّــنيين)، أمّــا مــن حيــث الدلالــة الاصطلاحيّـة الــمعاصرة لــمفهوم الطائفـة والطوائـف، فــهي تُحيـل إلـى الجماعـات الدينيّـة والــمذهبيّة فـي مجتمـعٍ مُعيَّـن مَنظـورًا إليهـا كجـزء مـن هـذا الــمجتمع، يتفـوَّق ارتباطُهـا الــمشترك بهـا علـى الفروقـات في مـا بينهـا، أو حتّـى مـن حيـث تصـوراتٍ نظريّـة أكثـر تركيبًـا تكشـف وسـاطة الدولـة والسياسـة فـي تشـكُّل الطوائـف مـن وراء التمايـزات الدينيّــة الــمذهبيّة، بحيـث نـرى أنّ الطائفيّـة فـي الدولـة والسياسـة هــي مــا تــؤدّي إلــى تشــكُّل الطوائــف خلافًــا للانطبــاع الشــائع.[١٦]

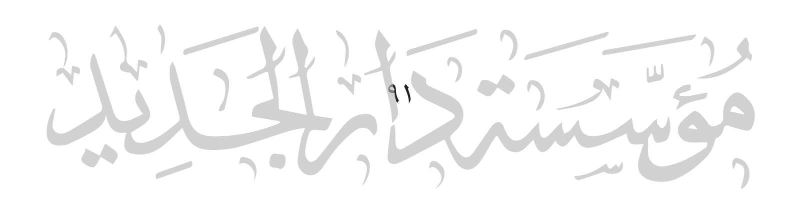
فـي كلّ صُـوَره يبـدو الــمفهوم غيـر كافٍ اليـوم. الأمـر لا يقتــصر علـى الربـط بيـن تمايـزاتٍ أهليّـة اعتباطيّـة وبيـن وقائـع الامتيـاز الاجتماعـيّ والسـيطرة السياسـيّة علـى نحـو يُصلِّـب الفـوارق بيـن الجماعـات فيَصنـع منهـا طوائــف، بــل يتعــدَّاه إلــى تأسـيس نظـامٍ تراتُــبيّ مــن التمييــز والاســتحقاق، يرفـع البعـض فـوق غيرهــم درجـاتٍ علـى نحـو يُسـهِّل أمـر إبـادة مُنخفِضـي الدرجـات، مـع تطويـر هـذا النظـام عقائـد وثقافـة

(١٦) تناولـت هـذه القضيـة فـي: «صناعـة الطوائـف، أو الطائفيّة كاسـتراتيجيّة سـيطرة سياسـيّة»، ينظـر الفصـل الرابـع مـن كتـاب **السـلطان الحديـث**، ص ١١٩ـ ١٣٥.



تُسوِّغ التفاوت الجوهريّ. مفهوم الطائفيّة أضعف من أن يَستوعب هذا الميل المُتنامي، ويبدو مفهوم العنصريّة أصلح لاستيعاب هذا التطور. لـمُدرَك العنصريّة ميزةٌ مهمّة، تتصل بما يتضمَّنه من اتجاهٍ إلى الفصل بين العناصر ومن تراتُبٍ ورفعةِ شأن، فيندرج فيه بهذا المعنى بُعدٌ «طبقيّ»، يُضاف إلى بُعدِ الاختلاف الأهلي، وبُعدٌ ثقافيّ نفسيّ، يُجَوهِرُ أو «يُعَنصِرُ» المراتب الناشئة ويرفع حواجز بين عالـمَين. «سوريا الأسد» أنجزتْ خلال جيلَين تحوُّل الطائفيّة من «نعراتٍ» موروثة من الماضي إلى آليةٍ أساسيّة من آليات عمل السلطة العامة وإعادة إنتاجها، إلى نظامِ تمييزٍ عنصري. وهذا مسارٌ قطعناه عبر حربَين كبيرتَين باهظتَيِ الكلفة، خرجنا بمُحصِّلتهما من الصراع السياسي إلى الحرب، ومن الحرب إلى الإبادة. الإبادةُ مكتوبةٌ في العنصريّة.

تطوَّرت الطائفيّة باتجاه العنصريّة باقترانٍ مع واقعتَين خلال جيلَين من الحكم الأسديّ: توريث السلطة، وما تضمَّنه من تأسيس سلالةٍ ملوكية أرستقراطيّة، ثمّ التحوّل الاقتصاديّ في عهد بشّار، على نحوٍ أغنى الأقربَ إلى مراكز السلطة وأفقر وهمَّش مَن لا تتوفّر لهم شبكاتُ محسوبيّةٍ فاعلة، وهذا في بلدٍ تدهوَر مستوى القضاء والبيروقراطيّة فيه على نحوٍ مُطّرد خلال أربعين عامًا. جوهرُ التحوّل في زمن بشار هو استيلاء مَحظِيِّي الدولة الأسديّة على الاقتصاد الوطنيّ والموارد العامّة، وتحوُّل سوريا إلى حكم الأثرياء. وتحقَّقتْ قفزةٌ في التقدم نحو العنصريّة أثناء سنوات الثورة بفِعل انخراطِ آلة السلطة العامّة التي يُديرها أثرياء في ممارساتٍ إبادية



واسعة النطاق. أثناء ذلك استطاع بشّار الأسد أن يتكلّم على تحسُّن في النسيج الاجتماعيّ بعد قتل مئات الألوف وتهجير الملايين من مَحكوميه،[١٧] وذهب محفوفًا ببعض أزلام نظامه إلى داريّا التي هجَّر سُكانها عن بكرة أبيهم، فيما لا يمكن فهمه إلا كاحتفالٍ بالنصر.[١٨] وتُحقّق العنصريّة تقدّمًا أكبر إلى الأمام بفضل أسلَمة الإرهاب وما ينطوي عليه تصوّر «الحرب ضدّ الإرهاب» من كوامن إسلاموفوبيّة، وما تُوفّره من عمقٍ استراتيجيّ دوليّ لعلاقات التماهي والتنافي ضمن النطاق المحليّ السوريّ. عبر «الحرب ضد الإرهاب» والسكوت على الممارسات الإباديّة طوال ست سنوات، كان النظام الدوليّ سندًا للتحوّل العنصريّ في سوريا.

ما قد يُثير التحفُّظ في مفهوم العنصريّة هو أنّ الأمر لا يتعلّق بـ«عناصر»، بِبيض وسود وصفر وسمر، أو ببيض و«مُلوَّنين»... الفوارق بينهم ظاهرة. لكن عدا ما أُشير إليه للتو من «عَنصَرة» فوارق غير ظاهرة، يجري تثبيتها بالثقافة وحراسة ثَباتها بالقوّة، وبعناصر تماهٍ ظاهرة تستثمر الجسد البشريّ كحاملٍ أساسي للرموز، وبخاصّة أجساد النساء، فإنّ العنصريّة المعاصرة في كلّ مكان تنزاح من مجال «العرق» واللون والإثنيّة إلى مجال الثقافة والدين وأنماط الحياة.

وعلى كلّ حال، أُفضِّل استخدام تعبير المُركَّب الطائفيّ-العنصريّ للدلالة على الشكل الخاصّ من العنصريّة المُتولِّد من شحن

---

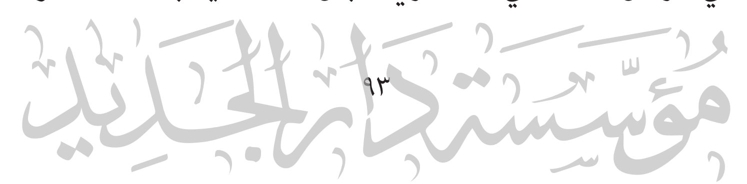
(١٧) كلام بشّار عن «ربح مجتمع أكثر صحّة وأكثر تجانسًا بالمعنى الحقيقي» متاح هنا: https://www.youtube.com/watch?v=MCCD8erT6e4

(١٨) جرت الزيارة في أيلول ٢٠١٦. انظر: «الأسد يهجّر أهالي داريّا... ويصلّي العيد فيها»، **العربي الجديد**، ١٢ أيلول ٢٠١٦.



التمييـز الطائفـيّ بتراتُـبٍ اجتماعـيّ وامتيـازٍ سياسـيّ ثقافـيّ، أو للدلالـة علـى تطـور هـذه الطائفيّـة فـي اتجاهـاتٍ أكثـر تصلّبًـا وأقـرب للتمييـز العنصـريّ. ينفــتح مفهـوم الطائفيّ-العنصـريّ علـى تاريخِيَّـة تحـولات النظـام الطائفـيّ، وعلـى تاريخيّـة مفهـوم الطائفيّـة ذاتـه فـي سـياق يقتـرب مـن نصـف قـرن مـن الدولـة الأسـديّة. ومـن وجـهٍ آخـر يُشـير الــمفهوم إلـى تحـوّلٍ مرغـوب فـي دراسـة ظواهـر مُماثلـة لهـذه التـي نتناولهـا هنـا مـن مجـال نظريّـة الدولـة الوطنيـة والتنظيـم السياسـيّ القائـم علـى الاندمـاج والتجانـس، والنـــزَّاع إلـى كَبـت التفكيـر فـي الطائفيّـة والــمشكلات السياسـيّة الــمرتبطة بالتمايُـزات الثقافيّـة، إلـى مجـال النظريّـة الاجتماعيّـة والتفكيـر فـي حـركات التحـرّر والانعتـاق الاجتماعـيّ ومقاومـة التمييـز. لقـد أمسـى الإطـار النظـريّ التقليـديّ للتفكيـر فـي الطائفيّـة عائقًـا علـى مسـتوى الــمعرفة، ومصـدرًا للغـشّ والتـكاذب فـي النقـاش السياسـي، وعقبـةً كـؤودًا أمـام أي عمـل سياسـيّ تحـرُّريّ. مفهـوم الطائــفيّ-العنصريّ يمكـن لـه بالــمقابل أن يُحفِّـز على نقلـةٍ فـي تفكيرنـا الاجتماعـيّ والسياسـيّ، كمـا يُحـرِّض علـى الثـورة ضـد الامتيـازات الاجتماعيّـة والسياسـيّة. الــمطلوب والحيـويُّ جـدًّا هـو الثـورة ضـدّ العنصريّـة وتمزيـق أقنعتهـا، وليـس الــمُضِي إلـى مـا لا نهايـة فـي تبـادل الاتهامـات بالطائفيّـة والتبـرؤ منهـا.

وقبـل هـذا وذاك، يُوفِّـر الــمفهوم شـرحًا للتَّــدمَرة الشـاملة ومـا حقَّقــته الأسـديّة مـن تقـدمٍ فـي مجـال الإبـادة. فـي عهـد حافـظ يمكـن التكلّـم علـى إبـادةٍ علـى نطـاق محـدود، فـي سـجن تدمـر وفـي حمـاه ١٩٨٢. الإبـادة هـي القاعـدة العامّـة فـي عهـد بشـار، وهـي مـا تُسـوِّغ الـكلام علـى التَّدمَـرة. فـي الزمـن الطائفـيّ لـلأب كان الضحايـا بعشـرات الألـوف، أمـا فـي الزمـن الطائــفيّ-العنصريّ للابـن، فالضحايـا بمئـات الألـوف.



فـي إطـار هـذا الاسـتعداد الطائــفيّ-العنصريّ، تَحـوز السـلفية الجهاديـة ميــزةَ تكــيُّفٍ تفاضليّـة، مـن حيـث إن ميلهـا الطبيعـيّ يتمثَّـل فـي رفـع الفـارق العقـدي إلـى مرتبـة جنـسٍ اجتماعـيّ مختلـف نوعيًّـا، أو الطائفـة إلـى عنصـر، وإن جـرى توسُّـل مفهـوم «الأمّـة» كاسـمٍ لطائفـة السـلفيّين (والإسـلاميّين، ودومًـا مـع مصـادرة تمثيـل الإسـلاميّين للـمُسلــمين دون إشـكال). أبيـضُ السـلفية وأسـودُها همـا مُسـلِمها ولا مُسـلِمها، مـع ولاء مُسـلِمها وبرائـه الـذي يُضيِّـق نطـاق الإسـلام الصحيـح إلـى أقصـى حـد، ويُوجـب كراهيـة غيـر الـمسلـمين الصحيحين ومَن سـواهم. هـذه الأهلِيّة الذاتيّـة العريقـة تُلقـي بعـضَ ضـوءٍ علـى انتشـار السـلفيّة الجهاديّـة فـي البيئـة السـوريّة اليـوم، وقـد كانـت تَشـهد منـذ مـا قبـل الثـورة بسـنواتٍ التحـوّلَ التدريجـيّ نحـو الــمُركَّب الطائــفيّ-العنصريّ. منهـج السـلفيّة التكفيــريّ لا يعتــرف بتمايُــزاتٍ أهليّــة، ولا يرضــى بأقــل مــن فــوارق عنصريّـة، وهـو الأقـدر تاليًـا علـى التكيُّـف النَّــشِطِ مـع شـروط البيئـة الطائفيّة-العنصريّــة الجديــدة. فـي خطـاب الأسـدِيِّين حضـرتِ السـلفيّة كاسـمٍ لآخـر عـدوٍّ غريـب منـذ بدايـة الثـورة، وفـي خطـاب السـلفيّين تحضـر النصيــريّة دائمًـا كاسـمٍ لآخـر عـدوٍّ غريـب أيضًـا. فـي الحالَيـن هنـاك عَنصَـرةٌ مُحرِّضـة سياسـيًّا لقطاعـاتٍ مهمّـة مـن السـكان، علـى نحـو يُسـوِّغ الإبـادة.

وبنظـرة عامّــة إلــى تاريــخ الطائفيّــة وتحوّلاتهــا فــي ســوريا نــرى أنّــه فـي حقبـة حافـظ الأسـد تمثَّـل التقابـل الطائفـيّ فـي النظـام والإخـوان الـمسلــمين. كان النظـام يعتمـد فـي إغـلاق الــمجال السياسـيّ وإعـادة إنتـاج ذاتـه علـى أجهـزةٍ أمنيّـة وعسـكريّة مُطـيَّفة علـى نطـاقٍ واسـع، ويُواجِــهه إسـلاميون سُنّــيون سـوريّون، وهـم الإخـوان، حيـث يُعارضـون النظـام الــمغلق طائفيًّـا ويواجهونـه بالقـوّة. أمّـا فـي عهـد بشّـار فـإنّ التقابـل الطائفـيّ العنصـريّ يجمـع بين بشـار وأجهزتـه والطبقة الـمُثـرية



الجديـدة وبيـن السـلفيّين. ومثلــما اسـتعانت الأرسـتــقراطيّة الحاكمـة بالأجنبـيّ، علـى دأب سـلالاتٍ ملوكيّـة فـي التاريـخ، كـي تحمـي العـرش، فـإنّ التكويـن الأمميّ للسـلفيّة الجهاديّـة والـمجاهدة يضعهـا فـي موقـع النقيـض الأنسـب. الإخـوان الـمسلـمون ليسـوا مؤهّليـن ليكونـوا هـذا النقيـض بحُكـم تكوينهـم الـمحلّي وبنيــتهم السياسـيّة أو التـي تجمـع بيـن الدينـيّ والسياسـيّ، وقـد وضعَـتهم فـي موقـع الـمعارضة السياسـيّة للنظـام، لا فـي موقـع الـمجاهدين، ولا بطبيعـة الحـال فـي صفـوف الـمعارضة الداجِنـة الأقـرب إلـى النظـام. ليـس هنـاك عنصـرٌ سياسـيّ فـي تكـوّن السـلفيّين بالـمقابل، وهـي ميـزةٌ إيجابيّـة فـي مواجهـة نظـامٍ لا سياسـيٍّ جذريًّـا مثـل دولـة الأسـديّين.

بعبـارة أخـرى، الإخـوان طائفيّـون، سياسـتهم تقـوم علـى توحيد السُّنّــيّين، واسـتــثمار الطائفـة السـنّية الـمُوحَّدة كقاعـدةٍ اجتماعيّـة لهـم، يخوضـون بهـا الصـراع علـى السـلطة. طائفيّـة الإخـوان تُضعفهـم ولا تُقوِّيهـم فـي شـروطٍ تُعَــنصِر الطائفيّـة أو تُحيل مـن الطائفيّـة إلـى الطائفيّة-العنصريّة. وهذا لأنّ الطائفيّة لا تسـتـبعد السياسـة اسـتبعادًا جوهريًّـا مثل العنصريّة، وهـو مـا يحـدُّ مـن طاقـات الطائفيّيـن علـى الإبـادة. وبالفعـل يمكـن نسـبةُ واقعـةٍ إباديّـةٍ وحيـدة إلـى الإسـلاميّين فـي سـنوات حكـم حافـظ هـي مذبحـة مدرسـة الـمدفعيّة فـي حلـب عـام ١٩٧٩. وهنـاك منـذ ذلك الوقـت نقـاشٌ حـول درجـةٍ مـن التمايـز بيـن الطليعـة الـمقاتلة للإخـوان الـمسلـمين التـي ارتكبـت الـمجزرة وبيـن الإخـوان، وهـو تمايزٌ سـار إلى الامِّحـاء بفِعـل توسـع النظـام فـي قمـع الإسـلاميّين كلّهـم. أمّـا السـلفيّون فهـم عنصريّـون، يُعَــنصِرون السُّـنّيين، أو يَعملـون علـى أن يصنعـوا منهـم شـعبًا سُنــيًّا إن جـاز التعبيـر، صافيًـا. وهـذا برنامـج ينطـوي علـى طاقـةِ إبـادةٍ أكبـر بكثيـر: إبـادة غير السُّـنيين بقـدر الـمستطاع، وإبادة السُّـنّيين الـمُمتــنعين عـن الصفـاء. والخلاصة، إن التحـوّلَ الطائفيّ/العنصـريّ عنوانٌ



أساسيّ في التاريخ (وللتَّأريخ) السياسيّ والسياسيّ الدينيّ في سوريا خلال نصف القرن الأخير.

•

الإبـــادة الإبادة تجد نفسها في موطنها الطبيعيّ في عالم الـماهيّات والعناصر، الـمُركّب الطائفيّ العنصريّ.

لا يقتضي الأمر قتل جميع أفراد جماعةٍ أو «عنصر» مُعيَّن حتى نتكلّم على إبادة. يُحيل تقرير منظّمة العفو الدوليّة إلى نظامِ روما الأساسيّ الخاص بالـمحكمة الجنائيّة الدوليّة، فيُعرِّف الإبادة استنادًا إلى ميثاق الأمم الـمتّحدة الخاصّ بالجينوسايد والصادر عام ١٩٤٨، بأنها «تعمُّد فرض أحوالٍ معيشيّة، من بينها الحرمان من الحصول على الطعام والدواء، بقصد إهلاك جزءٍ من السكان».[١٩] هذا مُحقَّق في معتقلاتٍ مثل تدمر وصيدنايا، يُعزل فيها الـمعتقلون عن العالم، فلا يُزارون ولا يُعرف مصيرهم من أسرهم، ويبدو هذا العزل أشدّ إحكامًا في زمن بشّار من زمن أبيه، حيث أمكن لبعض الأُسَر الثريّة أن تشتري رؤية معتقليها بالـمال الكثير. لكنّ الشَّرط الإباديّ مُحقَّق على نطاق أوسع بكثير في الـمناطق الـمُحاصَرة والـمُجوَّعة من البلد، مثل مضايا ومخيّم اليرموك، والغوطة الغربيّة والشرقيّة، وحلب الشرقيّة قبل إعادة احتلالها من قِبَلِ النظام وحُماته. حصار مناطق وتجويعها جديدٌ على قِلة ما هو جديد في «سوريا الأسد». كان حافظ الأسد «يُنهي الـمهمّة» بسرعة، فيَقتل عشرات الألوف في أسابيع قليلة، مثلما فعل في حماه قبل ٣٥ عامًا.[٢٠] وهذا ما يأخذه

---

(١٩) هذا مُقتطَع من التعريف الكامل.

انظر ميثاق روما على موقع اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر: www.icrc.org

(٢٠) وهو ما نال إعجاب توماس فريدمان الذي كتب عام ١٩٨٩ إن حافظ الأسد أنهى في



على بشّار مُزايِدون فاشِيُّون على النظام، ومنهم جميل حسن، أحد كبار قتلة النظام ورئيس فرع المخابرات الجوّيّة الأشدّ وحشية في التعذيب والقتل، في مقابلةٍ أجراها معه روبرت فسك،[٢١] الصحافيّ البريطانيّ الذي رافق قوّات النظام وهي ترتكب مجزرة داريا في صيف ٢٠١٢.[٢٢]

لكن نعلم أنّ الأمر لا يقتصر على «فرض أحوال معيشيّة... بقصد إهلاك جزء من السكان»، ولا على صناعة قتلٍ في صيدنايا والمقرّات الأمنيّة والمشافي، مما غطّى تقرير منظّمة العفو الدوليّة جانبًا مُهمًّا منه، وأنه حتّى القتل في السجون، تعذيبًا أو إعدامًا أو تجويعًا، والقتل جوعًا ومرضًا تحت وطأة الحصار، هما نسبةٌ محدودة من صناعةِ موتٍ مُتّسعة، مارسَتها الدولة الأسديّة في مواجهة السوريين الثائرين منذ البداية، واستَخدمت فيها الآلة الحربيّة التي يفترض أنها بُنِيَتْ خلال عقود لحماية البلد. ونعلم أنّ سلاح الطيران والصواريخ بعيدة المدى والسّلاح الكيماوي قد استُخدموا في هذه الحرب الاختيارية. نعلم أيضًا أنّه كان هناك عنصرٌ تمييزيّ قويّ في سياسة النظام الإباديّة، وأنّ ضحاياها هم على نحو مخصوص من

شهر في حماه ما هو مستمر ١٤ عامًا في لبنان. انظر:

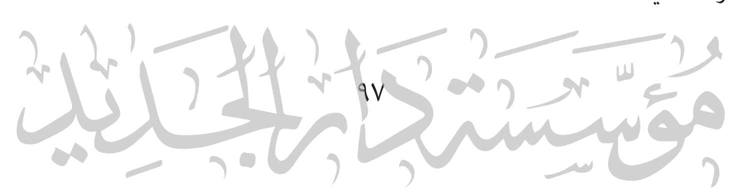
Nikolaos Van Dam, *Destroying a Nation: The Civil War on Syria,* I.B.Taurus, 2017, p. 53-54.

مع الإشارة إلى أنّ فاندام ينقل كلام فريدمان باستحسان ضمنيّ.

(٢١) انظر مقابلة فسك مع جميل حسن في **الإندبندنت**، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٦:

Tougher tactics would have ended Syrian war, claims the country's top intelligence general.

(٢٢) أحَلتُ في هوامش فصل سابق، علاقات التعذيب السياسيّة، إلى مقالة فسك عن داريّا الذي كان مرافقًا لقوّات النظام وقت اقتحامها في صيف ٢٠١٢. وكذلك إلى رَدِّنا، ريم علاف وأنا، عليه.



الـمسلـمين السُّـنّيين ممـن استُـهدفت مناطقهـم دون غيرهـا بالبراميـل الـمتفجّرة والقصـف بالطيـران والسـلاح الكيمـاوي والحصـار. الإبـادة هي هـذا الـمزيج مـن القتـل الـمتعدّد الوسـائل ومـن النـزعة العنصريـة.

تقريـر منظمـة العفـو لا يُشـير، ولا يُنتـظَر منـه أن يشـير، إلـى العلاقـة بيـن الإبـادة والعنصريّـة، وإن كان يُلـمِّح فـي موقـع منـه إلـى الصفـة الطائفيّـة لـمَن يدخلـون إلـى قاعـة الإعـدام. كلّمـا اقتـربنا مـن قلـب السـلطة ومصنعهـا السـرّي، ظهـر التمييـز أكثـر. الدولـة الأسـديّة مصفـاة، لا يصـل إلـى مركـز دائرتهـا غيـر الـمؤمنين الـموثوقين.

ولعلَّنـي أكـرّر باسـتـذكار شـعارات: الأسـد أو لا أحـد! الأسـد أو نحـرق البلـد! الأسـد أو بلاهـا هالبلـد! وكذلـك: الجـوع أو الركـوع! لكـنَّ الغـرض هـذه الـمرة إظهـار البنيـة الـمشتركة لهـذه الشـعارات: كلّ شـيء أو لا شـيء! أو: نحـن أو العـدم!

الغـرض تاليًـا هـو القـول إنّ هـذه البنيـة عَدمِيَّـة سياسـيًّا فـي الجوهـر. وفـي اعتقـادي أنّ سَـحب السياسـة مـن الـمجتمع أو الإفقـار السياسـي للـمجتمع هـو مـا اقتضـى الطائفيّـة مـن قِبَـلِ نظـام حافـظ الأسـد كسَـندٍ موثـوق لسـحب السياسـة، وهـو أيضًـا مـا دفـع قطاعـات واسـعة مـن السـوريين إلى الْـتـماس السياسة الـمُحرَّمة عبر «الشـريعة» و«الكنيسة» ومعادِلاتهمـا، أي طائفيًّـا أيضًـا. ومشـفوعًا بالإفقـار الاقتصـاديّ فـي عهـد بشّـار، سـيُفضي الإفقـار السياسـيّ الـمستمرّ إلـى عَنصَـرة الطائفيّـة، وإلـى الإبـادة. القتـل الفـرديّ والجماعـي ليسـا عارضَيـن فـي هـذه البنيـة النازعـة للسياسـة، علـى مـا ينبغـي أن يكـون صـار واضحًـا الآن. فـإذا كانـت الـمشكلة فـي كيـان الثائريـن علـى البنيـة، فالصحيـح هـو التخلُّص منهـم مـن أجـل سـلامة «الـمجتمع الـمتجانس». إنـه مبـدأ الإبـادة النـازي نفسـه، مُمارَسًـا علـى مسـتوى الدولـة الباطنـة، علـى مـا تقـتضي



بنيـة الدولـة الأسـديّة، دون نظريّـاتٍ علــميّة منحولـة (لكـنّ الإيديولوجيّة الحداثيّـة تقـوم بـدور مُماثـل لنظريّـات العنصريّـة النازيّـة: بشّـار نفسـه عـرَّف الإرهـاب بأنـه «تفكيـر مريـض ومبـدأ منحـرف وممارسـة شـاذّة»، وأرجعـه إلـى «بيئـات» يعمُّهـا «الجهـل والتخلّـف»)،[٢٣] ودون خطـابٍ عـامّ مُعلَـن (النظـام ينتحـل خطـاب «محاربـة الإرهـاب» الدولـيّ، وهـو خطـابٌ يقيـم ربطًـا جوهريًـا بيـن الإرهـاب والإسـلام).

•

إسلاموفوبــيا تنظـر هـذه الفقـرة الختاميّـة فـي مـا يُحتمـل أن يكـون سـهَّل، علـى الــمستوى الدولـيّ، نظـام القتـل الجماعـيّ الأسـديّ أو ضَمِـنَ لـه إفلاتًـا مـن العقـاب يبـدو مرشّـحًا للـدوام، وهـذا رغـم الإحاطـة الكافيـة بوقائعـه مـن قِبَـلِ الــمنظّمات الدوليّـة والقـوى النافـذة ووسـائل الإعـلام الكبـرى.

النقطـة الأساسـيّة فـي هـذا الشـأن هـي، فـي تصـوّري، الإسـلاموفوبيا الصاعـدة فـي الغـرب ودوليًـا منـذ تسـعينيات القـرن العشـرين. تنتمـي الإسـلاموفوبيا إلـى عالـمِ مُعـاداة السـاميّة التـي كانت خفَّـضت من قيمة حيـاة اليهـود، فجعلـت إبادتهـم أمـرًا هيِّــنًا علـى مُبيــدِيهم النازييـن. وهــي مثـل مُعـاداة السـاميّة تُقلِّـل مــن الحساسـيّة حيـال مـا يصيـب الـمسلـمين، وترفـع بشـدّة عتبـة التعاطـف معهـم. ومـن غيـر الــمحتمل لتقريـر منظمـة العفـو الدوليّـة عـن مَسـلخ صيدنايـا البشـريّ أن يتــرك أثـرًا لهـذا السـبب ذاتـه، الـذي كان أيضًـا جـرَّد ملـف سـيزار مـن قَبـل مـن الأثـر، وقبلهمـا معًـا الــمجزرة الكيمياويّـة.

---

(٢٣) خطابه في ٢٦ تموز ٢٠١٥. متاح هنا:
https://sana.sy/?p=245771



مثـل مُعـاداة السـامية ومثـل التمييـز العنصـريّ ضـد السـود، ليسـت الإسـلاموفوبيا مجـرّد ظاهـرةٍ مـن ظواهـر السياسـة والصّـراع السياسـيّ مثـل صـراع الـمستعمرين السـابقين مـع حـركات التحـرّر الوطنـيّ العالـمثالثيّة، ولا هـي كذلـك مـن ظواهـر الإيديولوجيّـة والنـزاع الإيديولوجـيّ مثلـما كانـت مُعـاداة الشـيوعيّة فـي الغـرب. يمكـن لهـا أن تأخـذ هذيـن الـمظهرين، فتُسـوِّغ نفسـها بوقائـع سياسـيّة (جرائـم إرهابيّــة متنوّعــة مارسـها إسـلاميّون، مشـهورة ومشـهديّة؛ تقابلهـا مـن جهتنـا وقائـع السـيطرة الأميركيّـة والغربيّـة الثقيلـة والـمتنوّعة)، أو بخطابـاتٍ عدوانيّـة يُطلقهـا إسـلاميّون متنوّعـون (وهنـاك الكثيـر منهـا). لكـنّ الإسـلاموفوبيا تُعطـي عمقًـا ماهــويًّا، وعنصريًّـا، غيـر عقلانـيّ وغيـر علـمانيّ، لوقائـع لا يمكـن التقـدّم فـي معالجتها إن لـم يُنظـر إليهـا كوقائـع سياسـيّة واجتماعيّـة دنيويّـة. يجـري علـى هـذا النّحـو نَقـل توتُّـراتٍ وصراعـات إنسـانيّة تعقَّـدتْ بفضـل ممارسـات القـوى الغربيّـة القويّـة والغنيّـة والنافـذة عالـميًّا إلى عالـم إنسانيّـتَين مختلفتَيـن، متعاديتَيـن جوهريًّـا. ولهـا بهـذا مفعـول مُماثـل للتمييـز الطائفـيّ الـمديد الـمقترن بامتيـازات اجتماعيّـة وسياسـيّة وتنظيـرات ثقافيّـة وممارسـات إباديّـة مـن حيـث جوهـرةِ أو عَنصَـرةِ فـوارق اجتماعيّـة وثقافيّـة وسياسـيّة، تاريخيّـة ونسـبيّة ومتحوّلـة، ورفعهـا إلـى مرتبـة فـوارق ثابتـة مطلقـة.

وفـي الإسـلاموفوبيا أيضًـا تراتـبٌ يضـع الـمسلـمين فـي مرتبـة أدنـى مـن التطـوّر ومـن القيمـة، علـى نحـوٍ يُـوازي تطـوّر الطائفيّـة فـي سـوريا الأسـد باتجـاهٍ تراتُبـيٍّ عنصـريّ، ويشـدّ مـن أزر هـذا التطـور. يجـري تجنيـد العلـمانيّة والتنويـر، والحداثـة، فـي معركـةٍ دينيّـة سياسـيّة، وفَّرتْ سـندًا عالـميًّا لتجنيـدٍ مُماثـل فـي «سـوريا الأسـد» منـذ ثمانينيـات القـرن العشـرين.



وللإسلاموفوبيا عُمقٌ تاريخيّ سابق لانتهاء الحرب الباردة، يتمثّل في صورةٍ بالغةِ السلبيّة للمسلم والعربيّ في الإعلام والفنون، وبخاصّة السينما الأميركيّة. وتمدّ هذه الصورة جذورها بدورها في الاستشراق. ولعلّ إطلاق صفة «مسلمان» على المعتقلين المُحطَّمين في معسكرات الاعتقال النازيّة، أولئك «الصامتين» «المنخورين» الذين «ماتت الجذوة الإلهية فيهم»، و«لم تعد لهم أيّة قصة»، بتعابير بريمو ليفي، أقول: لعلّ ذلك يُحيل إلى سُنَّةٍ استشراقيةٍ كانت لا تملُّ من القول إن مُدرَك إسلام مُستمدٌّ من الاستسلام، فصار ذلك «اللاإنسان» (ليفي) الذي استسلم نهائيًّا لشروط الاعتقال وتخلَّى عن كلّ مقاومة هو «المسلمان».[٢٤] وهو يموت خلال شهور بعد وصوله إلى هذه الحالة على قول ليفي، الناجي من آوشفيتز.

لقد مدَّد الاستشراق في عمر القرون الوسطى الأوروبيّة بأنْ أقصاها نحو الخارج، «الشرق»، إلى حيث عالمِ المحسوس الذي يُمثِّل اختلافًا لا خطر منه عن عالم «الأمم المُتخيّلة» الذي كان يشتغل بكامل طاقته في أوروبا مُنتِجًا الأمم الأوروبيّة الحديثة.

عبر هذه الجنيالوجيا، تُعيدنا الإسلاموفوبيا إلى الماضي، صوب القرون الوسطى. في شباط ٢٠١٧ كانت ماري لوبان، زعيمة حزب الجبهة الوطنيّة العنصريّ المتطرف في فرنسا، المعادي للمهاجرين والمسلمين بخاصّة، تتكلم في لبنان على أنّ حماية المسيحيّين والأقلّيات تُوجِب «القضاء على التطرّف الإسلاميّ» لأنّه «خطر قاتل».[٢٥] ليس فقط يجري تصوير أنّ الخطر الذي يتعرّض له

(٢٤) ليفي، المصدر نفسه.

(٢٥) يراجع: تصريحات مستفزة لمارين لوبان في لبنان، موقع الجزيرة، ٢٠ شباط ٢٠١٧.

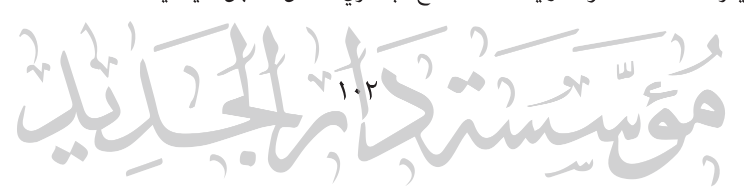
الـمسيحيّون والأقليّات يأتـي حصرًا مـن جهـة الأكثريّـة الإسلاميّة التـي لا تحضـر إلا بوصفهـا مُمثّـلةً بـداعش، وليس فقـط يُنصِّب تنظيـمٌ يمينيّ عنصـريّ أوروبـيّ نفسـه حاميًـا للأقليّـات فـي إقليمنـا، وإنّمـا كذلـك لا يقـال شـيء عـن حقيقـة أنّ هـذه الأكثريّـة الـمزعومة التـي تبـدو مصـدر أخطـار فقـط تعرَّضـتْ للتحطيـم أكثـر مـن غيرهـا. السياسـيّة اليمينيّـة الـمتطرّفة مُسـانِدة، بالـمناسبة، لبشّـار الأسـد.[٢٦] وليـس هنـاك سـبب للشّـك فـي أنّ مسـاندتها لـه مرتبطـة بالتطـوّر الطائفـيّ العنصـريّ لنظامـه، وتسـويقه للفكـرة الرائجـة فـي أوسـاط اليميـن الغربـي مـن أن الخطـر علـى الأقلّيّـات يأتـي مـن الأكثريّـة الـمسلـمة العدوانيّـة، وأنّ نظامـه حـامٍ لتلـك الأقلّيّـات الـمُهدَّدة. بعبـارة أخـرى، تُسـوِّق الدولـة الأسـديّة نفسـها كاستـمرار للاسـتعمار الأوروبـيّ الـمباشر الـذي كان سـوَّغ نفسـه فـي زمـن «الـمسألة الشـرقية» بحمايـة الأقلّيّـات مـن الخطـر الإسـلامي نفسـه، وهـو يحظـى بالدعـم فـي الغـرب لهـذا السـبب بالـذات.

ألسـنا أقـرب إلـى العصـور الوسـطى حيـن تُعـاد صراعـات الأديـان والطوائـف لتكـون مسـتقبلنا، حيـن يجـري تعميـمٌ عالـميٌّ للشـرق الأوسـط، وهـو أصلًا مخلـوق للقـوى الاسـتعماريّة الغربيّـة، ليصيـر أيضًـا مسـتقبل العالـم؟ فـي عالـم ترمـب وبوتيـن وبشّـار الأسـد ونتنياهـو... نحـن فـي عالـمٍ مـن العناصـر والجواهـر، عالـم القرون الوسـطى. عالـم الطائفيّ-العنصـريّ.

الإسـلاموفوبيا أحـد أوجـه تدهـور العلاقـات الدوليّـة فـي اتجاهـات

---

(٢٦) قالـت بالحـرف، إنّ الأسـد «يشـكّل اليـوم حـلًّا يدعـو إلـى الاطمئنـان أكثـر بالنسـبة إلـى فرنسـا»، ونوَّهـتْ بسياسـته الواقعيّـة. الـمصدر السـابق. زيـارة لوبـان للبنـان جـاءت بُعيـد صـدور تقريـر منظّمـة العفـو الدوليّـة، «الـمسلخ البشـريّ»، عـن سـجن صيدنايـا.



أقـلّ تجريـدًا وأقـلّ «خياليـة»، وأكثـر حِسّـيَّة وهوياتِيَّـة، علـى نحـوٍ يبـدو أنّ صعـود سياسـات الهويّـة وتيّـارات اليميـن القومـيّ فـي الغـرب يؤكّـده. وهـي، مـع الصراعـات السياسـيّة الدينيّـة فـي منطقتنـا مـن العالـم، ومـع «الإرهـاب الإسـلاميّ» وجـوه مسـألة عالـمية كبـرى، الـمسألة الإسـلاميّة.(٢٧)

ومـا أريـد ترتيــبه علـى مـا تقـدّم هـو أنّ الدولـة الأسـديّة فـي بنيتهـا التمييزيّـة الجوهريّـة، وقـد تطـوَّرتْ فـي اتجـاهٍ عنصـريٍّ إبـاديٍّ أثنـاء الثـورة السـوريّة، تُشـكِّل نسـخة مطابقـة لِبنيـةٍ دوليـة تطـوَّرتْ باتجاهـاتٍ أكثـر تمييزيّـة ضـدّ الـمسلـمين فـي ربـع القـرن الأخيـر بعـد أن كانـت مـن قَبـل تمييزيـة أصـلًا. هـذه نقطـة أساسـيّة تُفسِّـر فـي تقديـري مـا نالتـه دولـة الأسـديين مـن رعايـةٍ تمييزيّـة فـي سـنوات الثـورة/ الإبـادة. ليـس ثمّـة وجـهٌ عـادل لِلَـوم الـمؤسّسات السياسـيّة الغربيّـة مباشـرة علـى مذابـح الأسـديين، لكـن نحتـاج إلـى إظهـار الارتـكاز البنيـويِّ للدولـة الأسـديّة علـى هيـاكل تراتُـبِـيَّة دوليّـة تُوفِّـر لهـا الحصانـة بينـما هـي تتوسـع فـي مذابحهـا. العنصريّـة مُكـوّن جوهـريّ للبنيـة الجامعـة للثلاثـة. والإسـلاموفوبيا و«حمايـة الأقليّـات» همـا الوجهـان الأبـرز لهـذه العنصريّـة.

الدولـة الأسـديّة لا تحظـى بالتسـامح من مراكـز النفوذ الدوليّة الـمعاصرة رغـم أنّهـا عنصريّـة، بـل بالضبـط لأنّهـا عنصريّـة. وفضـلًا عـن العنصريّـة، يُقـرِّب خطـاب «الحـرب علـى الإرهـاب» ومُـدرَك «الإرهـاب الإسـلاميّ» بيـن الثلاثـة.

---

(٢٧) تناولـتُ الـمسألة الإسلاميّة بتوسّـع في كتابـي: **الإمبــرياليّون الـمقهورون ـ في الـمسألة الإسلاميّة وظهـور طوائـف الإسلاميين**، ريـاض الريـس للكتـب والنشـر، ٢٠١٩. بخاصـة الصفحـات ٧٩-١٣٥.

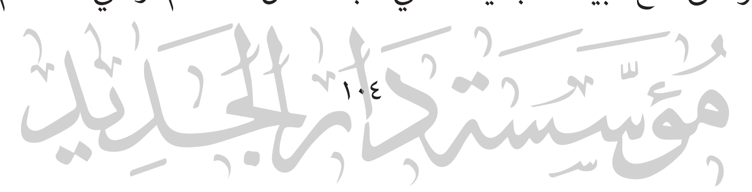


ولـم تكـن النزعـة الحداثيّـة (مزيـج مـن الليبراليّـة والعلـمانيّة وأنـماط حيـاة الطبقـة الوُسـطى الغربيّـة) التـي صعـدتْ فـي الثقافـة السـوريّة في صـورةٍ إيديولوجيّـة ثقافـوِيّة علـمانيّة منـذ تسـعينيات القـرن العشـرين بَعيـدةً عـن تقـدّم العنصريّـة فـي سـوريا، أو انتقـال التمايُـزات الأهليّـة الـموروثة إلـى امتيـازاتٍ اجتماعيّـة وتراتُـبات حضاريّـة. أعمـال جـورج طرابيشـي وأدونيـس أسـهمت فـي رأيـي فـي التنظيـر للتمييـز، وخفّفـتْ مـن حساسـيّة سـوريين كثيريـن حيالـه.

وبنظـرة عريضـة، يبـدو أنّ الـموجة الراهنـة مـن العنصريّـة، الإسـلاموفوبيا، تُسـجِّل فشـل الحداثـة السياسـيّة والحقوقيّـة علـى الـمستوى العالـميّ، مثلـما سجَّل تقـدُّم التمييـز العنصريّ فـي سـوريا فشـل الحداثـة السياسـية والحقوقيّـة فـي بلدنـا. العالـم الـذي تتراجـع ممارسـاتُ وأفـكار الـمساواة والنقـاش الحرّ والثقـة والديموقراطيّـة فـي تكوينـه يُشـكِّل سـندًا لنظـامِ تمييـزٍ عنصـريّ فَتِـيٍّ وصاعـد فـي مملكـة الأسـديين. هـذا التماثـل البنيـوي بيـن الدولـة الأسـديّة وقـوى السـيطرة الدوليّـة الـمعاصرة هـو مـا يمنـح الحصانـة للإبـادة الأسـدية.

الإسـلاموفوبيا هـي أيضًـا البيئـة السياسـيّة الفكريّـة النفسـيّة الأنسـب للإسـلاميين مـن أجـل رفـع الحواجـز فـي وجـه العالـم وفـرض التجانـس الداخلـي فـي مجتمعاتنـا. ولديهـم الكفايـة مـن الـمبادئ الدينيّـة التـي تجعـل منهـم الديـن الوحيـد الصحيـح، الأرفـع مـن غيـره، و«الأشـرف» مـن غيـره، والـمباح لـه مـا لا يبـاح لغيـره. الـمُركب الطائفيّ-العنصـريّ يقـع فـي صلـب تطـوّر الإسـلاميّة الـمعاصرة.

وبنظـرة عريضـة أيضًـا، نـميل إلـى أنّ صعـود السـلفيّة فـي سـوريا وفـي مجالنـا، وهـي الإيديولوجيّـة الإسـلاميّة الأقـوى طائفيّة-عنصريّـة، مُتوافـقٌ مـع البيئـة الجديـدة في مجالنـا من العالـم، وفـي العالـم. فإذ



يرتفع الطَّلب على رفع الأسوار وتصليب الفروقات ومعاكسة ميول الاختلاط والتهجين، وتسويغ الإبادات المحتملة، فإن السلفيّة مؤهلةٌ لتلبية الطلب أكثر من غيرها من الإيديولوجيّات الإسلاميّة الأخرى. وهذه قد تقتدي بها، أو «تتسلَّف» على نحوٍ كان لاحظه قبل الثورات العربيّة المرحوم حسام تمّام بخصوص الإخوان المسلمين المصريين.

لا نعلم ما يمكن أن يكون مستقبل الإسلاموفوبيا والبنى الطائفيّة العنصريّة على نطاقٍ عالميّ، لكنّها منابع إفساد هائلة للحاضر، واستنزاف جائر لاحتياطيّات العالم من الأمل.

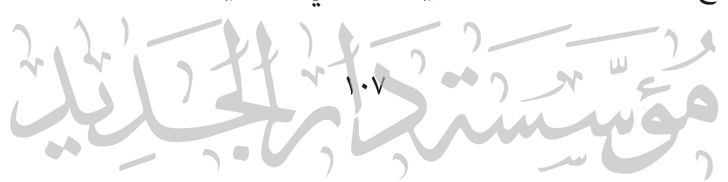



مؤسسة دار الجديد

قبر للـمرء جميعه:
تبدّلات موت السوريّين وتغيّرات حياتهم

يُدفَـنُ النـاس فـرادى حيـن يموتـون فـرادى ضمـن جمـعٍ حـيٍّ ينتمـون إليـه. قبـر واحـد للفـرد الواحـد. لا يشـاركه أحـد القبـر، وهـو لا يشـارك فـي قبـور كثيـرة. هـذا تعريـفٌ للفـرد البشـريّ، يبـدو متفقًـا عليه عالــميًّا علـى قلّـة مـا يتّفـق عليـه الأحيـاء مـن البشـر.

نُخـرِج موتانـا مـن أجسـادنا حين يكـون لأجسـادهم مكان معلـوم. ويبقون أرواحًـا هائمـة فـي دواخلنـا حيـن لا قبـور لهـم نعرفهـا ونختـار زيارتهـا، ما يزيـد أرواحنـا قلقًـا وعذابًـا. كأنــما بالدفـن فقـط يمـوت النـاس، وكأن مَن لا يُدفَـن لا يمـوت. يبقـى طيفُـه هائمًـا يجـوس مكاننـا الــمشترك. هـذا الاختـلاط الخطـر عـرّف كلّ البشـر تنظيـم تجنّبـه. أوّل الثقافـة هـو هـذا الفارق بين الحي والــميت. تتكفل القبور الــمعلومة الــمواقع، الــمنفصلة عـن مواطـن سـكن الأحيـاء بسـورٍ أو بمسـافةٍ بالسـيطرة علـى عالــم الــموتى والفصـل القطعـيّ لـه عـن عالـم الأحيـاء، مـع إبقـاء ضـربٍ مـن الاتصـال الاختيـاريّ ممكنًـا. نتشـكَّل كأحيـاء بـأن ننفصـل عنهـم كموتـى، ويتكـوّن لنـا حاضـر بـأن نُحيلهـم إلـى الــماضي الـذي انقضـى وكـفَّ عـن الحركـة والحضـور. نُسـهِّل هكـذا للــماضي أن يَمضـي وللداخـل أن يُعمَّـر ويحيـا، أن يحضر ويسـتقبل. موتانـا هـم ماضينـا وخارجنـا، ماضـي حاضرنا وخـارج داخلنـا، نحـن أهـل قريـة أو حـيّ أو مدينـة.

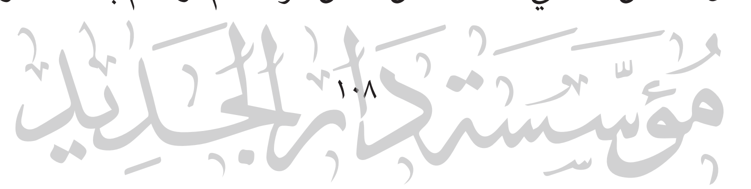


مـاذا يحصـل حيـن يمـوت الفـرد وقـت الحـرب بيـن أعـداء؟ فـي الخـارج الخارجـيّ، لا فـي خـارج الداخـل؟ حيـن يمـوت النـاس جماعـات؟ حيـن يموتـون جماعـات بيـن أعـداء وبعيـدًا عـن جماعتهـم؟ حيـن يقتلهـم جميعًـا أعـداء؟ حيـن لا يُعثـر علـى أجسـاد لهـم؟ مـاذا يحصـل حيـن يمـوت جميـع النـاس فـي «حـيّ» مـا؟ مـات السـوريّون ميتـاتٍ عجيبـة فـي الأبـد الأسـديّ علـى يـد أهـل الأبـد، ثـم أخيـرًا علـى أيـدي أبدِيِّيـن منافسـين، إسـلاميّين. مـن «العجيـب» اختـلاط الحيـاة والـموت، وعـدم قـدرة الأحيـاء علـى الانفصـال عـن موتاهـم، لاسـتحالة ذلـك فيزيائيًّـا فـي حـالات، ولاسـتحالته نفسـيًّا فـي حـالات، حيـن لا جسـد للـميت ولا قبـر يُـزار، ولوفـرة الـموت وصعوبـة تمالـك الأحيـاء لأنفسـهم وفصل أنفسـهم عـن موتاهـم فـي حـالات.

مـاذا حـلَّ بضحايـا سـجن تدمـر، وهـم بـالآلاف فـي الثمانينيّـات والتسـعينيّات مـن القـرن الـماضي؟ أيـن دُفنـوا؟ هـل دفَـنهم مُعذِّبوهـم وقتلَـتهم مثلـما يُدفـن عمـوم النـاس؟ أفـي قبـر جماعـيّ؟ أكيـد، هـذا إن دفنوهـم، ولـم يَطحنـوا أجسـادهم بآلـةٍ مـا، ويُحوِّلوهـم إلـى غبـار. أو، لـم يحرقـوا جثامينهـم وينثـروا رمادهـا. أو ربمـا ذوَّبـوا أجسـادهم بمحلـولٍ كيميـاويّ مثلـما ذَوَّبَ الـمُعْتَقَلُ الناصـريّ جسـد فـرج اللـه الحلـو بالأسـيد عـام ١٩٥٩. ينبغـي أن يصيـروا عدمًـا لإثبـات أنّهـم كانـوا عدمًـا دومًـا، لـم يوجـدوا قـطّ.

ومـاذا حـلَّ قبلهـم بضحايـا مذبحـة تدمـر، ٥٠٠ أو أكثـر؟ قُتلـوا فـي السـجن فـي يـوم صيفـيٍّ مـن ١٩٨٠، ثـم أُخليـتِ الـمهاجع مـن الأجسـاد الـمُحطَّمة؟ إلـى أيـن نُقلـت بقاياهـم الـمختلطة؟ هـل دُفنـوا؟ أُحرقـوا؟ أُذيبـوا؟

وهـل تمكَّـن أهالـي حمـاه مـن دفـن موتاهـم، وهـم بـالآلاف وربمـا



عشـراتها؟ دُفـن بعضهـم فـي بيـوت هُدِّمـت فـوق رؤوسـهم وجـرَت تسـوية الأحيـاء بالبلـدوزرات. وبُنيـت فـوق الـمناطق الـمُمهَّدة فنـادق حديثـة.

بعـد الثـورة كانـت أكرم ميتات السـوريّين أن يموت الـمرء قطعـةً واحدة، وأن يتمكـن ذَوُوه مـن دفنـه فـي قبـر شـخصيٍّ معلـوم. الحـق فـي قبـر شـخصيّ ليـس حقًّـا للـميّت نفسـه، بـل لذويـه وأحِبَّتـه كـي يحتفظـوا لـه بمـكان فـي القصّـة العائليّـة، ولـيَملؤوا فـراغ غيابـه فـي جسـدهم ويسـتأنفوا حياتهـم بأقـرب درجـةٍ إلـى العاديّـة. «العاديّـة» مصنوعـة مـن وضـوح الفصـل بيـن الحاضـر والـماضي، بيـن الداخـل والخـارج، بيـن مـا فـوق الأرض ومـا تحتهـا، بيـن الـمرئيّ وغير الـمرئيّ، بين الـمتحرّك وغير الـمتحرّك، بيـن الحاضـر والغائـب. مـوت «طبيعـيّ» وقبر شـخصي معلوم يضمنـان للأحيـاء حيـاة عاديـة بعـد رحيـل الـمتوفى. أمـا بجسـدٍ مبتـور، أو بجسـد متعـدّد القطـع، مـع فقـدان بعضهـا، فيبقـى الـميّت يقـضُّ مضجـع الأحيـاء، ومدخـلًا إلـى اضطـرابِ مُعتادِهـم.

الـميتات العنيفـة، بخاصّـة التـي تمـسُّ بالتكامـل الجسـديّ للضحايـا، تَحـول فـي حـالات كثيـرة دون رؤيـة بعـض أفـراد الأسـرة للـمقتول. فـي الـمليحة فـي أيـار ٢٠١٣ دُفِـنَ شـهيدان بعـد نصـف سـاعة مـن مقتلهمـا بقذيفـة هـاون سـقطت فوقهمـا فـي الحقـل، دون أن تُـلـقي زوجتاهمـا وأطفالهمـا نظـرة الـوداع عليهمـا، لأنّ جسـديهما كانـا مبتورَيـن بشـدة. فـراغ الغيـاب لا يمتلـئ هنـا ولا يلتـئِم، يبقـى ثلـمةً كبيـرة فـي جسـد العائلـة. «إكـرام الـميت دفنـه» سـريعًا وفـي قبـر شـخصيّ، لكـن مـن الإكـرام أن يُودِّعـه أحبابـه. يحصـل أن يُقـرِّر كبـار الأسـرة أن لا يُودِّعـه بعـض أقـرب الأحبـاب إن كانـت آخـر مشـاهده فـوق التـراب ماسَّـة بكرامتـه وكرامتهـم. مثـل ذلـك جـرى فـي دومـا فـي نيسـان مـن العـام



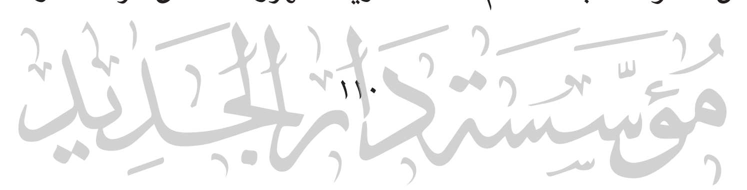
ذاتـه لشـهيدَين آخريـن تفتَّـت جسـداهما. نُقـلا مباشـرة إلـى هيئـة الدفـاع الـمدنيّ، سُـجِّل اسْـماهما، ثـم دُفـن مـا بقـي منهمـا بمـا بقـي مـن ثيـاب عليهمـا. الكبـار يتحمّلـون ذلـك، أمـا الصغـار فيتـبدَّل، وقـد يتعطّـل، اسـتقبالهم للعالـم ومسـتقبلهم، إن كان آخـر مشـهد لـلأب هـو جسـد محطّـم متناثـر.

وفـي دومـا رأيـت أيضًـا جِسـمين ضئيلَيـن جـدًّا لـجَنيـنَين فـي الشـهر السـادس أسقطَـتهما أمّاهمـا تحـت وطـأة الرعـب. حصـلا علـى قبريـن شـخصيَّين صغيريـن، لـم أر الأُمَّيْـن. النسـاء الحزينـات يحزنَّ فـي العزلة.

وهنـاك مَـن ماتـوا محصوريـن داخـل ركام بيوتهـم الـمُدمَّرة التـي تعـذَّر انتشـالهم منهـا أو إخراجهـم مـن تحـت أنقاضهـا. هـؤلاء كلّهـم من الأشـد فقـرًا، كمـا يمكـن التوقّـع. لـو كانـوا مـن الـميسورين لـما ادُّخِـرَ جهـد لإخراجهم مـن المنازل/الـمقابر.

شـهداء مذبحـة الكيميـاويّ فـي الغوطـة، آب ٢٠١٣، فقـدوا حياتهـم دون مسـاسٍ بتكاملهـم الجسـديّ. وماتـوا ضمـن جماعتهـم، وليـس بعيـدًا عنهـا وفـي مناطـق معاديـة. دُفنـوا مـع ذلـك مجموعـات فـي قبـور جماعيّـة غيـر شـخصيّة. كأنـما يقـال إنهـم نفـس واحـدة، ومثلـما ماتـوا فـي وقـتٍ واحـد، مـن الـمناسب أن يُدفنـوا فـي مـكان واحـد ويُؤنِـسَ بعضهـم بعضًـا فـي دارهـم الأخيـرة. وتقضـي الطقـوس الإسـلاميّة بـأنْ يُدفَـن الشـهداء دون غسـل وبثيـاب مقتلهـم نفسـها. يقـال إنّ هـذا كـي يشـهد دمهـم عليهـم. الـمذبحة الكيمياويّـة بـلا دم، مـاذا يشـهد علـى شـهدائها الذيـن دفنـوا بثيابهـم أيضًـا؟ لعلـه الزبـد البرتقالـيّ الـذي يخـرج مـن أفـواه مـن تنشّـقوا السـارين!

أيـن دُفـن شـهداء التعذيـب الذيـن رأينـا صـورًا لهـم فـي ملـفّ قيصـر؟ ليـس معلومًـا. أجسـادهم كانـت عاريـة، مهزولـة، لكـن مُرقَّـمة ومُصـوَّرة.



موتهـم إنتـاج بالجملـة لصناعـة قتـل منظّمـة، لكـن دون معرفـة أيـن يذهـب «الـمنـتج النهائـيّ».

وكانـت مياه الـمتوسط الـدار الأخيـرة لفـوق ثلاثـة آلاف مـن السـوريين ومـن سـوريا غرقـوا فيهـا فـي مرحلـةٍ مـن رحلتهـم إلـى أوروبـا عـام ٢٠١٥. لكـن البحـر ليـس قبـرًا ملائمًـا لأنّـه كبيـر ومتحـرك. فيـه الـموتى لا يسـتقرّون فـي مـكان، كأنّهـم لـم يموتـوا.

وهـل تكـون النـار قبـرًا كافيًـا لـمن أُحـرق حيًّـا أو ميتًـا؟ مـاذا فعلـتْ قـوّات النظـام ببقايـا عشـرات أحرقتهـم أحيـاء منـذ عـام ٢٠١١؟

وطَمـر داعـش بقايـا الطيّـار الأردنـيّ فـي قفصـه يُعطـي إيحـاءً بـأنّ الطمـر غيـر الدفـن. الدفـن تكريـم للـميت، لـه طقـوس تُرعـى بحـرص، وهـو يحفـظ شـخصيّة الـمتوفّى واسـمه، بينـما الطَّمـر تخلّـصٌ مـن الـميت، يطمـس اسـمه وكيانـه. لكـن ينبغـي القـول إن الـموت السـلفيّ يـكاد يكـون مجـرّد ردمٍ للـميت.

داعـش كانـت ترمـي بعـض ضحاياهـا فـي انهـدامٍ أرضـيّ غائـر فـي منطقـة الحمـام شـمال الرّقـة، يسـمى الهوتـه. ليـس معلومًـا إن كانـت رمـتْ فيـه أحيـاء، لكـن سـمعتُ وقـت كنـت فـي الرقـة في صيـف ٢٠١٣ عـن توجيـه معتقليـن مُطمَّشـين إلـى النجـاة بأنفسـهم والهـرب باتجـاه الهـوة الفاغـرة كـي يسـقطوا فيهـا، وسـط ابتهـاج الـمنفّذين الدواعـش. والأكيـد أنّ الـمنظّمة السـلفيّة الإجراميّـة تخلَّصـت مـن شـهداء بهـذه الطريقـة. هنـاك فيديـو واحـد علـى الأقـل عـن ذلـك. كمـا ثَـقَّلتْ جثـث بعـض ضحاياهـا بكُتـل إسـمنتيّة قبـل أن ترميهـم فـي نهـر الفـرات، علـى مـا روى معتقـل سـابق عنـد الدواعـش.[١]

(١) تنظر فـي هـذا الشـأن مقالـة أحمـد إبراهيـم، الـمبنية علـى تجربـة شـخصية: عـن شـهر

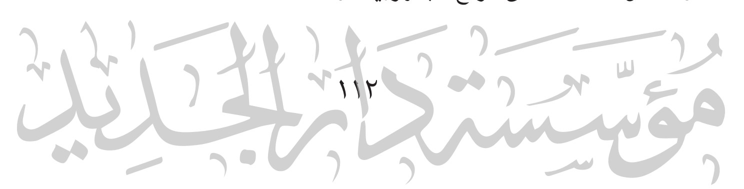


علاقـة داعـش والسـلفيّة بالأحيـاء هـي الوجـه الآخـر لعلاقتهـا بالــموتى: موتاهــا، «السـلف»، أحيـاء أكثـر مـن أيّ أحيـاء، وتُعـوِّل علـى أن يكـون أحياؤهــا، الــمعاصرون الواقعـون تحـت سـلطانها، موتـى أكثـر مـن أيّ موتـى (تقتلهـم أن قاوَمـوا موتهـم الحـي). مَنع الــموتى من الــموت على هـذه الصـورة يمنـع الأحيـاء مـن الحيـاة، ومنـع الــماضي مـن الانسحاب إلــى الــوراء يكتــم أنفــاس الأحيــاء ويمنــع الحاضــر مــن الاســتقبال، والاســتقلال بنفسـه. والــمنع غيـر مُمكـنٍ دون عنـفٍ وقسـوة مَهوليـن، إذ همـا يمحـوان الحـدود بيـن الحيـاة والــموت، ويُبقيـان الــماضي قريبًا والحاضر مُختــنقًا.

أمّـا النظـام فعبـر إرادة تأبيـد الحاضـر يمنـع الآتي مـن القدوم والــماضي مـن التقـادم، وهـو مـا لا يُحقّـق بـدوره دون عنـف وقسـوة مهوليـن، ودون الــمجاورة القسـريّة بيـن الحياة والــموت.

فـي كل هـذه الحـالات، الــموت الفـرديّ أو الجماعـيّ في منطقـةٍ مُعادية أو فـي البحـر، لا قبـر شـخصيًّا معلومًـا للــمتوفّى، وتاليًـا يبقـى مكانـه في قصّـة العائلـة فجـوةً مفتوحـة، تقـضُّ مضجـع جسـدها الجَمعـي. الوضـع الــمثالي للأحيـاء هـو أن يُدفـن جميع الــموتى مـن أحبابهـم، وجميع كل ميـت، فـي قبـور فرديّـة معلومـة. الوضـع الأقصـى الــمعاكس أن تختلـط الأجســاد كلهــا، وتُصـرَّف دون قبـور علـى يـد مجهوليـن وفـي مواضـع غيـر معلومـة. هـذا يفتـح البـاب لاختـلاطٍ هائـل: للداخـل بالخــارج، للحاضـر بالــماضي، للــمتحرّك بالسـاكن، للــمرئي بغير الــمرئي، للواقعيّ بالسِّـحري، وللواقـع بالــمُتوقّع. حـدُّ الواقـع هـو موتنـا الشـخصي، نتوقّـع بقـدرٍ مـن الصـواب لأن موتــنا يقيـن، ونُنظِّـم حياتنـا بحيـث نــموت بين

اعتقال لدى داعش، الـمتاحة على موقع الجمهورية دوت نت.



أحبابنـا. يتغيـر الواقـع حيـن التوقُّع يتغيّر: أن نــموت الآن، أن نــموت مع جميـع أحبابنـا، أن نُـردَم تحـت أنقـاض البيـت، أن نــموت فـي منطقـة مُعاديـة، أو تحــت التعذيــب. الواقــع يتبــعثر ولا يُعقــل حيــن يمتنــع التوقُّع. لا نسـتطيع توقّـع شـيءٍ فـي حياتنـا، إن كان موتنـا خارجًـا كثيـرًا علـى نظامـه الــمعتاد، ولا ننتهـي بقبـرٍ معلـوم يلــمُّ جسـدنا كلّـه. وكلّ هـذا الاختـلاط مدخـلٌ إلـى عنـفٍ مهـول.

يمكـن التخميـن أنّ أحـوال الــموتى ومـا بعـد الــموت تُنبِــئ بالكثير عن أحـوال الأحيـاء. مـا يتحطّـم بخاصّـة، ومـا تحطّـم أثنـاء الثـورة والحـرب السـوريّة ليـس أجسـاد الــموتى، بـل أجسـاد الأحيـاء، الجماعـات، وبيئات حياتهـا. اِختلطـت الحيـاة بالــموت علـى نحـوٍ يُعــسِّر علـى الأحيـاء أن ينتــشلوا أنفسـهم مـن الأشـلاء والدم، ومـن صورهمـا ولغتهمـا ورموزهمـا. هذا الاختلاط مناسـب جدًّا لداعش وأشـباهها. بالــمقارنة، تأثّـرت سـيطرة بيئـات النظـام علـى الــموت فيهـا بدرجـة أقـلّ بما لا يقـاس: ظَلَّ الــموت فرديًـا فيهـا (قلــما كان جماعيًّـا) ولـلــموتى غالبًا قبـور فرديّة، ولــم يُحرق منهـم أحـد أو يغـرق.

فـي كلّ الحـالات، الــموت شـيء يحدث للأحياء، وليس لـلــموتى أنفسـهم، أو هـو علاقـةٌ بيـن الأحيـاء الذيـن يقـع عليهـم التغلُّـب علـى الــموت بأن يَدفــنوا الراحليـن فـي قبور معلومة تــأوي أجسـادهم وتحمل أسـماءهم. حيـن يتعـذّر ذلـك، وقـد تعـذر كثيـرًا فـي سـوريا فـي الأبـد الأسـديّ، تختـلّ العلاقـة بيـن الأحيـاء وتتقطَّـع، يختـلّ اجتماعهـم أيضًـا، ونفوسـهم وعلاقتهـم بالعالــم وبالدين.

أيًّـا يكـن النـاس فـي حياتهـم فـي سـوريا، فإنّهـم يموتـون علـى أديـان أُسَـرهم. قـد يعيـش الواحـد منـا فـردًا، لكنّـه يمـوت عضـوًا فـي جماعـة. وقـد يعيـش لادينيًّـا، لكنّـه يمـوت علـى دين. قـد لا يكون الــمرء مسلــمًا



أو مسيحيًّا... في حياته، لكنّ فارس مراد يموت مسلمًا، ويُصلَّى عليه في مسجد[٢] وإلياس مرقص يموت مسيحيًّا ويخرج من كنيسة إلى قبره، وتُكتب على القبرين عباراتٌ دينيّة. وبينما يمكن لأحياء من جماعات دينيّة أو أهليّة مختلفة أن يتجاوَروا، فإنه يُجاور المدفونين أمواتٌ من جماعتهم حصرًا في مقبرةِ جماعتهم المستقلّة. الكلمة الأخيرة للدين، وهو المنتصر. هذا بفِعل ضعف الأفراد أمام الجماعات، وضعف الجماعات كلها في مجتمع الجماعات المُتنازع.

مَن ماتوا في مناطق مُعادية، لم يُدفَنوا. جرى تصريف جُثثهم بطرق غير معلومة، لا يمكن أن تُسمَّى دفنًا، ولم يستطع أيّ دين أن يفعل شيئًا حيال ذلك، أو يدافع عن حرمة الموتى، ولم يقل بشأنه أيّ مُديرين دينيِّين شيئًا. أمّا مَن قتلهم معسكر الدينيِّين، فصُرفت أجسادهم دون دفن أيضًا وبطريقة غير آدمية، ليس دون تكريم فقط، بل مع حرصٍ على الإذلال، إذلال مَن بقوا أحياء، فالموتى لا ينال من كرامتهم شيء. وربما اعتُبروا، كلّهم أو بعضهم، أنجاسًا مُباحين. هذا المساس بحرمة الموتى طعنٌ بكرامة الأحياء كلهم.

بعد حينٍ يطول أو يقصر لا بد أن يُساءَل الدينيّون جميعًا، والدين ذاته، عن عجزهم أو عن تواطؤهم مع أشكال الموت والتمزيق الرهيبة. مَن لا يدافع عن حرمة الموتى أو يساهم في هتكها يخسر حق الإشراف على الموت، وينبغي تجريده منه. وهو ما يمكن

(٢) فارس مراد: فلسطينيّ سوريّ من مواليد ١٩٥١، كان عضوًا في تنظيم شيوعي عربيّ الامتداد، اسمه «المنظّمة الشيوعيّة العربيّة»، قام بتفجيرٍ ضد إحدى المصالح الأميركيّة في دمشق عام ١٩٧٥. فارس ورفاقه اعتقلوا وقتها وأُعدم بعضهم، وقضى هو نحو ٢٩ عامًا في السجن. خرج من السجن عام ٢٠٠٤، وتوفّيَ في دمشق في ٢٠٠٩. كان من أقرب الناس لرزان زيتونة التي غُيبت في أواخر ٢٠١٣.



أن يفتح الباب لاستقلال الموت عن الدين، وللحق في موتٍ غير ديني، ينهي به مَن يرغبون حياتَهم اللادينية. تحرير الموت من الدين هو المدخل إلى تحرير الحياة منه.

بصورة مجملة، انكسر نظام الموت في سوريا على نحو يعكس الانكسار الرهيب لنظام الحياة. كان نظام الموت العام يقوم على تولِّي أسرة الميت دفنه علنًا في قبر شخصيّ خلال وقت قصير عمومًا (أقصر عند المسلمين من المسيحيّين، وعند الطبقات الدنيا من العليا، وفي الأرياف من المدن)، مع شاهدةٍ على القبر، ويُتاح للعائلة والأصدقاء توديعه، وزيارته حين يشاؤون أو في مواسم مُحدّدة، وتتلو الوفاة تعزيةٌ جماعيّة علنيّة. كلّ هذا انكسَر. العائلة قد لا تحصل على الجثمان، والجسد قد يكون مُمزقًا وفاقدًا قطعًا منه، وحين تنجح الأسرة في الحصول على الجثمان، قد يُفرض عليها أن يكون الدفن سِريًّا مع التكتم على سبب الموت، والجنازة ممنوعة أو ممتنعة، والقبر قد يكون جماعيًّا، والتعزية مستحيلة أو ممنوعة، أو قد لا تملك الأسرة مَيِّتها، و قد يجري تصريف الجثة على أيدٍ معادية غير معلومة، وفي منطقة غير معلومة، ولا تُتاح وقفةٌ على القبر أو زيارة للمنطقة ذاتها.

وانقطاع العلاقة بين الأُسَر وموتاها، وبين مجتمع الأحياء المُرتاع ومجتمع الميّتين، وتقطُّع أوصال الموتى إنْ تحت التعذيب أو القصف، وتقطّع أوصال الفضاء العام عبر الحواجز ونقاط التفتيش والقنّاصين، يتّصل بتقطّع أوصال المجتمع، بالطوائف (أو الجماعات المَوتية، التي يُدفن موتاها معًا وفي انفصال عن غيرهم) والمخابرات (قوى الموت) والرعب، الأمر الذي لا يحتاج إلى استنتاج. يلزم فقط رؤية تقطيع الأوصال وظيفةً لصيقة بوضع سياسي بعينه: الأبد الأسديّ،



وتناسُـخاته الإسـلاميّة. فـي الحاليـن، أبديـةُ فـوق واسـتمراره تقــتضي تقطيـع تحـت واسـتباحته.

لقـد أراد السـوريّون تغــيير حياتهـم، فجـرى تغــيير موتهـم. وأرادوا تغيير واقعهـم فجـرى تحطيـم توقُّعاتهـم وقدرتهـم علـى التوقّـع. لا ينبغـي مـع ذلـك العمـل مـن أجـل العـودة إلـى الـوراء، بـل أن نعمـل لتحريـر حياتنـا مـن دولـة هـي ديـن، وتحريـر موتنـا مـن ديـن هـو دولـة. هـذا الاختـلاط سـهَّل اختـلاط الحيـاة والـموت إلـى درجـة محـو الفـارق، ويسَّـر للقتلـة سُـبل عملهـم. ننتــزع مِلكيّـة موتنـا ونضطلـع بتغــييره تعبيـرًا عـن جِدّية اضطلاعنـا بتغييـر حياتنـا.




مؤسسة دار الجديد

القسم الثاني

تمثيل الفظيع




مؤسسة دار الجديد

مسالك حيال الفظيع

خلال نحو أربع سنوات ونصف السّنة خبر السوريّون درجاتٍ من الفظاعة قلّما أمكَن التوقّف عند وقائعها والتفكير في آثارها وسبل التعامل معها. بعد محاولة تعريف الفظيع، هذه المقالة جهدٌ تصنيفيّ أوَّلِيٌّ في مواجهة خبرة الفظيع، تستند إلى ما يتعرَّف عليه الكاتب في نفسه ومحيطه، وما تسنّى له الاطلاع عليه من صِيغ تفاعلٍ مع مرويات وموادّ مُصوَّرة.

وفي اعتقادي أنّ هذا ميدان تفكُّرٍ بالغ الأهميّة، وإن يكن قاسيًا، وأنّه يقول لنا وعَنَّا، وعن الإنسان، أكثر مما تقول السياسة وأكثر مما يقول الدين، وبهما، أكثر من غيرهما، تتّصل تجارب الفظيع في عالم اليوم.

•

ما هو الفظيع؟ بالاستناد إلى تجارب سنوات الثورة والحرب في سوريا، يبدو الفظيع صفةَ ممارساتٍ وعمليّات عنيفة تطال الأفراد والجماعات والبيئات الحَيّة، فتُدمِّرها وتُخرجها من أشكالها المعلومة إخراجًا عنيفًا. الفظيع كذلك صفةٌ لما يطال الأفراد والجماعات والبيئات الحَيّة من خرابٍ بفعل الإيذاء الشديد المُتعمَّد.

وهـو يقتـرن فـي كلّ حـالٍ بالألـم، بدرجـات مـن الألـم تتجـاوز الحـدّ الـمألوف ولا تُطـاق. الأشـكال هـي مـا نتعـرَّف علـى الأشـياء مـن خلالهـا، فـنَأمن لهـا ونشـعر بالإلفـة حيالهـا، وقـد ننجـذب إليهـا فـنَصِفُ الشـيء بأنـه «جميـل»، أو ننفـر منهـا ونَصِـفُ الشـيء بأنّـه بشِـع أو مُنفّـر. نتكلّـم علـى فظاعـة التعذيـب، وعلـى دمـارٍ فظيـع وعلـى مـوت فظيـع، وعلـى صـور فظيعـة، حيـن يصدمنـا مـا نـرى أو نسـمع عنـه، وهـو يصـدم لـما فيـه مـن خـرابٍ للشـكل، نتصـوّره مقـترنًا فـي كلّ حـال بالألـم الـمبرّح، وربمـا مفضيًـا إلـى الـموت. أقتـرح أنّ الفظيـع درجـةٌ متقدّمـة مـن الخـراب، تصيـب نظـام الجسـد أو الـمجتمع أو البيئـة الحَيّـة بفعـلٍ قصـديّ، فتتحطَّـم أشـكالها تحطّمًـا منكـرًا، يحـول دون التعـرّف عليهـا والإلفـة بهـا، وتبـثُّ فـي النفـس شـعورًا بالخـوف والقلـق مـن الـموت. اسـتقرار الأشـياء فـي أشـكالها لا يسـتوقف النفـس؛ مـا يسـتوقف، مـا قـد يُسـمِّر ويشـدّه (غيـر الجمـال الخـارق)، هـو خـراب الشـكل، الخـراب العنيـف وليـس التهـدُّم الطبيعـيّ أو التفسّـخ الطبيعـيّ لـما هـو حَـيّ. هـذا عـدا جسـد الإنسـان الـذي، حتّـى حيـن يمـوت موتًـا طبيعيًّـا، يُصـان، ويُحـاط بطقـوس خاصّـة، ويُدفـن، تجنّبًـا لـما يثيـره تفسّـخ جسـده مـن قشـعريرة فـي كيـان البشـر بفِعـل التماهـي الطبيعـيّ.

فـي كلّ حـال الصِّلـة قويـةٌ بيـن الفظيـع والـموت. قـد ينجـو مَـن نالتـه الفظاعـة، تعذيـب فظيـع أو إصابـة فظيعـة فـي قصـف، لكـنّ الفظيـع قريـنٌ لـموتِ الحـي.

فـي الفظيـع جانـبٌ معرفـيّ يتّصـل بخـراب الشـكل وعـدم التعـرُّف (مـا هـذا؟)، وجانـبٌ سـيكولوجيّ يتّصـل بمـا يبـثُّه خـراب الشـكل مـن خوفٍ وقشـعريرة وفقـدان للأمـن (هـذا خطـر!)، وجانـبٌ جمالـيّ يُحيـل إلـى النفـور مـن اضطـراب الشـكل وخرابـه (هـذا بشـع!).



يُثيـر الفظيـع فـي النفـس مشـاعر يتمـازج فيهـا الخـوف والكـره والنفـور، وكذلـك الانجـذاب والفتنـة. قـد لا نقـدر علـى الـمشاهدة أو نرفـض الاسـتماع أو القـراءة، وقـد نُغطِّـي أعيننـا أو وجوهنـا فـي ردّ فعـلٍ تلقائـيٍّ أمـام مشـاهد الفظيـع، ونحـاول حمايـة أحبابنـا، والأطفـال بخاصّـة، إن صـادف وكُنـا علـى مشـهدٍ مـن الفظيـع. وهـذا لأنّ مـا فـي الفظيـع مـن مزيـج مـن الغرابـة والخطـر والبشـاعة، يُولِّـد لدينـا شـعورًا بـأنّ مـا يجـري لإنسـان أو لحيـوان مـن إيـلام وتحطيـم يجـري لنـا، فـنرتدُّ تلقائيًّـا مُبتعديـن. نتماهـى للحظـة بمَـن تعـرَّض للتَّـفـظيع فـتخـتلج أعماقنـا، ويبـرز لدينـا ميـلٌ قـوي إلـى الهـروب أو التجنّـب.

لكـن يحصـل ألّا نفعـل، أن نُقـاوم نـازع الفـرار والتجنّـب، أن نُطـوِّع أنفسـنا علـى مشـاهدة مـا لا نريـد فـي الوقـت نفسـه أن نشـاهده. فـي الفظيـع مـا يشـدُّ ويفتِـن، مـا قـد ننشـدّ إليـه مثـل الـمسحورين، ربمـا لأنّـه غريـب، نتوقّـف أمامـه لنعـرف مـا هـو، ولأنّـه خطـر نريـد تبـيُّن مـا هـو كـي نُجيـد تجنبـه أو مواجهتـه، ولأنـه بشـع شـنيع، نريـد إدراك نظـامٍ مـا فيـه يُقلـل مـن شـناعته. تقِـلُّ بشـاعة الأشـياء حيـن نُـدرك نظامهـا، نتبيّـن لهـا شـكلًا، ونُدرجهـا فـي شـرح معقـول. ولعـلّ الفظيـع يُخاطـب فينـا مـن وجـه آخـر النـزوع إلـى الاسـتثنائيّ والعجيـب والشـاذّ، النـادر فـي كلّ حـال، رؤيـة مـا لا يُـرى عـادة، ولأنـه لا يُـرى ولأنّـه اسـتثنائيّ فهـو موضـوع لحكايـة أو لتصويـر، لفرصـة ليسـت متاحـة دومًـا فـي انتــزاع انتبـاه آخريـن.

وربمــا ننشــلُّ أمــام الفظيــع عبــر تنــازع هذيــن الدافعَيــن، النفــور والانجــذاب. الفظيــع فاتــن، يُدهــش بغرابتــه واســتثنائيّته بقــدر مــا يُشـوِّش الذهـن بالأشـكال الـمُخرَّبة ويزلـزل النفـس بلحظـة التماهـي، ويخيـف بارتباطـه بالــموت.



وعبـر اتِّصالـه بالشـكل الغريـب الـمنكر مـن جهـة، وبالخـارق الشـنيع مـن جهـة ثانيـة، فـإنّ الفظيـع هـو الـمستحيل، مـا اسـتحال إلـى شـيء غيـر نفسـه، دون أن تكـون لـه نفـس جديـدة يمكـن التعـرّف إليهـا، وكذلـك مـا هـو ممتنـع وغيـر ممكـن، وموجـود مـع ذلـك. الفظيـع هـو الـمستحيل الـموجود أمامنـا. لكـن يتعلّـق الأمـر بمسـتحيل مُتولِّـد عـن عنـف، بتحطّـم الشـكل وخرابـه، وليـس بتداخـل الأشـكال الـذي قـد يخلقـه الخيـال، أو بالتعفُّـن والاهتـراء اللذيـن تتسـبب بهمـا الطبيعـة.

وبوصفـه مسـتحيلًا مُحقّقًـا، لعـلّ مـا يقابـل الفظيـع هـو العجيـب، الشـيء الـذي لا شـكل معلومًـا لـه مثـل الـرّخ والعنقـاء، لكـنِ الـمنفصل عـن العنـف والألـم والـموت، ولا يثيـر الخـوف منهمـا. بيـد أنّ العجيـب نِتـاج الحكايـة، فيمـا الفظيـع مناسَـبةٌ مُحتـمَـلةُ الحِكايـة.

أُنـتج الفظيـع يوميًّـا فـي سـوريا في السـنوات الـمنقضية، وأتيحـت صورٌ لـه أو مشـاهد أو معلومـات أو تقاريـر، بحيـث صـار خبـرة اجتماعيّـة واسـعة النطـاق، تُتـداول قصصهـا يوميًّـا فـي كلّ بيئـات السـوريين، وصـار الـمجتمع السـوري مجتمـع فظاعـة، يُنـتِـج وتُـنـتَج فيـه مقاديـر كبيـرة مـن الغرابـة والخطـورة والبشـاعة، مـن الخـوف والنفـور والكراهيّـة، ومـن التحطّـم والألـم والـموت العنيف... ومن الـمستحيل.

مـا يكـون حـال مجتمـعٍ خبـر الفظيـع إلـى هـذه الدرجـة؟ سـيكون علينـا قـول شـيء عـن هـذا في ختـام هـذا الـمقال.

•

مـسالك قـد يمكـن التمييـز بيـن أربعـة أنـماط مـن التعامـل مـع خبـرة الفظيـع.

أوّلها، وأشيعها، أن يَغضب الناس ويثورون، يُدينون الفظاعة ومرتكبيها، ويعملون على أن يُشاركهم في إدانة الفعل ومرتكبيه أوسع دوائر ممكنة. يستفظع الناس تعذيب طفل وقتله وقطع قضيبه، أو تعذيب طبيب واقتلاع عيونه وقتله، أو قصف مدينة بالبراميل المتفجرة حتى تصير أنقاضًا، أو قتل ألوف تحت التعذيب، أو تجميع أشلاء مدنيين من حقل أو مبنى مهدّم بفعل القصف بالقنابل الفراغيّة، أو مشهد الأطفال الموتى في مذبحة كيمياويّة... ويستجيبون لذلك بالغضب أوّل ما يستجيبون.

بعد الغضب تأتي الإدانة، وهي محاولة لتجريم المرتكبين وعزلهم، وربما إعداد الظروف من أجل عقابهم يومًا، وفي الوقت نفسه فعل تطهُّر شخصيّ وجمعيّ. وقد يجري احتجاجٌ منظّم حيث يكون ذلك ممكنًا، مظاهرة أو اعتصام أو إضراب عن الطعام ...، يُثبِّت الاعتراض الكلاميّ عليه والاحتشاد ضده. هذا فعل دفاع اجتماعيّ، يعمل على عزل الفظيع خارج المجتمع، وحماية المجتمع منه.

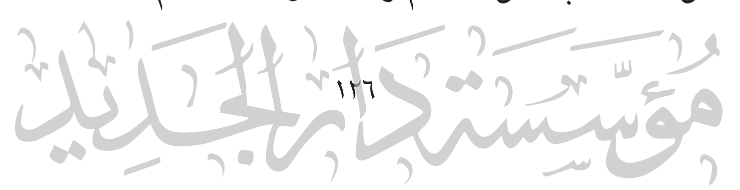
لكن مع التكرار، أي مع تحوّل الفظيع إلى تجربةٍ يوميّة وصُموده في وجه الاعتراض عليه وإدانته، وهذه تجربة محقّقة في سوريا أيضًا، يتخامد أثر هذا النمط من رد الفعل ويفقد أثره، وينقلب الغضب والاستفظاع والإدانة إلى طقسٍ مُضجِر متراجع الأثر. وبعد قليل يغدو مثيرًا للسخرية. وقد يكون اللعن، لعن المُفظّعين في البداية، ثم لعن العالم، ثم لعن النفس، ثم لعن كلّ شيء، وهي تعابير شائعة في تداول السوريين في سنوات الثورة، أطوارًا متقدّمة من «دورة حياة» هذا المسلك في التفاعل مع الفظيع. وربما يكون اللعن، من جهة أخرى، تعبيرًا عن العجز أو عن الافتقار إلى القوّة لتغيير الواقع الفظيع المدان.



يحصل أن يستمرّ طويلًا مسلك الغضب فالإدانة فاللعن، ممتزجًا بالإحباط، رغم فقدان مفعوله. وهذا لأنّه آلية تطهُّر، ثمّ لأنّ المُدين (محترف الإدانة) تحول في سوريا، وفي فلسطين ودول عربيّة أخرى، وفي العالم، إلى دور عام، يشغله أفراد ومنظّمات، ويرتبط بمواقع ودخول. ولأنه ارتبط بصورةٍ ما مع صناعة حقوق الإنسان التي ترتبط بدورها بكارتلات دوليّة لتلك الصناعة وبيروقراطيّتها.

المسلك الثاني يتمثّل في التجنُّب والصمت. الفظيع المتواتر يكسر الكلام والفعل. يشعر المرء بأن ما يجري يتحدّى القدرة على قول كلامٍ مفيد أو اعتراض مؤثّر، بل إنّ الكلام والاعتراضات المعتادة (الإدانة الشخصيّة، بيانات إدانة جمعيّة، تجمّعات احتجاجيّة، ...) تُمسي أقرب، بقدر ما تتكرّر، إلى إهانة لمَن حُطمت حياتهم وأجسادهم، وإهانة للنفس أيضًا. يشعر أيضًا بأنّ ما يجري يغمره، ويفيض من كلّ جانب عن قدرته على الاستجابة، أنَّ دفق الفظيع يتخطّى طاقات المرء على الاستيعاب والتنظيم، فيصمت. قد لا يصمت عن الكلام فقط، وإنما عن التفاعل أيضًا، ينزوي وينسحب. يتوقّف عن الاختلاط بمجتمع الفظيع، ليس فقط المجتمع المُعرَّض للفظاعة وتنتاب أفراده ومجموعاته انفعالات الخوف والنفور والكره، والغضب المحبط، وإنما كذلك المجتمع الذي يتداول قصص الفظاعة ومحاولات فعل شيء حيالها لا تترك أثرًا في النهاية. هذا مسلك تحلُّل اجتماعي، ملحوظ على نحو متواتر ومتفاقم في بيئات السوريين، نبتعد عن بعضنا نافرين من بعضنا لأنّنا نريد توفير الألم والإحباط على أنفسنا وبعضنا.

وقد يكون الصمت الطورَ الأخير في سلسلة تبدأ بالغضب فالإدانة فاللعن، ننسحب من الكلام والتفاعل لأنّنا لم نعد نحتمل، ولا



نريد أن نفكّر ونتذكر، ونغضب من جديد. نبتعد. وقد نختار درب «المنفى» إن لم نكن خرجنا من قبل مُهجَّرين أو لاجئين.

ويشيع نمط رد الفعل هذا عند أشخاص حسّاسين، يبهظهم شعور بالعجز والشلل حيال فداحة ما يجري، ولا يريدون أن ينضمّوا إلى طائفة المُدينين، الهواة منهم والمحترفين. يبتعدون صونًا لكرامتهم الشخصيّة وكرامة من تقع عليهم الفظاعة.

المسلك الثالث هو الإبداعية أو خلق الأشياء والأفكار والأوضاع الجديدة. يحاول بعضنا بطرق مختلفة، بالكلمات، بالألوان والصور والنغمات والأداءات، أن يستجيب لخبرة الفظيع المُحطِّم للأشكال بخلق أشكال جديدة. من المحتمل أنّه تُحرِّك المبدعين إرادةُ مواجهة الموت عبر «خلق» حيوات جديدة. الفنّ، والفاعليّة الإبداعيّة عمومًا، تحاولان عبر الاشتغال على ما هو غريب وخطر وبشع، مستحيل، الفظيع، أن تُبقياه في الذاكرة وتمنعا جرف النسيان له، لكن بعد فكّه عن الموت، وربطه بانفعالاتٍ مغايرة. فإذا كان أسوأ الفظيع ما فيه تفنُّن و«إبداع» في التنكيل وتخريب كيان الحي، فإن أعظم الفن والإبداع ما هو «فظيع» في تمثيل الفظيع، متمرّد على المألوف وخالق لكائنات جديدة وأشكال جديدة. وفي مواجهة الغريب الخطير البشع، الذي يُنفِّر ويُثير الخوف والكره والتجنّب، يُنتِج الإبداع غريبًا لا يُقلِق، وخطيرًا لا يخيف، وبشعًا لا يُنفِّر. لكن ليس ما يُحفِّز التمثيل الإبداعي للفظيع بالضرورة هو نزع غرابة الفظيع أو الحيلولة دون نسيانه، بل ربما أكثر، الاحتفاء بالألم البشري وتكريمه، وحفز الجهود الجماعيّة على ألا يتكرّر.

«فظيع» الإبداع ليس غير آيلٍ إلى الموت فقط، بل هو مقاوم له، وعابر للزمن. وبدل الانجذاب المسحور إلى المستحيل الآيل

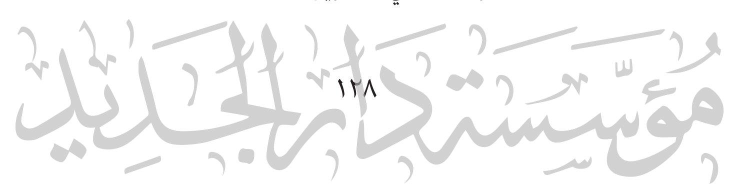


إلـى الــموت، يُنــتِج الإبـداع مسـتحيلًا مـن نظـام آخـر، يُذكِّـر بالفظيـع عبـر تمثيلـه بصـورة مـا، وفـي الوقـت نفسـه يجتـذب عبـر الاختـلاف أو الفـرادة، يدهــش ويفتــن، فيدفـع بالأحـرى إلـى التأمّـل والاقتـراب.

وبقــدر مــا إنّ الفظيـع ينحفـر فـي الذاكـرة، مقاومًـا التقـادم والـزوال، تحتــاج الإبداعيــة فــي مواجهــة الفظيــع إلــى أن تفعــل شــيئًا مشــابهًا، يصـدم أيضًـا ويُغــيِّر بــقدرِ معاينـة الفظيـع. غرنيـكا بيكاسـو لا تسـتوقف لأنهـا تمثيـل «فظيـع» للفظيـع فقـط، وإنــما كذلـك لأنّهـا تسـتقطب النظـر وتسـتبقي الصـورة فـي الذاكـرة. وهــي احتفـاء بمأسـاة القريـة الإسـبانيّة، ووثيقـة يُسـتند إليهـا لــمقاومة تكـرار الفظاعـة. لا يسـتطيع الفـن ولا تسـتطيع الثقافـة مواجهـة الفظيـع دون خـروج علـى الأشـكال الفنّيـة والثقافيّـة السـائدة، دون فظيـع إبداعـي.

أنتـج سـوريّون أشـياء متنوّعـة فـي التفاعـل مـع الفظيـع، تحـاول كلّهـا أن تُخـزِّن هـذه التجربـة فـي الفـن والثقافـة، وأن تَحـول دون سـقوطها فـي النسـيان. لكـن فـي كلّ مـرة تواجهنـا تجربـة الفظيـع، وقـد واجهـت كلًّا منـا مئـات الــمرات منـذ بدايـة الثـورة، نشـعر بـأنّ التحـدّي يتجـدّد، وبأن الفــن والثقافــة، واللغــة، تقــف عاجــزة أمــام الدمــار الواســع للأشــكال. وهـو مـا ينبغـي أن يكـون حافـزًا لثـورةٍ فـي الثقافـة، فـي الفكـر والأدب والفــن والأخلاقيّــات، وفــي الاجتمــاع والسياســة والديــن، أي فــي صنــع الأشـكال والقواعـد، ثـورة يبـدو أنّهـا وحدهـا مـا يمكـن أن تنصـف وتُكـرِّم الهـول الــذي يَخبَــره الســوريّون. ليــس غيــر ثــورة فــي إنتــاج الأشــكال والصـور هــي مـا تـردُّ علـى هـذا الفقـد الهائـل للأشـكال والصـور فـي بلدنـا طـوال أربـع سـنوات ونصـف السـنة.[١]

(١) كان هذا الفصل قد نُشر كمقال في ٩ تشرين الأول ٢٠١٥.



لكنّ رهان الإبداعية في مواجهة الفظيع لا يتعلّق باستيعاب الفظيع ذاته، أو بمن طالتهم الفظاعة مباشرة؛ هذا بُعد تكريميّ، يمكن أن يكون مهمًّا كتعبير عن إرادة طيّ صفحة الفظيع وفتح صفحة جديدة آمنة، لكنّ الإبداعيّة فعل خَلق للأشكال الجديدة، مُوجَّه إلى النفس والمجتمع والثقافة. عبر محاولة السيطرة على الفظيع والحدِّ من تأثيره المُحطِّم للنفس والمجتمع تُحوِّل الإبداعيّة الفظيع، فنيًّا وأدبيًّا وفكريًّا، إلى خبرة عامّة، تجربة فرديّة وجماعيّة نشترك فيها مع من عاشوها وعانوها مباشرة.

يُعاكس الفن والثقافة ميلنا التلقائيّ إلى تجنّب الفظيع عبر تمثيله وترميزه على نحو يُشجّعنا، بالأحرى، على الاقتراب والمعاينة. فمن ناحية يُعاد إنتاج الفظيع على نحو مغاير بحيث لا ننفر منه ونحاول نسيانه، بل نقترب منه ونقف عنده ونتملّاه، ومن ناحية ثانية نشترك مع آخرين في تملُّكه عبر الفن والثقافة. بهذا نُحوِّل الفظيع من تجربة مُدمِّرة للمجتمع إلى فعل مشاركة وتقارب، اختراع لشراكة ومجتمع، تذكُّر الهول المشترك، تَمثُّله، والاجتماع حول سبل مواجهته ونفيه.

وفي هذا ما يُشكِّل استئنافًا للإبداعية الاجتماعية غير المرئيّة غالبًا، التي واجه بها ما لا يُحصى من السوريّين الفظيع، وتدبّروا معالجات وحلولًا عمليّة تُمكِّنهم من الاستمرار في العيش وإضافة بعض المعنى لعيشهم. توليد المعاني والأشكال الجديدة ليس منفصلًا عن إبداعيّة عموم الناس هذه، ولن يُثمِر إن انفصل عنها. لقد قاد العنف المهول وتحطّم بيئات الحياة إلى الفصل بين الحاجات الثقافيّة والحياتيّة اليوميّة، أو إلى الفصل بين الإبداعية الثقافيّة وإبداعيّة تدبُّر شؤون الحياة في شروط بالغة القسوة. أو لنقل إنه



قاد إلى تعزيز انفصالٍ أقدم بين عالمين في بلدنا، عالم ثقافيّ منفصل ولا اجتماعيّ، وعالم اجتماعيّ معزول ولا ثقافيّ. ولطالما تكفَّلتْ بإعادة إنتاج انفصالهما هياكلُ سلطةٍ تستأثر بإنتاج الفظيع وتعميمه اجتماعيًّا. تجربة الفظيع يمكن أن تكون منطلقًا لمواجهة هذا الانفصال القديم ولأشكاله القصوى الجديدة في سنوات الثورة والحرب، بقدر ما هي مَعنية بإعادة بناء السياسة على نحو يَفصلها هي عن الفظاعة.

والثورة في الأصل وفي بدايتها فعلُ إبداعٍ جماعيّ، مُنتِج لوضعيّات وأُطُر اجتماع وعمل جديدة، ولذاتيّات جديدة مُتحرِّرة. والإبداعية في مواجهة الفظيع هي إعادة تملك لهذا النازع التحرري، بقدر ما هي جهد للربط بين الثقافة والمجتمع يستند إلى خبرة الفظيع ويعمل على الحيلولة دون تولُّد الشروط الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافية لهذه الخبرة مجدّدًا.

من شأن خبرة الفظيع ومواجهتها الإبداعيّة أن تكون منطلقًا لإعادة اختراع النفس وتغييرها أيضًا. فبقدر ما إنّ الفظيع تجربةٌ مُحطِّمة لشكلنا وكياننا، لهويّتنا/ هويّاتنا، فإنّ من شأن التفكير فيه وتحويله إلى ثقافة وفن وحياة مغايرة أن يُحوِّل المشتغلين عليه، يُغيِّر شكلهم، ويساعد في تحوّل غيرهم. المشترك بين الفظيع والإبداعيّ هو مركزيّة الشكل في كلٍّ منهما. وهذا ما يجعل من الإبداعيّة الرد الأكثر خصوبة وجدية على الفظيع. الإبداعيّة التي يجري الكلام عليها ليست مجرد إنتاج أشكال جديدة لأشياء تقع خارجنا، بل هي إنتاج أشكال جديدة لنا، أي ثقافة جديدة وقيم جديدة ومسالك جديدة؛ وهي أيضًا ليست فعل أفراد منعزلين أو مجموعات محدودة، بقدر ما إنها نشاط اجتماعيّ يستجيب للصفة الاجتماعيّة العامّة لخبرة الفظيع.



وعبـر صنـع الأشـكال يمكـن لـمواجهة الفظيـع بالإبـداع أن تكـون تجربـةً بانيـة لهويّـاتٍ جديـدة وصـور جديـدة للحيـاة ولثقافـة الـمجتمع. ومَـن لديـه قـوى توحُّـش وخـراب مثـل الأسـديّين والدواعـش جديـر بـه أن يُفكّـر بالهويّـة كمشـروع خلـق جديـد، كابتكار مغايـر للنفس والـمجتمع، للــمعتقدات والثقافـة. فـي هـذا أيضًـا مـا يمكـن أن يصـون كرامتنـا كسـوريين ويؤكّـد اسـتحقاقنا السياسـيّ والثقافـيّ.

ثـم إنّـه عبـر خلـق الأشـكال وإبـداع ثقافـة ومعـانٍ جديـدة نواجـه أيضًـا أحـد أبـرز منابـع الفظيـع فـي حياتنـا اليـوم: الـمنبع الإسـلاميّ، الـذي يُحـرِّم الخلـق الفنـيّ، أو يتقبـل بعـض أشـكاله الكلاميـة فقـط. هـذا يُضعـف قـدرة الإنسـان علـى صنـع «الحضـارة»، الأشـياء التـي ترفـع مـن اسـتحقاق الإنسـان وجدارتـه، فكأنّهـا تعيـد خلقـه، وتحـدّ مـن احتمـالات التفظيـع بـه. إنـكار الإبداعيّـة واستسـهال القتـل يسـيران يـدًا بيـد، بالـمقابل.

بالطبـع الـكلام علـى الإبـداع أسـهل مـن الإبـداع ذاتـه. لكـنّ تجربـة الفظيـع هـي تجربتنـا، وكثافتهـا الـمأساويّة تخصنـا وحدنـا، وأخذهـا بجديـة وصبـر، والتعامـل معهـا عبـر الفـن والثقافـة هـو مـا قـد يسـاعد فـي نـزع سُـمِّيتها وفاعليّتهـا التدميريّـة، وقلبهـا، بالعكـس، إلـى تجربـةِ تقـاربٍ واشـتراك. مـن هـذا البـاب فـإنّ محاولـة تملّـك تجربـة الفظيـع عبـر الثقافـة والفـن هـي فـي الوقـت نفسـه إعـادة بنـاء للثقافـة والفـن، والـمجتمع، حـول هـذه التجربـة.

وبمـا أنّ الفظيـع تجـاوزٌ للـمقدار فـي الشـدّة والشـناعة بحسـب «لسـان العـرب»، أي بمـا أنـه اسـتثناء وخـروج علـى موازيـن مألوفـة، فـإنّ الإبـداع، وهـو اسـتثناء مسـتمرّ واختـلاف مسـتمر وخـروج مسـتمرّ، يمكن أن يسـتمدّ مـن خبـرة الفظيـع ذاتهـا إلهامًـا، دافعًـا إلـى «الخلـق»، صنـع



أشـكال جديـدة، يصعـب تصـوّر أنـه يمكـن أن يسـتمدّها مـن مصـدر آخـر.

الـمسلك الرابـع فـي مواجهـة الفظيـع هـو القـوّة، الـردّ بالقـوة علـى تخريـب الأشـكال بالقـوة. الفظيـع نِتـاج أفعـال سياسـيّة لفاعليـن سياسـيّين مدركيـن لـما يفعلـون، ويجـب تدفيعهـم الثمـن. الفظيـع الـمُتولِّد مـن عنـف هـؤلاء الفاعليـن لا يُواجَـه بالاسـتنكار ولا بالصمـت والانسـحاب، يُواجَـه بالعنـف. إن لـم يكـن لـمعاقبة مرتكبـي الفظاعـة وتجريعهـم مثلهـا، فلرَدعهـم.

كسياسـةٍ عمليّـة، يمكـن لهـذا الـمسلك أن يكـون مجديًـا إن لـم يتأخّـر فـي تحقيـق هدفـه: العقـاب، أو علـى الأقـل الـرَّدع. لكنّـه إن أخفـق، وهـو مـا وقـع فـي سـوريا منـذ تسـارع انهيـار الإطـار الوطنـيّ للصـراع بـدءًا مـن النصـف الثانـي مـن عـام ٢٠١٢، ربمـا تتعمَّـم الفظاعـة، ويعـمّ فقـدان الأشـكال فـي الـمجتمع، وتظهـر لدينـا مجتمعـات فظاعـةٍ متعـدّدة، تتبـادل الكـره والخـوف والنفـور.

ويبـدو أن احتمـالات هـذا الـمسلك تزيـد كلّمـا قلَّـت الثقـة بنُجـوع الـمسالك الثلاثـة السـابقة. الغضـب والإدانـة لا أثـر لهمـا علـى مُفظِّعيـن جدّييـن مثـل الدولـة الأسـديّة، أو مثـل داعـش اليـوم، والصمـت فعـل انسـحاب وتسـمُّم ذاتـي. والإبداعيّـة الثقافيّـة لا تـزال فعـلًا نخبويًّـا، محـدود التأثيـر الاجتماعـيّ، ولا يبـدو فـي مسـتواه الحالـي مؤهّـلًا لإعادة اختـراع الـمجتمع والثقافـة والحيـاة.

فلنُواجه الفظيع بمثله، ولنردَّ على الألـم بالألـم.

ميـزة هـذا الـمسلك عـن غيـره تتمثّـل فـي أنّـه سياسـيّ. فبمـا أنّ الفظيع سياسـة، فعـلٌ سياسـيّ لفاعليـن سياسـيّين، فـإنّ السياسـة هـي الـميدان الـمركزيّ للـرد عليـه، والـمُفظِّع الـمُعنِّد بالـذات لا يتصـوّر أن تجـري



مواجهتـه بغيـر تحطيمـه. ليـس هنـاك خطـأ منطقـيّ أو أخلاقـيّ فـي هذا الطـرح فـي تصـوّري. ولا يبـدو أنّ أحـدًا يجـادل فـي صحّـة هـذا التقديـر بخصـوص داعـش. ومـا يُحتمـل ظهـوره مـن مجادلـة بخصـوص الدولـة الأسـديّة، وهـي قـوّة تفظيـع مثابـرة وعنيـدة، يتّصـل علـى الأرجـح بـإرادة حمايـة أوضـاع اسـتثناء وامتيـاز اجتماعيّـة وسياسـيّة، هـي منبـع الفظيـع الــمتمادي فـي البلد.

الــمشكلة فـي سـوريا اليـوم لــم تتولَّد مـن الرد الاضطـراريّ علـى العنيف بأدواتـه، بـل بالضبـط مـن التباعـد بيـن أفعـال الـردّ وبيـن هـذا الهـدف السياسـي لأسـباب متنوّعـة. مشـكلة تشـكيلاتٍ مقاتلـة فـي سـوريا اليـوم ليـس أنهـا تواجـه الدولـة الأسـدية الــمعتدية والعنيفـة بالعنـف، بـل بالضبـط فـي أنّهـا لــم تعـد تفعـل ذلـك إلّا عرضًـا، وأنّ اهتمامهـا يتوجَّـه إمّـا إلـى تأكيـد سـلطةٍ ذاتيّـة فـي مناطـق خاصّـة، و/أو إلـى انضبـاط مواجهتهـا للأسـديّين بخِطـط قـوى إقليميّـة ودوليّـة، هـي التـي تُحـدِّد لهـا مـاذا تفعـل ومتـى وأيـن. بعبـارة أخـرى، انفصـل الـردّ بالعنـف علـى العنيـف العـام عـن رؤيـة سياسـيّة تهـدف إلـى «إسـقاط النظـام»، أي كعنـف ثـوري وكخطـوة نحـو الفصـل بيـن السياسـة والفظاعـة. آل الأمـر إلـى عنـفٍ بـلا سياسـة، يحصـل أن يسـتند إلـى الديـن، فيُنـتِج فَظيعـه الخـاص، وإلـى سياسـةٍ لا سـند لهـا مـن القـوة، عاجـزة عـن التأثيـر فـي سـير الأحـداث. الفظاعـة بقيـت سالــمة، فظاعـة الأسـديّين، وانضافـت إليهـا فظاعـة داعـش، وفظاعـات أدنـى لــمجموعات أخـرى.

•

الفظيـع والعنـف فـي السِّـياق السـوريّ الــمعلوم، وأهـم خصائصه اسـتمرار الصـراع أمـدًا طويـلًا قياسًـا إلـى مـا كان مُقـدّرًا فـي البدايـة، اتّسـعت ممارسـة الفظيـع مـع الزمـن. الفظيـع مرتبـط بالعنـف حتمًـا،

وبالتحديد بما يتسبَّب به العنف من تخريبٍ لأشكال الأشياء. لا فظيع دون عنف. لكن هل يؤدي العنف بالضرورة إلى الفظيع؟ كلمة الفظيع في العربية تُحيل إلى شدّة «مُتجاوزةٍ للمقدار» كما سبقت الإشارة. ما هو المقدار؟ المسألة ثقافيّة وتاريخيّة. يمكن تصوّر أوضاع ثقافيّة واجتماعيّة يُعتبر كلّ عنف فيها متجاوزًا للمقدار وفظيعًا. يتّجه المتعلّمون من الطبقة الوسطى العلمانيّة في العالم كلّه إلى اعتبار ضرب الأطفال فظيعًا، لكن في طفولة جيلنا لمّا يكن يُعتبر فظيعًا بحال. ولا يبدو أنّ أيّ دولة في العالم مستعدّة اليوم لقبول أنّ العنف الحربيّ فظيع، وتوسَّعت ممارسة التعذيب في العالم منذ مطلع القرن واعتماد «الإرهاب» كاسمٍ للشرّ السياسيّ الأساسيّ، ولم تتراجع. وتعرّضتُ شخصيًّا للتعذيب وقت اعتقالي عام ١٩٨٠، لكنّي أتردّد في استخدام كلمة فظيع في وصفه: كان مؤلمًا جدًّا، لكن ليس مُحطِّمًا، ولم يُدمِّر شكلي. لكن كان تعذيب بعضنا فظيعًا، وبخاصّة تعذيب الإسلاميين.

من حيث علاقته بالعنف، قد يمكن التمييز بين الفظيع كفِعل والفظيع كنتيجة. كنتيجة، الفظيع هو فقدان الشكل كما سبق القول، والعنف الفظيع هو ما يُحطِّم أشكال الأشياء، لكن الفظيع يمكن أن يكون خاصّية التعذيب أو القتل أو التدمير حين يكون مقترنًا بـ«تجاوز المقدار»، بإرادة التفظيع إن جاز التعبير. وأفظع الفظيع ما يُمازجه دأب وصبر، و«فن»، ومباشرة شخصية. ومنه، مثلًا، التعذيب في سجن تدمر على نحو ما وصفه مصطفى خليفة في «القوقعة» وبراء السرّاج في «من تدمر إلى هارفارد». وربما يجب القول إنّ الفظيع هو حتمًا نتاج تفظيعٍ واعٍ ومُتعمَّد، يريد أن يحطّم المستهدفين، أو أن يُبيدهم. تُرى أليس الفظيع إبادة لم تكتمل؟ الإبادة المثاليّة هي التي تمحق جميع المستهدفين، وتبيد



حتّى ذكرهم. ليس مراد المُبيدين تحطيم الشكل، بل إبادةَ الكائن. تَحول دون ذلك عوائق تكنولوجيّة، وأحيانًا رغبة المُفظِّعين في ترك بعض المُفظَّع بهم «عبرة لمن يعتبر»، وتلقين مجتمعهم كلّه «دروسًا لا تنسى». يتركون أمثلة تبقى في ذاكرة المَعنِيِّين وبيئاتهم الاجتماعيّة، بغرض الترويع والردع. إسرائيل أستاذة في هذا الشأن. والأسديّون. وداعش يبدو على إلمام ممتاز بهذا «الفن» نفسه.

ومَن يُنتِج الفظيع هو قوةٌ لا قانون لها أو دستور أو قاعدة مطردة، أي لا شكل، مثل داعش والأسديين. إنها السلطات التي تتصرف كقوة سيادية، كلّ أفعالها استثناء، إن كان يمكن تصوّر شيء كهذا، وكلها «إبداع».[٢]

الفظيع عاقبةٌ محتملة للعنف الحربيّ الذي هو فعل قوى سيّدة، لكنه ليس هو. فمَقتل مقاتل شابٍّ مسلّح بقذيفة تهرس جسده، هو شيء بشع، لكنه ليس فظيعًا، لأنه ليس خارج المتوقّع، وليس «متجاوزًا للمقدار» أن يُقتل المقاتل الشاب قتلًا عنيفًا يحطّم جسده. لكن مقتل شاب بعمره غير مسلح، كان في طريقه إلى عمله أو إلى فرن الخبز لأطفاله هو فعل فظيع. ومقتل خمسين مقاتلًا في هجمة واحدة ليس فظيعًا بقدر مقتل خمسة مدنيّين كانوا يقفون على فرن خبز، جرى تعمّد قصفهم مثلما فعل النظام في آب ٢٠١٢ في مناطق حلب وحماه.

فكما سبقت الإشارة، لا يَنتج الفظيع عن العنف بحد ذاته، بل

(٢) أحيل في ذلك إلى مفهوم كارل شميت عن السيادة، وهو جعل الاستثناء في الدولة معادلًا للمعجزة في الدين. وكذلك إلى قراءة جيورجيو أغامبن للمفهوم، واعتبار الاستثناء قاعدة السلطة في عالم اليوم، وليس خروجًا على القاعدة. كتابه: **حالة الاستثناء**، ترجمة د. ناصر إسماعيل، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة ٢٠١٥.

عـن التنكيـل وإرادة الإبـادة. والإبـادة ليسـت فعـلًا عقابيًّـا، ولا هـي مـن إجـراءات العدالـة، أو تجـاوز العدالـة، ولا يمكـن أن تصـاغ فـي قانـون. ليـس القتـل ذاتـه فعـلًا فظيعًـا بالضـرورة، وحتّـى أحـكام الإعـدام الجائـرة قـد لا تكـون فظيعـة إن نُفـذت وفـق مسـطرة معلومـة مقـرّرة.

عنـف الأسـديين ليـس مفرطًـا كَـمًّا فقـط، وإنــما هـو مُنفلِـتٌ مـن أي قاعـدة عامّـة، واقتـرن بالفظاعـة وإرادة التفظيـع طـوال الوقـت: هـرس رأس رجـل بكتلـة إسمنــتيّة، طعـن رجـل حتّـى الــموت بحربـة، تعذيـب سـجناء حتّـى الــموت، القصـف الــمكثّف والــمتعمّد لــمنطقة سـكنية، هـذه كلّها ليسـت أفعـال عدالـة أو حتـى عقابًـا غيـر عـادل، إنهـا أفعـال ترويـع وإرهـاب. تفظيـع بتفنُّـن. ومـا هـو فـن، خلافًـا لــما هـو قانـون، لا يمكـن الاسـتناد إليـه مـن أجـل التوقّـع. فمفهومـه بالـذات يقتضـي الــمفاجأة واللّاتوقع.

كلّ تمثيـل بالأجسـاد الــمقتولة فظيـعٌ تعريفًـا، ليـس فقـط لأنّ التمثيـل يسـتهدف الشـكل مباشـرة، وإنــما كذلـك لأنّ التمثيـل لا يمكـن أن يكـون فعـلًا عقابيًّـا أو ممارسـة تقبَـل التقنيــن؛ إنـه فعـل إبـادة، لا يخاطـب مقتــولًا صـار خـارج الخطـاب، بـل جماعــة وراءه، يُنذرهــا بالقتــل. التفظيـع بشـخص واحـد هـو رسـالة جماعيّـة، خلافًـا للقتـل الــمتقشّف لشـخص أو حتّـى مجموعـة أشـخاص وفـق إجـراءات معلومـة ومقـرّرة سـلفًا. مشـاهد تمثيـل قـوات النظـام ومخابراتـه ببعـض شـهداء الثـورة الذيـن قتلـوا تحـت التعذيـب أو فـي معـارك، هـي فعـل إبـادة رمـزي لجمهـور الثـورة كلّـه.

لكــنّ قتـل شـخصٍ لأنـه لا يعـرف عـدد ركعـات صـلاة الصبـح فظيـع حتمًـا، حتـى لـو جـرى القتـل برصاصـة واحـدة. الفظيـع هنـا نسـبةٌ بيـن الإضـرار وبيـن الذريعـة، بيـن مـا يقـع علـى شـخص أو وسـطٍ مـن عنـف



وبيـن مـا يُسـوَّغ بـه العنـف. ليـس هنـاك عنـف ليـس فظيعًـا بحـقّ طفـل لأنّـه لا يمكـن أن يكـون عـادلًا أو مُسـوَّغًا.

النظـام وداعـش فظيعـان مُفظِّعـان مثـلًا. ليـس هنـاك أيّ وجـه لإنـكار صفـة الفظاعـة الـمتعمّدة عـن قتـل نحـو ٧٠٠٠ تحـت التعذيـب بيـن بدايـة الثـورة وآب ٢٠١٣، أو عـن الـمجزرة الكيمياويّـة فـي الغوطـة، أو عـن قصـف وتدميـر مـدن وبلـدات عديـدة، أو عـن قتلـى داعـش ومَصلوبيـها، أو عـن الرمـي فـي الهوتـة.[٣] يبقـى الصَّلـب شـيئًا فظيعًـا حتـى لـو كان الـمصلوبون قـد قُتلـوا قبـل صَلبهـم. الفظيـع نسـبةٌ مـن وجـه آخـر: بيـن ضميرنـا وتصوّرنـا للعدالـة اليـوم وأنـماط مـن العنـف صـارت غيـر مقبولـة. رمـيُ النـاس فـي الهوتـة أيًّـا تكـن جريمتهـم فظيـع. وهـو فظيـع بحقّهـم، فظيـع بحـقّ الـمجتمع الـذي تجـري فيـه مثـل هـذه الجريمـة، وفظيـع بالقـدر ذاتـه بحـق نظـام بيئـيّ حـي، بحـق الـماء والطبيعـة فـي الـمنطقة.

فـي كلّ حـال الفظيـع مرتبـطٌ بعنـف غيـر شـرعي وغيـر عـادل وغيـر منضبـط بقاعـدة عامـة. وفـي الغالـب بالعنـف الـمقترن بالكراهيّـة والتفنُّـن. الـمقدار نفسـه مـن العنـف يمكـن ألا يكـون فظيعًـا وألا يـؤدّي إلـى فظاعـة إن كان عقابيًّـا وفـق قاعـدة معلومـة مقـررة سـابقًا، ويكـون فظيعًـا ومُفـظِّعًا إن كان منفلتًـا مـن قواعـد معلومـة و«إبداعـيًّا».

والخلاصـة أنّـه ليـس هنـاك فظيـع يمكـن أن يكـون عـادلًا، وليـس هنـاك عدالـة يمكـن أن يكـون الفظيـع ممارسـةً مقبولـةً مِـن ممارسـاتها. لا سياسـة ولا ديـن ولا أيّـة أوضـاع خاصّـة يمكـن أن تُسـوِّغ التحطيـم

(٣) الهوتـة: انهـدام أرضـيٌّ غائـر قـرب قريـة الحمـام شـمال الرّقـة، كان داعـش يرمـي فيـه جثـث مـن قتلهـم، ويحتمـل أنّـه رمـى فيـه أحيـاء كذلـك. انظـر مقالـة أحمـد إبراهيـم، «الهوتـة»، ٣ آب/أغسـطس ٢٠١٥ الـمتاحة علـى موقـع الجمهوريـة دوت نـت.



الكيـديّ الــمقترن بالكراهيـة وإرادة إبـادة الأفـراد والجماعـات والبيئـات الحيـة.

•

الفظيـع والــمجتمع إذا كان الفظيـع متولّـدًا عـن مزيـج العنـف والكراهيــة، ومقترنًــا بالألــم والــموت، ومُركَّبًــا مــن الغرابــة والخطــر والبشـاعة. وإذا كان الــمحتوى الشـعوريّ لتجربـة الفظيـع يتكـوَّن مـن الخـوف والنفـور والكـره، فـإن مجتمعًـا يعيـش هـذه التجربـة لوقـت طويـل دونــما توقّـف، مثلــما يحصـل فـي سـوريا منـذ أربـع سـنوات ونصـف السـنة يتحطّـم هـو ذاتـه ويكـفُّ عـن كونـه مجتمعًـا. الخـوف يفصـل النــاس عــن بعضهــم ويدفعهــم إلــى الانكفــاء علــى أنفســهم وأوسـاطهم الضيقـة؛ والنفـور فعـل تباعـد وانكمـاش، عـن الفظيـع ذاتـه بدايـة، لكـن عـن مجتمـع تتواتـر فيـه تجـارب الفظيـع أيضًـا. نتكلّـم علـى الفظيـع كتجربـةٍ متكـرّرة، لا يـكاد يكـون أحـد مـن السـوريين بمنجـاة مـن معاينـة أمثلـة منهـا. وللكُـره مفعـولٌ مشـابه مـن حيـث أنّـه يدفـع إلــى التجنّــب والقطيعــة والعــداء. لكــنّ تجربتنــا منــذ بدايــة الثــورة تتجــاوز ذلــك. أُنتـج الخـوف والنفـور والكراهيـة بمقاديـر وافيـة فـي «سـوريا الأسـد» منـذ أواخـر سـبعينيّات القـرن العشـرين علـى الأقـل، واقــترن علـى نحـوٍ ظاهـر بتباعـد السـوريّين عـن بعضهـم وتراجـع ثقتهم ببعضهـم وبتدهـور مشـتركاتهم واجتماعيّاتهـم. أمـا مـا يجـري اليـوم فهـو قطـع روابـط السـوريين بالفـأس، عبـر تحطيم أجسـاد مـا لا يُحصـى منهم بالفـأس. لا يتعلّـق الأمـر بأوضـاع صعبـة، بانتهـاكات واسـعة النطـاق، بـل بمشــروع للقتــل الجماعــيّ لــم يعــد يســتطيع أن يتوقّــف عــن القتــل خشـيةَ أن ينهـار. ومثلــما كان لــدى معظـم السـوريّين البالغيــن منــذ ثمانينيّــات القــرن العشــرين «تجربــة أمنيّــة» تتــراوح بيــن الاســتدعاء

والتحقيـق، والتخويـف والتعذيـب، وقـد تصـل إلـى الاعتقـال الـمديد أو الاختفـاء أو القتـل، بحيـث لا تصلـح أعـداد الـمعتقلين السياسـيّين فـي أي وقـت للتمثيـل علـى أوضـاع السـوريين الحقوقيّـة والاجتماعيّـة والسياسـيّة، لـدى معظـم السـوريّين اليـوم تجربـةُ فظيـع عاينوهـا فـي الـمَفظَعة الأسـدية ثـم فـي مَفـظَعة داعـش ومفاظِـع أخـرى ناميـة، هذا حيـن لا يكـون الواحـد منهـم موضـوع هـذه التجربـة، أو تجـارب متكرّرة. وقـد يكـون أقـرب تمثيـل لاتسـاع القاعـدة الاجتماعيّـة لتجربـة الفظيـع هـو أنّ عـدد الـمعاقين منـذ بدايـة الثـورة يقـارب الـمليون، وهـذا عبءٌ رهيـب للـمستقبل، وفـوق ربـع مليـون ضحيّـة علـى الأقـل، ومـا ليـس معلومًـا مـن الـمعتقلين الذيـن يعيـش معظمهـم أوضـاع فظاعـة مُزمنـة. ولا يـكاد يحتـاج إلـى بَرهَـنـةٍ خاصّـة أن الـمجتمع الـذي تتواتـر تجربـة الفظيـع فيـه بكثافـة هـو مجتمـع فظيـع، يفـرّ منـه النـاس فـي كلّ اتجـاه. يفـر النـاس مـن سـوريا اليـوم ليـس بالضـرورة لأنّهـم مُعرَّضـون لخطـر مباشـر، ولكـن لأن البلـد صـار موطنًـا ملعونًـا للفظاعـة، للألـم والـموت، تُنـتَج فيـه يوميًّـا، وبمقاديـر كبيـرة، انفعـالات الكـره والخـوف والنفـور، وتُطلَـق اللعنـات مـن كلّ اتجـاه.

ولا تسـاعد علـى مواجهـة هـذه التجربـة أنـماطُ تفاعـلٍ سـبق ذكرهـا. فالإدانـة الكلاميّـة أو الاحتجـاج الـذي لا تأثيـر لـه علـى وقـف الفظيـع لا يسـاعدان علـى تكـوُّن مجتمـعٍ متفاعـل متضامـن ضـدّ الفظاعـة. ربمـا تشـدّ هـذه الـمسالك مجموعـات إلـى بعضهـا لبعـض الوقـت، لكنّهـا تنحـلّ بعـد حيـن لأنّهـا لا تجـد حـلًّا للـمشكلة. والصمـت والانعـزال همـا تسـليمٌ بالفظاعـة وتسـليم بمفعولهـا الـمُحطِّم للـمجتمع والنفـس، هـذا فضـلًا عـن أن الـمجتمع يتكـوّن حـول الـكلام وتبـادل الـكلام، وليـس حـول الصمـت والانعـزال. ومواجهـة الفظيـع بالعنـف حيـن لا تـؤدّي إلـى تغيُّـر سـريع فـي السياسـة وتقييـد للعنـف بقواعـد عامـة متّفـق عليهـا،



أي حيـن لا تكـون إجـراءً عمليًّـا ناجحًـا للحـدّ مـن الفظاعـة وتحقيـق العدالـة، تُجـازف بـأن تُحـوِّل الفظاعـة إلـى سياسـة والسياسـة إلـى ممارسـة للفظاعـة، علـى نحـو يبـدو أنّ سـير الأمـور فـي البلـد منـذ نحـو ثـلاث سـنوات يُصـادق عليـه.

تبقـى الإبداعيّـة منهجًـا يسـاعد علـى الاقتـراب مـن الفظيـع، وتطويـر اسـتعداداتٍ وحساسـيّةٍ مُضـادة للفظيـع والفظيعيـن مـن جهـة، وعلـى تحويـل تجربـة الفظيـع إلـى تجربـة مشـتركة يتكـوّن حولهـا مجتمـع مـن جهـة ثانيـة. بيـد أنّ أقنِـيةً مفتوحـة بيـن الاجتماعـيّ والإبداعـيّ، بحيـث يكـون الإبـداع فعـلًا اجتماعيًّـا والاجتمـاع فعـلًا إبداعيًّـا، يقتضـي توقّـف العنـف، والتحـوّل مـن نظـام العنـف الفظيـع الوفيـر إلـى نظـام يضبـط العنف ويُقنِّــنه.

هـذا الخيـار الــمُوجَّه نحـو إعـادة خلق الــمجتمع هـو الأجدى. السياسـة وحدهـا لا يمكـن أن تُلغـي الفظيـع الـذي ألغاهـا لعقـود، وإن كان لا بـدّ مـن تكريـس سياسـيّ وقانونـيّ لنهايـة الفظيـع. يلـزم أن تتشـكّل السياسـة ذاتهـا بصـورة مغايـرة فـي مجتمـع جديـد وثقافـة جديـدة متشـكّلين حـول مواجهـة تجربـة الفظيـع واسـتيعابها.

عبـر أشـكال جديـدة للاجتمـاع والثقافـة والتفكيـر، والديـن، والهويّـة/الهويّـات، نُعيـد خلـق ذاتنـا فـي صـورة أصلـح لإصلاحنـا وإصـلاح العالـم.

الغـرضُ مـن هـذه الــمحاولة، فـي الختـام، الــمساهمة فـي تسـمية تجاربنـا وتقويـة شـخصيّتها، أعنـي أن تصيـر مفاهيـم، وأن يكـون لهـا كيـان يُعتـرف بـه وتكـون أساسًـا لتفكيـر وممارسـات مغايـرة. الفظيـع وجـهٌ مـن أوجـه تجـارب يمتنـع أن تتشـكّل لنـا هويّـة كسـوريّين علـى غيـر الاسـتناد إليهـا. وبقـدر مـا إنّ الاعتقـال والتعذيـب والسـجن



والاغتصـاب والحصـار والخطـف والتغييـب والقتـل والتهجيـر واللجـوء هــي تجاربنـا فـي «سـوريا الأسـد» وتناسُـخاتها الإسـلاميّة، فـإنّ فـرص سـوريا جديـدة متحـرّرة مرهونـة بمـا نصنعـه مـن هـذه التجـارب مـن ثقافـة واجتمـاع وسياسـة. لسـنا نِتـاج تجاربنـا وحدهـا، إنّنـا نِتـاج مـا نفعـل بهـذه التجـارب.




مؤسسة دار الجديد

تحديقٌ في وجه الفظيع

بيـن الـمُهتـمين بالصـورة في سـوريا سِجالٌ مُتـموِّج، يشـبُّ حينًـا ويخبو حينًـا، حـول عـرض صـور الأجسـاد الـمُحطَّمة أو الـمحروقة، والأشـلاء وفيديوهـات التعذيـب ومشـاهد القتـل، أو عمومًـا حـول صـور السـوريّين فـي انكشـافهم الكبيـر علـى أنفسـهم وعلـى العالـم طـوال ٥٠ شـهرًا ونَـيِّف. قبـل شـهور نشَـر «أبـو نضّـارة»، وهـو تجمُّـع سينـمائيّ سـوريّ يُنـتِج فيلـمًا قصيـرًا واحـدًا كل أسـبوع، بيانًـا أدان فيـه «تَمريـغ كرامـة» النـاس «مـن خـلال عـرض صـور أجسـادهم الـمُعذَّبة علـى شاشـات العالـم دون موافقـتهم، الأمر الذي يُسـيء لكرامة السـوريّين والإنسـانيّة جمعـاء»، وبنَــى علـى ذلـك مبـدأ «حـق الإنسـان فـي صـورةٍ كريمـة أيًّـا كانـت الظـروف». وأطلـق التجمُّـع أيضًـا مبـادرةً عنوانهـا: صـورة السـوريّ مـا بتـنـذلّ! والعنـوان مَبنـي، مثلـما هـو معلـوم، علـى غـرار شـعارٍ رُفع فـي تجمّـع احتـجاجيّ باكـر فـي دمشـق قُـبيلَ الثـورة، وهتَـف فيـه الـمتجمّعون: الشـعب السـوريّ مـا بينـذلّ!

وبيـن وقـتٍ وآخـر يجـري التعبيـر عـن التحفُّـظ عـن مشـاهدَ صادمـة يجـري تداولهـا علـى صفحـات مواقـع التواصـل الاجتماعـيّ أو تضمينهـا فـي أعمـالٍ فـنّـية، منهـا مثـلًا فيلـم أسـامة محمـد ووئـام بدرخـان «مـاء الفضـة»، حيـث تتكـرَّر صـورة ولـد سـوري عـارٍ يجـري تعذيبـه وإجبـاره

علـى تقبيـل حـذاء مُعذِّبـه، ثـمّ يتعـرَّض لانتــهاكٍ جنسـي. وفـي الفيلــم أيضًـا مشـهدُ جَـرِّ جُثـثِ شـهداء فـي الشـارع بــكلاليب مربوطـة بحبـلٍ مـن قِبَـلِ مُقاوميــن لا يسـتطيعون نقـل الجثـث بطريقـة أخـرى، خوفًـا مـن رصـاص قــنَّاصي النظـام. الصـورُ صادمـة ومُذِلَّـة فعـلًا، فمـا القـول فـي شـأن عرضهـا للعمـوم، أو التسـاهل فـي الأمـر؟

وتجـدَّد الـكلام علـى الأمـر بعـد عـرض صـورٍ مـن التـي هرَّبهـا «سـيزر» لبعـض مَـن قتــلهم النظـام تحـت التعذيـب (٥٥ ألـف صـورة لنحـو ٧ آلاف مـن الــمُعذَّبين الـمقــتولين بيـن بدايـة الثـورة وآب ٢٠١٣)، وقـد عُـرض قسـمٌ منهـا فـي مقـرّ الأمـم الــمتّحدة فـي نيويـورك فـي آذار ٢٠١٥، ويبـدو أنّـه كان مُروِّعًـا لــمشاهديه. ورأى مثقّفـون وفنّانـون، منهم محمـد علـي الأتاسـي، أنّ إعـادة عـرض الصـور مـن قِبَـلِ أيٍّ كان مشـاركةٌ فـي قتـل الضحايـا.

هـذه، علـى أيّـة حـال، مسـاهمةٌ فـي إثـارة نقـاشٍ أوسـع، تبـدو ضروريـة حـول الصـور، صورنـا.

يمتــنع، بدايـة، أن يُعـزل موضـوع عـرض الصـور والــمشاهد الــمُروِّعة عـن الحـال السـوريّة الراهنـة، وهـي حـالُ هـولٍ قِـياميّ، فيهـا كثيـر مـن العنـف والفظاعـة والــموت والـدم والاستِـماتة والكراهيـة وجنون الثّـأر، والانحـلال والتبعثـر، ويبـدو مُمتــنعًا أن تعـود سـوريا إلـى مـا قبلهـا، وغيـر مرغـوب أيضًـا. يبـدو كذلـك ممتــنعًا عـزل عمـوم السـوريّين عـن هـذه الحـال، وغيـر مرغـوب بــدوره فـي نظـري. فهـل بغيـر التحديـق فـي وجـه هـذا الهـول الرهيـب وتوسـيع الإحاطـة بـه، بـصوره وتفاصيلـه وحكاياتـه، يمكـن أن نُطـوِّر إدراكًا بجِذريّـة وضعنـا ومأسـاويّته، ونُطوِّر فنًّا وفكـرًا وأخلاقيّـات مجبولـة بـتمثيل هـذه الأوضـاع الــمستحيلة؟ الصـورُ موجـودةٌ فـي مـكان مـا، صوَّرهـا أحـدٌ مـا مشـكورًا، مخاطـرًا بنفسـه



فـي بعـض الأحيـان، ورآهـا بعضنـا، فهـل نحـن مُتــلصِّصون علـى محـرّم، إن كانـت الحيلولـة دون العـرض هـي الشـيء الصحيـح؟ وكيـف لنـا أن نُنمِّــيَ ذاكـرةً تخـصُّ مـا أصابنـا مـن فظاعـة إن كنّـا نتفـادى، مـا وسِـعنا التفـادي، النظـر فـي وجـه الفظاعـة؟ نتذكّـر كـي لا نُكـرِّر مـا جـرى لنـا، وكـي نــمارس حيالـه نسـيانًا إراديًّـا واعيًـا، نسـيان مَـن واجهـوا أنفسـهم ورأوا الوَحـش فيهـم، وقـرّروا تقــيِيده. ينسـون ترفُّـعًا عمـا يعرفـون فـي أنفسـهم وفـي غيرهـم. وهـو مـا لا يتأتّـى دون أن نُحدِّق مَلِــيًّا فـي صورنا لنَطبعهـا عميقًـا فـي ذاكرتنـا.

يُطـوِّر الــمعترضون علـى النشـر حججًـا وجيهـة، منهـا أنّ صـور العنـف والفظاعــة تُــثير مشــاعر الغضــب ورغبــة الانتــقام، ويقــال أحيانًــا إن بعـض هـذه الصـور علـى الأقـل سـرَّبها النظـام عمـدًا لإثـارة نـوازع الثـأر، وتحويـل الصـراع السـوري إلـى صـراع طائفـيّ ومطلـق. لكـنْ واضـحٌ أنّ الحـال السـوريّة أكثـر جذريـة وفظاعـة مـن أن تكـون الصـور، مُسـرَّبة بقصـدٍ أم لا، مُحرِّضًـا أساسـيًّا فيـه. الصـور جـزءٌ مـن الصـراع، وقـد تكـون أداةً مـن أدوات التعبئـة والتحريـض فعـلًا، لكـنَّ منابـع التحريـض وفيــرة، ومنهـا أوّلًا الحـرب الفعليّـة الجاريـة، الــمستمرّة بــفضل الــمُحارب الأول الـمُــزوّد بمضخّـاتٍ متفوقّـة للصـور والكلــمات والكراهيـة، فضـلًا عـن السـلاح الـمُتــفوّق، أعنـي النظـام الأسـديّ. وهـو مـا يعنـي أنّ القـول فـي شـأن الصـور تابِـعٌ للقـول فـي الصـراع وسـبل إنهائـه. فـلا مجـال للتفكيـر فـي الصـور دون مواجهـة الــمعضلات الأكبـر، الخاصّـة بــمنابع العنـف الـمُنــفلِت فـي البلـد، وبــفرص التوصُّـل إلـى تمثيـلٍ سياسـيّ مُغايـر لسـوريا والسـوريين، وإلـى دولـة جديـدة ووعـي ذاتـيٍّ جديـد. بعضنـا غضبـه يتوجَّـه نحـو الانتــقام؟ نعـم، هـذا محتمـل جـدًّا، لكـن يمكـن لـغضب بعضنـا أن يتوجَّـه إلـى تفكيـرٍ أكثـر جذريّة في شـرطنا الإنسـانيّ والسياسـيّ والثقافـيّ، وإلـى مُسـاءلة نفوسـنا وتاريخنا ومجتمعنـا وثقافتنا



عـن هـذه الفظائـع. النقـاش فـي شـأن الصـور يمكـن أن يكـون مسـاعدًا فـي ذلـك. يجـب أن نـرى لـنتــناقش.

يقـال أيضًـا إن نشـر الصـور يُطــبِّع مـوت السـوريّين ويُحطِّـم أجسـادهم عالــميًّا. شـيئًا فشـيئًا، يمكـن أن يرسّـخ فـي ذهـن العالــم أنّ السـوريّين يَقتلـون السـوريّين، أو أنّ هنـاك صراعًـا طائــفيًّا مميتًـا فـي سـوريا، أو أنّ الأمـور هـي هكـذا علـى الـدوام فـي «الشـرق الأوسـط»، فتضيـع قضايـا العدالــة والحــق والــمسؤوليّة، وتنطمــس الأبعــاد السياســيّة للصــراع، ويجـري الاعتيـاد علـى أنّ مـا يأتـي مـن سـوريا هـو صـور عنـفٍ وحشـيّ تُــثير نفـورًا متصاعـدًا، فـلا يُـثيـر مزيـدٌ مـن الوحشـيّة اهتمامًـا خاصًّـا. هـذه حجّـةٌ أقـوى مـن سـابقتها، لكنّهـا تضـع «العالــم» و«ذهن العالــم»، والــمقصود عالــم الطبقـات الوسـطى والعليـا الغربيّـة أساسًـا، فـي موقـع تحكيمـيٍّ غيـر مُسـتحَق. هـذه الطبقـات لا تكـفُّ عـن تَصفيـح عالــمها بالحجــج والأفـكار التـي تحميهـا من الإحسـاس بــقسوة الوجود في عالــم اليـوم، وتصـون اسـتقرارها الذهنـيّ والأخلاقـيّ. أعتقـد أنّـه يمكـن مقاربـة التطـورات الفكريّـة والثقافيّـة فـي الغـرب منـذ جيـلٍ واحـد علـى الأقـلّ مـن هـذه الزاويـة. أن يعيـش الــمرء عمـره فـي ظـلّ أوضـاع مُنظّمـة ولـو بقـدرٍ مـا يكفـي، علـى كلّ حـال، لأن يُصفِّـح وَضعـه الــممتاز هـذا، بمـا لا يُقلـق ولا يدفـع إلـى تغيـيرٍ فـي النفـس أو الــمحيط. وأعتقـد أنّ مـن هـذا التَّصــفيح العيـش داخـل النصـوص والخطابـات بـدلًا مـن مواجهـة العالــم ومـا يجـري فيـه مـن مـوتٍ فظيـع أو أفظـع، ومـن التصفيـح كذلك أن يقـال إنّ كلّ شـي نـصٌّ أو لا شـيء خـارج النـص، وبـدلًا مـن تفسـير العالــم، كيـلا نقـول تغييـره علـى مـا دعـا ماركـس فـي أربعينيـات القـرن التاسـع عشـر، يغـدو كلّ شـيء تأويـلًا. ثـمّ إنّـه معلـوم، بقـدرِ مـا يخـصُّ الأمـر إقليمنـا، أنّ معظـم مـا يقـال عـن مـوت السـوريّين اليـوم، سـبق قـول مـا يشـبهه عـن مـوت الفلسـطينيّين واللبنانيّيـن والعراقيّيـن وغيرهـم.



مـن جهـة أخـرى، هـذه الصـور موجـودةٌ فـي مـكان مـا، ورآهـا أشـخاصٌ مـا. هـل كان مفضـلًا فعـلًا ألا تكـون صُـوِّرتْ؟ هـل هنـاك مَـن يُجيـب جـادًّا عـن هـذا السـؤال بنعـم؟ وإذا وُجـدت الصـور، ألا «تطلـب» أن تُـرى؟ أليسـت دعـوة للـمشاهدة؟ ومَـن يقـرّر بشـأن مـا إذا كان يجـوز نشـرها للعمـوم أم لا؟ وأيّ صـور منهـا هـي التـي تُـنشر، وأيهـا تُحجـب؟ لا بـد مـن وجـود جهـة مـا تقـرّر فـي هـذا الشـأن، لكـنَّ أخـص خصائـص وضعنـا اليـوم، هـو وضـع أزمـة أسُـس، أزمـة افتـداء أو «أزمـة قُربانيّـة»، بعبـارة رينيـه جيـرار (فـي كتابـه **العنـف والـمقدس**)، ينهـار فيهـا النظـام الثقافـيّ للـمجتمع، ويتناثـر فـي كلّ اتجـاه. إنّ جهـةً شـرعيّة كهـذه ليسـت موجـودة، ويمتنـع وجودهـا طالـما الصـراع مسـتمرّ وبـؤرةُ تفجُّره نشِـطة. الأزمـة تطـال الشـرعيّة وتعلـن دمارهـا، فـلا يسـتطيع أيّ كان تحديـد السـلوك الصحيـح والخيـار الأنسـب. وظاهـرٌ أننـا بالفعـل فـي وضـعٍ كهـذا فـي سـوريا اليـوم، إنّهـا حالـةٌ اسـتثنائيّة وتوجِـب مقاربـات اسـتثنائيّة. يجـري التفكيـر فـي الأجسـاد الـمُحطَّمة وفـق منظـور الأزمـة الافتدائيّـة كأحـد أوجـه العمليّـة التحويليّـة الكبيـرة، التـي تؤسـس لنظـامٍ جديـد وثقافـة جديـدة. يومًـا مـا، قـد يقـرّر السـوريّون، عبـر نقـاشٍ عـامّ ومشـاركة جماعيـة، أن يَطـووا صفحـة هـذه الـمشاهد، فـي سـياق طـيِّ صفحـة الحـرب والتفاهـم عـل أسُـسٍ جديـدة لسـوريا جديـدة. لكـن ربما سـيَلزم إجـراء تأسيسـيّ فـي هـذا الشـأن: بنـاءُ أرشـيف لهـذه الـموادّ، يجمعهـا ويمنـع ضياعهـا، ويُصنِّـفها ويُـبوِّبها، ويدرجهـا فـي عمليّـة بنـاءِ ذاكـرةٍ وطنيـة جديـدة، لا تَحـول دون النسـيان فقـط، ولكـن تمتنـع علـى الاسـتثمار الجُزئـيّ وتقـاوم التوظيفـات الاختـزاليّة أو الانتقائيّـة. وهـذا لا يتحقَّـق دون أن يكـون الأرشـيف شـاملًا، لا يحـذف شـيئًا ولا يكبـت شـيئًا ولا يتعامـى عـن شـيء. والأرشـيف شـيءٌ يُحتـرَز عليـه، لكـنّ الوصـول إليـه مفتـوح للجميـع مبدئـيًّا. وإنّمـا عبـر عمليّـات النقـاش وبنـاء



الأرشيف نستوعب التجربة، نؤسِّس لـتعافي الذاكرة الوطنيّة ولـشرعيةٍ جديـدة، ونظـام جديـد للـمجتمع والسياسـة والثقافـة. الذاكرةُ الـمعافاة ليسـت ذاكـرةً تتجنّـب مواجهـة الـماضي أو تكبـته فـي دهاليـز النفـس، بـل بالضبـط تضطلـع بـه وتتعـرّف عليـه وتُـقِرُّ بمسـؤوليّتها عنـه.

وقـد يكـون مفهومًـا مـن وجهـة نظـر السـوريّ الـمقيم خـارج بلـده أن يشـعر بالإهانـة مـن عرضنـا مُحطَّميـن أمـام عيـونٍ غيـر ودودة وغيـر متعاطفـة، لكـن أليـس مـن خصائـص الأزمـة التأسيسـيّة ذاتهـا أنّ الحـدود بيـن داخـل وخـارج تُمحـى؟ وفـي زمـن ثـورة الاتّصـالات، هـل يبقـى معنـى لـداخل وخـارج أصـلًا؟ الكرامـة ليسـت تسـيِيجَ حِمانـا فـي وجـه متطفّليـن غربـاء، بـل الإقـرار بـهَول مـا جرى لنـا دون رثـاءٍ للـذات، وربما أن نجـد فـي عيـون الغربـاء تعرّفًـا علـى أنفسـهم فـي غرابتنـا القصـوى، غرابـة الأجسـاد الـمحطّمة.

سـوف نكـون فـي وضـعٍ أفضـل مـن أجـل التمثيـل والعمليّـة التأسيسـيّة، والتعافـي، إنْ واجهنـا الفظاعـة ونظَرنـا فـي وجههـا، وليـس إن تفاديناهـا. الفظاعـة هـي أقصـى الغرابـة، الأجنبيّـة القصـوى. والـ«جَـمع» الـمُحال إليـه فـي الجملـة السـابقة هـو جيـل الأحيـاء مـن السـوريّين الـذي لا بـدّ أن يتحمّـل الـمسؤوليّة عـن التأسيس الجديـد، أن يقبـل الإقامـة فـي الفظاعـة كـي يُطـوِّر تطعيمًـا عامًّـا ضدهـا. هـذا الجيـل هـو جيلُنـا، أعنـي بخاصّـة جيـل الـمشتغلين بالشـؤون العامّـة الـمُنتِـجين، مـن فنّانيـن وصحافيّيـن وكُـتّاب وناشـطين سياسـيّين. مـا نُطـوِّره مـن أفـكار وفـنٍّ وحساسـية حيـال صـور الفظيـع يمكـن أن يكـون بمثابـة تطعيـم وطنـيٍّ عـامّ ضـد تكـرار الفظاعـة. ويتعـذَّر تصـوّر هيئـةٍ عامـة تُـقرّر مـاذا يُـرى مـن صـور الفظيـع ومـاذا لا يُـرى غيـر جيـلٍ بأكملـه، الجيـل الـذي انغمـر فـي الصـراع بجوانبـه الـمختلفة. وأولُ مسـؤوليّة هـذا الجيـل أن يضـع

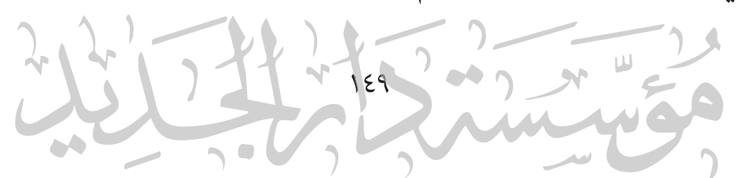


عينه في عين الفظيع، وأن يقول: أنا هو هذا! أنا الذي كان إنسانًا!

بهذا المعنى يمكن أن يكون لتجربة رؤيةِ صُورتنا منعكسةً في مرآة الفظيع مفعولٌ تطهيريّ، المفعول الذي نسبه أرسطو للتراجيديا.

ولعلّ ما يفوت الميَّالين إلى تقييد مشاهدة الصور وتداولها هو الطابع التأسيسيّ للأزمة السورية، والتفكير بمنطق أوضاعٍ عادية، لا يُسائل الثقافة القائمة ولا يُعيد النظر في مفهوم الكرامة الإنسانيّة أو يفكّر فيه. لا أرى لنا كرامةً في غير الانطلاق من أنّنا حيال أوضاع غير مسبوقة، لن تكون سوريا في منتهاها مثلما كانت، لا ككيان ولا كنظام ولا كمجتمع ولا كثقافة، وأن نجعل من هذه المحنة التاريخيّة سانحةً تاريخيّة لتجديد إحساسنا وثقافتنا، وأن نعمل على تطوير معانٍ وقيم تُحيط بعنائنا المهول. هو ما يوجِب الاعتراف به والتمعُّن فيه، والعمل على تملّكه. ليس هناك نهجٌ أكثر جذريّة لمقاومة غرابتنا، وذلّنا، غير إدراك كمْ أنَّ الغريب هو الإنساني، هو العامّ.

ككاتبٍ يعمل على تمثيل الحال السوريّة في الثقافة، لا أستطيع أن أفعل دون أن أتنبه إلى أقاصي تجاربنا، دون أن أحملِق في عين الموت العنيف. أجد مشقةً في النظر إلى الأجساد المحطّمة، ويغلب أن أشيح النظر عن صور وفيديوهات رهيبة، لكن أرى أنّ علينا النظر وإنعام النظر. الفنانون والكتّاب عليهم أكثر من غيرهم إنعام النظر في الأجساد المحطمة لأنهم عامِلو اشتراك، ولأنّ الأجساد جسدنا المشترك وجسد بلدنا المشترك. إن كان من أملٍ في طفرة فكريّة وثقافيّة وفنيّة تستجيب لشرط الثورة أو تتدارك تعثرها السياسيّ، فهذا يمرُّ في تصوّري عبر الاضطلاع بهذا الهول الذي عاشه السوريون. معظم عمال الثقافة كانوا محميِّين شخصيًّا



مـن هـذا الهـول، فـلا أقـلّ مـن أن يعاينـوه مصـوّرًا ويحفظـوا الأجسـاد الـمحطّمة فـي أرشـيفات أجسـادهم هـم.

السـؤال، فـي رأيــي، هـو كيـف نهضـم كـثقافةٍ ومجتمـع هـذا الهـول؟ كيـف نتعامـل معـه؟ أظـنّ أنّ التمثيـلات الثقافيّـة التـي نُنتِـجها عبـر تجربـة الـمهول والإقـرار بـه هـي أسـاسٌ أنسـب، لـمواجهته وبنـاء الحواجـز القِيَـمِيَّة والقانونيّـة والفكريّـة الفعّالـة التـي تحـول دون تكـراره ـ مـن تجاهلـه أو تضييـق مسـاحة الاطـلاع عليـه أو حمايتنـا مـن مذلّـة صورنـا محطّميـن. يلـزم أن نُقـرَّ بكرامـةٍ وأمانـة بأنّنـا فاقـدون للكرامـة منـذ زمـن طويـل، سـابق كثيـرًا للأجسـاد الـمحطّمة فـي سـنوات الثـورة. مَـن يعـرف الأجهـزة الأمنيّـة، ومـن يعـرف التعذيـب، ومـن يعـرف سـجن تدمـر، ومـن يعـرف كـم أنَّ أجهـزة الـمخابرات السـوريّة هـي مـدارس لـلإذلال ولتدريـب الشـعب علـى الخيانـة، ومـن يعـرف الأسـرة الأسـديّة وأتباعهـا، يعـرف أنّ السـوريّين فاقـدون للكرامـة منـذ عقـود، ربمـا منـذ حكَـمهم بطـلُ كارثـة ٥ حزيـران، ونصَّب نفسـه إلهًـا عليهـم. بالعكس، إنّ الأجسـاد الـمحطّمة هـي أحـدُ وجـوه تمـردٍ مـن أجـل اسـتعادة الكرامـة. وهـي تسـتحقّ أن تمثّـل فـي الفـن وفـي الفكـر وفـي الثقافـة، ويجـب أن تُمثَّـل.

ليـس فـي كلّ مـا سـبق مـا يلغي شـرعيّة الاعتـراض علـى تمثيـلاتٍ فنّية أو توظيفـات سياسـيّة محتملـة لصـور الفظيـع. هنـاك فـنٌّ جيّـد وهنـاك فـنٌّ رديء، بصـرف النظـر عـن الشـرعيّة الأخلاقيّـة والجماليّـة لتمثيـل الفظيـع، وعـن النقـاش حـول الصـورة الكريمـة أو اللئيمـة. الـمشكلة ليسـت فـي تصويـر الفظيـع، بـل فـي كيفيـة تصويـره، فـي التمثُّـل الفنـي لهـذا التصويـر: كيـف يُرسـم؟ كيـف يُنحـت؟ كيـف يُمثَّـل مسـرحيًا وسينـمائيًّا؟ كيـف نتكلّـم عنـه فـي الروايـات والقصص؟ كيـف نُمثِّـله مفهوميًـا؟ كيف



يقاربـه الشـعراء؟ تسـاءل تيـودور أدورنـو إنْ كان الشـعر ممكنًـا بعـد آوشفتـيز، كحـدثٍ مطلـق ممتنـع علـى التمثيـل. لكـنَّ هـذا هـو التحـدّي الـذي يفـوز الشـعر بـشرعيته عبـر مواجهتـه. والتطلُّـع الــمحرِّك لتمثيـل الفظاعـة هـو العمـل علـى إذابـتها، نـزع إطلاقيَّـتها، والقـول إنهـا مأسـاة عظيمـة واجهناهـا فـي تاريخنـا، لكنّهـا ليسـت مأسـاة الــمآسي، ليسـت الــمأساة الــمطلقة. هذا ليس فقط لــتجنّب سـيكولوجيّةٍ هولوكوسـتيّة لا يبـدو أنهـا تنفـتح علـى عـدلٍ أو مسـاواة مثلــما نعـرف أكثـر مـن غيرنـا، ولا تُــثمر غيـر هولوكوسـتات مُقسّـطة، بانتظـار الهولوكوسـت الأكبـر يومًـا مـا، ولكـن كذلـك لأنّـه عندنـا، حيـث تواجـه الفنـون تحـدّي شـرعيتها مـن قِبَـلِ قـوى الطغيـان الدينيّـة، مـن شـأن طفـرةٍ فقـط فـي تمثيـل الفظيـع أن تكـون عنصـرًا فـي ثـورة ثقافيّـة، لا تتقاطـع مـع الأوضـاع السياسـيّة والاجتماعيّـة الحاليّـة فقـط، وإنّمـا تؤسّـس كذلـك لــمواجهة الإفقـار الدينـيّ لعالــم التمثيـل والعـدوان عليـه. قَصـرُ التمثيـل علـى اللغـة، مثلــما يفعـل الإسـلاميّون، يحتـاج إلـى حملقـةٍ لا متناهيـة فـي الصـور التـي فقـدت صورتهـا كـي يمكننـا كسـر هـذا القصـر.

وبالــمثل، ليـس لأنّ هنـاك توظيفـات سياسـيّة ضيقـة محتملـة لصـور الفظيـع نتخـذ قـرارًا إداريًـا (مـن نحـن!) بـأن لا يُعـرض الفظيـع علـى العمـوم. مـن أشـكال التوظيـف السياسـيّ الــمغرِضة مثـلًا الاعتـراض على بـثِّ صـور وفيديوهـات تُصـوِّر ضحايـا التعذيـب والأجسـاد الــمُحطَّمة ومجـازر النظـام، لكـن مـع الانتِـشاء بنشـر صـور وفيديوهـات عـن جرائم داعـش والإسـلاميين. ومنـه العكـس، التكـتُّم علـى مـا يخـرج مـن صـور عـن جرائـم الإسـلاميين، مـع احتفـاء بورنوغرافـيّ بــصور جرائـم النظـام.

بَيـد أنّ كلّ مــا سـبق يطـال النشـر العـام لصـور الفظيـع. نتناقـش كمواطنيـن، كـ«عاميـن» بصـورةٍ مـا، نفكّـر فـي الفظاعـة بوصفهـا شـأنًا



سـوريًّا عامًّـا، يتّصـل بنُـظمنا السياسـيّة والاعتقاديّـة والاجتماعيّـة، وبتاريخنـا، وبمسـتـقبلنا. لكـن مـاذا عـن وَقـع الصـور علـى الأهالـي، على أحبـاب الضحايـا، علـى أمّهات أو آباء أو أبناء الـمعذّبين أو الـمقتولين أو مُحطَّـمي الأجسـاد؟ فـي آذار مـن هـذا العـام علـمتُ من صديق، أسـامة نصّـار،[1] أنّ بعـض الصـور تُشـبه معتـقلًا قريبًـا لـه، لا معلومـات عنـه منـذ أكثـر مـن عاميـن، وأنّ صـورةً أخـرى تُشـبه أخـا القريـب الـمعتقل، وأنـه بـدأت تَردهـم التعـازي بالشـهيدَين، دون أن يكـون مؤكـدًا قطعًـا أنّ الصـور تعـود لـمَن يُفتـرض أنهـا تعـود لهـم. يصـف الصديق نَشـر الصور بلغـةٍ قويّـة بأنـه «تسـكع بيـن الجثـث»، ويضيـف: «العذابـات الأليمـة التـي يعانيهـا أهلنـا وبلادنـا، لا تجعـل الرفـق بالأمّهـات والآبـاء والأهالـي والأحبـاب ومحاولـة مراعـاة مشـاعرهم ترفًـا زائـدًا». هـذا منطـق قـويّ جـدًّا، ولَـديَّ مـن الاعتبـارات الشـخصيّة مـا يُسـهِّل لـي اسـتبطانه. ومـا يبـدو فظيعًـا علـى نحـوٍ خـاصّ هـو حالـة اللايقيـن التـي تدفـع الأهالـي إلـى التحديـق فـي الصـور الـمرّة تلـو الـمرّة بحثًـا عـن يقيـن لا يصلـون إليـه فـي شـأنِ مـا إذا كان غائبهـم هـو هـذا الجسـد الضائـع الـملامح أم لا. حيـال هـذا الواقـع، الـمرء مدفـوعٌ إلـى التسـاؤل عـن كيفيّـة التوفيـق بيـن الحاجـة العامّـة الحيويّـة إلـى تمثيـل الفظيـع بوصفـه شَـرطنا العـامّ وبيـن حمايـة الأهالـي مـن اسـتعراض صور أجسـاد أحبابهـم الـمُقطَّعة أو الـمسحوقة، وتخيُّـل العذابـات التـي مـروا بهـا قبـل موتهـم. لا يبـدو أن هنـاك كيفيّـة مناسـبة لذلـك. فعـدا أنّ الأهالـي ليسـوا قطاعًـا صغيـرًا مـن السـكّان، هـم معظـم السـكان فـي الواقـع، وتقريبًـا كلّهـم، وأن مـا يُميِّـز

(١) أسـامة نصّـار: ناشـط سياسـي وكاتـب مـن داريـا، كان مـن مؤسِّسـي لجـان التنسـيق الـمحلّية، ومحـررًا لـمجلتها: **طلعنـا للحرّيّـة**. عـاش أسـامة مـع زوجتـه ميمونـة العمـار وابنتهمـا إيمـار فـي دومـا فـي سـنوات الحصـار بيـن ٢٠١٣ و٢٠١٨، وكانـوا مـن آخـر مَـن خـرج منهـا. وهـم يعيشـون اليـوم فـي تركيـا.



أزمـةً تأسيسـيّة كأزمتنـا هـو امّحـاء الــمسافة بيـن الشـخصيّ والــمشترك، فــإنّ شــبكة الإنترنــت ومواقــع التواصــل الاجتماعــيّ تُــفاقم امّحــاء الحـدود هـذا، بحيـث يسـتحيل كلّ الاسـتحالة الجمـع بيـن الــمَطلبين. لكـنْ هـل الأمـر يتعلّـق هنـا بالصـور حصـرًا؟ أليـس التداخـل الشـخصيّ والــمشترك وامّحـاء الحـدود واللايقيـن، وقبلهـا العنـف الــمهول وتحطيم مـا لا يُحصـى مـن حيـوات وبيـئاتِ حيـاة، عبـر إباحيـةٍ عُنــفِيّة لا حـدود لهـا، أليسـت كلّهـا وجوهًـا لأزمـة تأسيسـيّة لا تُعالَـج بمنطـقٍ تقليـديّ أو بأفـكار إداريّـة؟ لا يتعلّـق الأمـر بخلـل فـي سيــر الــمجتمع والسياسـة، بـل بانهيـار أسُـس الاجتمـاع والسياسـة والقِـيم، وأسُـس التمثيـل الفكـريّ والفنـيّ والثقافـيّ لحياتنـا، نحـن السـوريّين، بقـدر لا يقـلُّ عـن أسُـس تمثيلنـا السياسـيّ.

مشاعِــيةُ الصـورة اليـوم هــي أحـد وجـوه الأزمـة التأسيسـيّة بوصفهـا انحـلالًا عامًّـا.

لا أقـول إنّ صـور أجسـادنا الــمُقطَّعة، وانفصـال رأس طفلـةٍ عـن جسـدها، وتحطيـم جسـدَي حمـزة الخطيـب وتامـر الشـرعي، وتقبيـل الولـد حـذاء مُعذِّبـه فـي «مـاء الفضـة»، ثـمّ تعرّضه لانتهاك جنسـي، أو هـرس رأس أحد ضحايا الشبِّيــحة بكُــتل إسـمنتية، أو صـور مصلوبي داعـش أو مذبوحيهم، أو السـائقين العلَويِّيـن الذيـن قُــتلوا بعـد سـؤالهم عن عـدد ركعات صلات الصبـح، أو صـورة شـابٍّ مـن درعـا مَرمــيٍّ علـى الأرض بينــما يُسـهِب فـي شـرح ذنبـه مُلتحـٍ مُسِـنٌّ قبـل أن يقتلـه بسـادِية مروّعـة بحربـة بندقيّتـه، لا أقـول إنّهـا ليسـت مذلـةً لنـا، أو ليسـت إهانـات بليغـة لكرامتنـا، لكـن هـل هـي إهانـات لأنهـا صُـوِّرت، أم لأنّهـا وقائـع حدثـت؟ ربمـا يقـال إنّهـا لا توجـد كوقائـع عامّـة إن لــم تُصـوَّر وتُعـرض. هـذا منطـقٌ شـائع اليـوم، لـه قرابـة قويـة مـع عالــم يـذوب بكاملـه فـي النصـوص، عالــمٍ ينصـرف



التركيـز فيـه عـن التجـارب التاريخيّـة إلـى الخطابـات والنصـوص والصـور، لكنّـه وقـوف فـي موقـف الـمتفرّجين، مسـتهلكي الصـور والنصـوص والخطابـات عـن الانتهـاك والتحطيـم، وليـس بحـال موقـف مَـن وقـع عليهـم الانتهـاك والتحطيـم، وهـو الـموقع الـذي يجـدر كفاعليـن عامّيـن بنـا تقمُّصـه، وجعلـه تجربـة عامّـة.

نعـم، صحيـح، إذا ظلـت الإهانـة خاصـة فـإنّ الـمُـهان يتحمّلهـا أكثـر، لكـن فرصـة تكرارهـا عليـه هـو ذاتـه أو علـى غيـره تبقـى كبيـرةً ضمـن الشـروط التـي مُورسـت فيهـا الإهانـة. بالـمقابل، إنّ إهانـةً عامّـة أقسـى علـى الـمُهان، لكـنّ فرصـة مقاومـة الإهانـة وحشـد الاحتجـاج الواسـع عليهـا وعلـى الشـروط التـي تجعلهـا ممكنـة ـ أكبـر بمـا لا يقـاس. هـل الانتهـاك الجنسـيّ للولـد يُذلُّـه؟ طبعًـا، ليـس هنـاك سـؤال فـي هـذا الخصـوص، لكنّنـا بتقمّصـه واعتبـار أنفسـنا مغتصبيـن مثلـه، ندافـع عـن كرامتـه، ونقلـب الإذلال إلـى فعـل تمـردٍ وصناعـة للفـن والقيـم، وهـو مـا ليـس ممكنًـا دون أن نشـاهد الواقعـة الإجراميّـة وندخـل فـي الـمشهد. اغتصـاب نسـاءٍ ليـس إذلالًا وتحطيمًـا لهـنّ فحسـب، بـل هـو تحطيـم لجماعتهـنّ أيضًـا. لكـن حيـن نُطـوِّر نحـن فـنًّا وثقافـة تقـول إنّنـا نحـن النسـاء اللاتـي اغتُـصبن، فإننـا نُسـهِم فـي صـون كرامتهـن، ونكـون لهـنّ رابطـةً اجتماعيـة جديـدة تحمـي جماعتهـن ذاتهـا مـن التحطُّـم. وهـو فعـل كرامـة حيـن نرفـض معرفـة عـدد ركعـات صـلاة الصبـح، كـي نكـون شـركاء للـمقتولين لا للقاتليـن.

أمـا إذا تكـتَّمنا علـى وقائـع الفظاعـة وصورهـا، فـإن أول مَـن ينجـو هـو مُنـتِج الفظيـع وممارسـه، وليـس ضحايـاه. بهـذا النهـج لا نحمـي الضحايا، وكرامـة أسَـرهم، وكرامتنـا كشـركاء لهـم فـي موقـع وفـي قضيّـة، بـل نحجـب القاتـل العـامّ عـن اللّـوم.



أنحاز للخيار الثاني، دون إنكار وجاهة بعض حجج الـمتحفّظين.

لكـن قـد يقـال: لـمَ لا نسـعى وراء ضوابـط أو مواثيـق يجـري الاتّفـاق عليهـا، بحيـث توضـع الصـور بتصـرّف العمـوم وفـق قواعـد محـددة؟ أي لـمَ لا نطـوّر «دسـتورًا» يحكـم علاقتنـا بعالـم الصـور؟ فـلا نحـن نـمنع ونُقـيّد بصـورة إداريّـة أو ذاتيّـة، ولا نحـن نبيـح ونتـهتّك؟ يبـدو هـذا معقـولًا، لكـنّ فـرص التقـدم نحـوه مرهونـة بتصـوري بالتقـدّم العـامّ نحـو مواثيـق وقواعـد تُخرجنـا مـن الإباحيّـة العُنـفِيّة، وفـي سياق بلـورة دسـتور للدولـة والسياسـة، أي فـي التحـوّل نحـو نظـام جديـد للاجتمـاع والسياسـة والحيـاة. وعلـى كلّ حـال هـذا يحيـل إلـى مـا سـبق قولـه عـن الأرشـيف. الأرشـيف هـو جمهوريّـة الصـور الدسـتوريّة الـمستقلّة، التـي نزورهـا متـى شئنا مـن أجـل ألا ننسـى، ومـن أجـل أن ننفصـل عـن الفظيـع فـي الآن ذاتـه. جمهوريّـة الصـور الـمستقلّة هـي أحـد وجـوه بنـاء جمهوريّـة الأحيـاء، الأحـرار.

أمـا مـا دمنـا فـي غمـار الأزمـة التأسيسـيّة وجنّـة العنـف الـمبذول الراهنـة، فـإن مَشـاعِيّة الصـورة تبـدو خيـارًا أكثـر اتسـاقًا مـن غيـره.

والواقـع أنّ هـذا ليـس إلا اضطلاعًـا بعواقـبِ وَضعِـنا الـمُتـمثّـل فـي استحالة ضبـط تدفّـق الصـور، وقبـول هـذه الاسـتحالة كقـدَر، ومحاولـة قلبهـا علـى نفسـها، أي بـتحويل الفظاعـة وصـور الفظيـع إلـى ذاكـرةٍ تنفصـل عـن الـماضي لأنّهـا انغمسـت فيـه وعرفَـته وتملّكتـه، تتحـرَّر منـه لأنهـا تعرفـه وتمتلكـه.

لقـد أُذلِلـنا إذلالًا خارقًـا، وكرامتنـا لـن تُـبنى علـى كَبـت ما أصابنـا، بل لن تُـبنى علـى غيـر النّظـر فـي وجـه ذُلنـا، والتحديق فيـه مليًّـا وكثيـرًا. وبعد التحديـق ومعـه، النقـاش العـام مسـلكٌ مناسـب جدًّا لـهضم الفظيـع، وقد يُثــمر أرضيـاتٍ فكريـة وأخلاقيـة وفنية أنسـب لتشـارُكٍ جديد.




مؤسسة دار الجديد

الكلوم والكلمات: في أزمة التمثيل وتمثيل الأزمات

مقالات إلى سميرة (*)

«فاللكمة أثرٌ في نفس السامع، لهذا سُميت كلمة في اللسان العربي، مُشتقة من الكَلْم وهو الجرح، وهو أثرٌ في جسم المكلوم»
«للكلام التأثير والفاعلية، فيَلتقي في ذلك مع الذكورة، وسُمي الكلام كلامًا لأنه يخرج من الكَلم أو الجرح كما يخرج المولود من فرج أمه».

محي الدين ابن عربي، **الفتوحات المكيّة**

١

في العربيّة رابطٌ اشتقاقيّ بين العناء والمعنى، يُسوِّغ إمكانيّة القول بأنّ المعنى وليد العناء أو المعاناة. غير أنّه ليس للمعاناة «رحِم» يُولَد منه المعنى، وإن أمكن للشعر أن يَصوغ صورةً كهذه. ومن شأن نقلٍ مباشر للعناء إلى معنى أن يجعل هذا المعنى شكوى حزينة أو تعبيرًا عن التألّم، مسلكًا يقارب النحيب. هل هناك نقل غير مباشر؟ الإجابة عن السؤال تحيل إلى أفقِ تفكيرٍ نال اهتمامًا محدودًا في إطار العربية: التمثيل. نحن لا نكفُّ عن تمثيل تجاربنا، خبراتنا، أزماتنا، مشاعرنا... نُحوِّلها إلى كلمات أو صور أو أصوات أو ألوان. هذه الترجمة أو

(*) المقالة السابعةُ من ثماني مقالات، روّسها الكاتب باسم زوجته المغيّبة، سميرة الخليل، ونُشرت عام ٢٠١٨.



النّقل «تحاكي» التجارب أو «تماثلها» بصور مختلفة، مُتبدِّلة تاريخيًّا، ومُعقَّدة. التمثيل هو المستوى الوسيط بين التجربة والفكرة، بين المعاناة والمعنى، بين الكلوم والكلمات إن استعرنا ربط ابن عربي بينهما، وهو يُنتِج تعبيرات وأشكالًا مستقلّة عما يجري تمثيله من عناء أو تجارب أو أزمات. تجاربُنا ليست معاناة وألـمًا حتمًا، ولا أزماتنا كذلك، لكن بوصفها أوضاعًا مضطربة وبلا شكل، الأزمات مُحفِّز للتفكير والتمثيل، للضبط بشَكل، وعبر ذلك نُحوِّل أزماتنا وعناء حياتنا إلى أفكار وصور ومعانٍ عامة، تساعدنا من جهة على الانفصال عنها (أي على أن يصير لنا تاريخ)، وتقبل من جهة أخرى الـمشاركة من آخرين (فتكون إسهامًا في تشكيل مجتمع).

عبر التمثيل نُجرِّد تجاربنا الـمؤلـمة من الألـم، مما هو جارح وراضّ. نفعل ذلك عبر صنع ألـمٍ غير مؤلـم إن جاز التعبير، ألـمٍ مَثيل أو مُحاكٍ، ننسج في ذلك على منوال آخرين أو «نبدع» منوالًا جديدًا، وربما ينسج على منوالنا آخرون. يقوم التمثيل على الـمحاكاة، إيجاد مَثيلٍ لـما نُمثِّل. ومن شأن إنتاج الأزمات الـمَثيلة والرضّات الـمثيلة، الـمُحاكية لأزماتنا ورضّاتنا الفعلية، أن يساعد على التخفُّف من هذه الأخيرة والتغلّب عليها، فيحوز التمثيل بذلك فاعليةً علاجيّة.

الربطُ بين الـمحاكاة والتمثيل يعود إلى إريك أويرباخ، في كتابه *Memesis* الذي ألَّفه في إسطنبول وقت كان منفيًّا من بلده ألـمانيا أيام النازيِّين. العنوان الفرعي للكتاب هو: **تمثيل الواقع في الأدب الغربيّ**.

٢ لكن قد نستعير من الـمتاح التمثيليّ لـتمثيل تجاربنا. نُمثِّل الحبّ بمقطع شعريّ من نزار قبّاني أو محمود درويش، أو الـمتنبيّ أو عنترة، أو أراغون أو نيرودا ...، أو بمقاطع من

أغنيـات مشـهورة، ونُمثِّـل الصبـر بآيـة مـن القـرآن أو التـوراة أو مـن الـمأثور أو أغنيـة لأمّ كلثـوم، والأمـل بــشعرٍ قديـم أو بقـول لسـعد اللـه ونـوس، والسياسـة بأقـوال نبويّـة أو مقتبسـات مـن ابـن خلـدون أو ابـن تيميـة أو لينيــن أو كارل شـميت. نتمثّـل بمثـل هـذه الأقـوال والأفـكار تجاربنـا، ونتشـاطر تراثًـا مـع جماعـة، أو تراثـات مـع جماعات/جماعاتنـا.

فـي كلّ حـال، نحـن لا نكـفُّ عـن تمثيـل تجاربنـا، نحـاول صوغهـا فـي كلــمات أو غيرهــا، إلــى حــدٍّ أنّــه يمكــن اعتبــار التمثيــل حاســةً تضــاف إلــى حواسّــنا الخمـس أو السّـت الأخـرى. التمثيـل حاسّـة بمعنـى أنّـه وسـيط دائـم بيننـا وبيـن العالــم. كان وولتـر بنياميـن قـد تكلّـم علـى «ملَـكة محـاكاة» فـي مقالـة صغيـرة لـه عـام ١٩٣٣، ويحتمـل أن أريـك أويربـاخ، وكانـا صديقيـن، اسـتفاد منـه فـي ذلـك. الــمحاكاة والتمثيـل مترابطـان عنـد الأخيـر.

ولا يقتصـر التمثيـل علـى اللغـة التـي ننسـى أنّهـا هـي ذاتهـا تمثيـلٌ للعالــم، وسـيطٌ اجتماعــيّ اصطلاحــيّ بيــن تجاربنــا وتعبيراتنــا، بــل تشـمل «لغـات» أو وسـائط متعـدّدة، منهـا الصـوت فـي الــموسيقى والخـط واللـون فـي الرسـم والصـورة فـي السينــما، والكُتـل الصلبـة الــمشغولة فــي النحــت والعمــارة، والأداء الجســديّ والكلامــيّ فــي الــمسرح... وغيرهــا كثيــر ومتجــدد.

فـي كلّ حـال، عبـر تمثيـل العالــم نخلـق مثيـلًا للعالــم، عالــمًا آخـر. فكأنّنـا لا نسـتطيع العيـش فـي عالـم وجدنـاه إن لـم نُعِـد خلقـه مـن جديـد.

وتُحيـل مفـرداتٌ فــي لغــة كلامنــا العاديّــة مثــل حَكَــى وتصــوَّر، إلــى نظريّــةٍ ضمنيّــة فــي الــمحاكاة. فالتصـوّر انطبـاعٌ فـي النفـس عـن شـيء خـارج النفـس، والحَكـيُ هـو أن يكـون كلامنـا مشـابهًا لــما جـرى، يَحكيـه



ويُحاكيه.

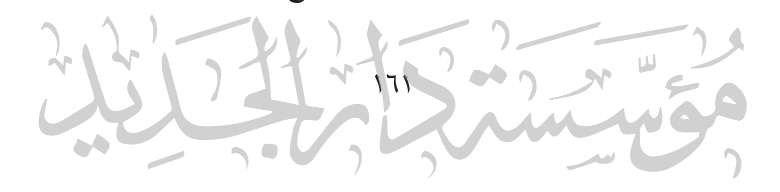
٣ لكن كيف نُنتِج التجارب المَثيلة أو المحاكِية؟ إذا تألّم الواحد منا أو خاف، فكيف يكون التعبير عن الألم والخوف في الكتابة أو الموسيقى أو التشكيل ألمًا مثيلًا أو خوفًا مثيلًا؟ وكيف تكون قصّة الحبّ المكتوبة أو المُصوَّرة سينمائيًّا حبًّا مثيلًا؟ هذا سؤالٌ حارت به الألباب وتاهت به الأفكار كما يقال، بخاصّة لكَون تمثيلات الحبّ والألم والخوف شديدة التنوّع، مع كون الحبّ حبًّا والخوف خوفًا. لا تشبه لوحة الغرنيكا لبيكاسو شيئًا واقعيًّا، لكنّها تمثيلٌ فظيعٌ للفظيع، يحاكي المذبحة بصورة لا تشبه تمثيلاتٍ سابقة ولا تستبعد صِيَغًا أخرى من محاكاة المجزرة. المحاكاة تاليًا لا تقتضي أن يكون التمثيل نسخةً ذهنيّة «مطابقة» للشيء أو صورة «أمينة» له، بل إنّها تتضمّن فاعلية تحويليّة أو إنتاجيّة، يتولّاها «المُمثل»، منتج التمثيل. لعل الغرنيكا متفوقة لكون تمثيلها للمذبحة غير «واقعي»، غير مسبوق، مع كونه «محاكيًا» لها بـ«صورة ما»: تكسُّرٌ وحشيٌّ للحياة، مشحونٌ بتوتّر أقصى. وقد تتفوق «خريف البطريرك» لماركيز في تمثيلها للدكتاتوريّة بأسلوبها الكابوسي القاطع للأنفاس. في هذين المثالين لدينا ابتعاد عن «الواقعية»، قد يمكن تعريف «الحداثة» به، بمسافة تتسع عن «الموضوع». يحمل مُدرَك الواقعية تصوّرًا للأدب والفن يحيل إلى «الواقع»، ويتمايز إلى واقعيّة تقليديّة وواقعيّة اشتراكيّة وواقعيّة نقديّة وواقعيّة سحريّة وغيرها، تولَّدتْ عن اختلاف تمثيل الموضوع الواقعيّ، وعن تراثٍ من تمثيلات مختلفة أنتجتها هي ذاتها وظهَر عدم كفايتها.

ويُظهر هذان المثالان أيضًا أنّ التمثيل، إلى جانب المحاكاة، يتضمّن



فاعليـةً مُنشِـئة، قـرارًا، فِعـلَ لا محـاكاة إن جـاز التعبيـر، أو خروجًـا علـى قواعـد اللعـب الـمقرّرة، «التقليـد»، بحيـث لا يمكننـا توقُّـع تمثيـل التجـارب قبـل تمثيلهـا. القاعـدة أو الشّـكل لا يسـبقان التمثيـل، يتولّـدان منـه. وهـو مـا يبقـى صحيحًـا حتـى لـو كنّـا نعتـنق الـمذهب الواقعـيّ فـي التمثيـل. فحتّـى حيـن يقتصـر الأمـر علـى تمثيـل شـيء جامـد، مثـل «الطبيعـة الصامتـة» فـي الرسـم أو شـعر «الوصـف» العربـيّ، فـإنّ التمثيـل أغنـى مـن أن يكـون «نسـخة طبـق الأصـل» مـن الشـيء. هنـاك تدخُّـل الوسـيط مـن خـطٍّ ولـونٍ وضـوء، ومـن كلـمات ونَظـم وإيقـاع، وهنـاك «نَفَـس» الشّـاعر أو الرّسّـام، قـراره فـي أن لا يحاكـي وهـو يحاكـي، فـي أن لا يكـون آلـة تُـنتِج الـمثائل وحدهـا. قـد تكـون النتيجة فنًّـا رديئًا، لكـن فـي التمثيـل الفنّـيّ فاعليـة منشـئة فـي كلّ حـال، تتجاوز الـمحاكاة.

ولعـلّ مـا يمكـن أن يؤخـذ علـى الواقعيّـة بـكلّ تيّاراتهـا هـو مركزيّـة «الواقـع» فـي تفكيرهـا، وليـس التجربـة، مع تصورٍ شيـئِـيٍّ للواقـع يجعله قابـلًا للنَّسـخ، مـا يفتـح بابًـا للتسـاؤل عـن مـدى مطابقـة النسـخ للأصـل وعـدم مطابقتهـا لـه. تفكّـر الواقعيّـة فـي أشـياء وأوضـاع تبقـى مماثلـةً لذاتهـا، أو فـي هُوِيّـة ذاتيـة قبـل تمثُّـلنا لهـا وخلالـه وبعـده. هنـاك واقـعٌ مـن جهـة وهنـاك إدراكٌ لـه مـن جهـة ثانيـة. كأننـا منفصلـون عـن العالـم وكأنّ العالـم منفصـل عنـا، كأنّ الإدراك يأتي الأشـياء مـن خارجها، والواقـع مـن خارجـه. وهـذا فـي تصـوري أسـاسُ النظريـات الـمِـثالية والدينيّـة حـول الفكـر والـروح. فـإذا كنّـا لا نوجَـدُ في العالـم إلا بالعالـم (نحـن منـه، مُتكوِّنـون فيـه مـع كلّ مـا فيـه، وهـو مِنـا)، وكان إدراكنـا للعالـم متشـكّلًا فـي العالـم، وجـب أن يتمركـز تفكيرنـا حـول التجربـة، حـول اختبـار العالـم و«معاناتـه»، أعنـي الوجـود فيـه ووجـوده فينـا. من شـأن ذلـك أن يُضيِّـق الـمسافة بيـن الوجـود والـمعرفة، ويلغـي شـرعيّة السـؤال عـن شـرعيّة الـمعرفة (هـل نسـتطيع أن نعـرف؟ هـل مـا نعرفـه



يقول شيئًا عن العالم؟)، وربما يُسبغ طابعًا وجوديًّا على المعرفة بقدر ما يُسبغ طابعًا معرفيًّا على الوجود.

مفهومُ التجربة، خلافًا لمفهوم الإدراك، يستوعب أنّ لنا تاريخًا، أنّنا نختبر العالم ولنا خبرات سابقة في الاختبار، تاريخ من التمثيل و«المعاناة». هذا واضح أكثر في مفهوم الخبرة. الكلام على إدراكٍ أو معرفةٍ عند «المِثاليِّين» و«الماديِّين» يغفل هذا العنصر التاريخيّ.

وأهمّ من ذلك أنّ مفهوم التجربة يُلغي فكرة الأصل والمطابقة. التجارب متغايرة، وتَغايُرها مُكوِّن لها.

المعاناة هنا ليست توجُّعنا من العالم أو آلامنا فيه، بل هي وجودنا في العالم واختبارنا له وتمرّسنا به. والمعنى هنا وثيق الصلة باختبار الوجود.

٤

تقترح هذه المناقشة أنّ التمثيل نقطةُ تقاطعٍ بين خطَّين، أفقي وعموديّ، إن جاز... التمثيل. يتوسّط الخطُّ الأفقيُّ بين التجارب والأفكار أو بين معاناة الوجود والمعنى، والخطّ العموديّ يتمثّل في التراث، وما يُوفِّره لنا من لغاتٍ وأشكال وقواعد وأدوات لتمثيل العالم. أعني بالتراث: المتاح من مخزون التمثيلات الكُلِّي الذي نستند إليه في إنتاج تمثيلاتنا اليوم، التقاليد الكتابيّة منها والموسيقيّة والأدائيّة وغيرها. على الخطّ الأفقيّ يمكن أن نتكلّم على **تعبير**، نُعبِّر عن التجربة بفكرة أو عن معاناة الوجود بمعنى أو عن الخبرة بمَثل... إلخ. التعبير «يحاكي» التجربة أو الأزمة المُحفِّزة ويتجاوزها، «يُعبِّر» عنها ويَعبُرها إلى المعنى أو «العِبْرة».

وعلى الخطّ العموديّ نتكلم على **تشكيل** للتجربة أو الخبرة،

مُستندين إلى ما يتيحه التراث من أشكال وصور وقواعد، ولاعبين بها وخارجين عليها. أو قد يكون الأنسب أن نتكلّم على تُراثاتٍ بالجمع لا على تراث بالمفرد، لـ«تمثيل» مُتاحِيَّاتٍ مختلفة لمخزون الأشكال، بعضها قديم وبعضها أحدث، بعضها موروث وبعضها مكتسب، فيها المحليّ والوافد، الشعبيّ والعالِم، نشارك مَن هم حولنا في تراث، ونشارك آخرين في تراث آخر، وغيرهم في تراث ثالث... إلخ. فإذا كان الواحد منا روائيًّا شيوعيًّا عربيًّا على سبيل المثال، فإنه شريك في جوانبَ من تراث العربيّة، وهو شريك في تراث الرواية في العالم، ثم شريك في تراثٍ شيوعيٍّ له رموزه وأغراضه ومَراجعه، هذا فضلًا عن تراث عائليّ ومحليّ، مكتسب في سنوات الطفولة واليفاع. التوافق بين التُّراثات أو التنسيق بينها على نحو «مبدع» (أي مختلف وجديد وجذّاب) هو تحدٍّ يضطلع به الكُتاب، فيوفّقون قليلًا أو كثيرًا.

ويتسنى لنا بفِعل وجود تُراثاتٍ متعدّدة إدخال النسبيّة على إكراهات قواعد كلٍّ منها، وبالتّالي الإفلات من التبعية لأيٍّ منها، أو مساحة استقلال عن كلٍّ منها، بما يُيسِّر لنا الحركة واللعب بحرّيّة أكبر. ضمن تراثٍ واحد نكون أقلّ حريّة، ثمّ نازعين إلى تكرار ما يُتيح من تمثيلات، والعيش في عالم مغلق، حَلَقيِّ التاريخ.

التمثيلُ في كلّ حالٍ تركيبٌ بين التعبير (محور تجارب/ أفكار) والتشكيل (محور التراث/ التراثات)، يمكن أن تتولّد عنه أفكارٌ وصور جديدة تضاف إلى التراثات وتضيف إليها. الفنّ الشعبيّ تعبيريٌّ غالبًا لأنه وصلٌ أقرب إلى المباشرة بين العناء والمعنى، يستفيد على نحوٍ محدود من التراث المَذخور. واللغة المَحكيّة تعبيريّة لأنّها غير مُدوَّنة وتكاد تكون بلا تراث، بلا تراثٍ مُدوَّن ومحفوظ على



الأقـلّ، أي فقيـرة إلـى الشَّـكل. وبالعكـس، يمكـن تعريـف الــمدرسية، أو السكولاسـتيكيّة، بمـا فيهـا غيـر قليـل مـن الأكاديميـا الــمعاصرة، بأنّهـا تشـكيليّة، تشـتغل علـى تراث/تراثـات معطـاة وتعيـد تشكيلهـا فـي صـور مختلفـة، مـع صلـةٍ محـدودة بتجارب اليـوم وأزماته. الإسـلاميّة الــمعاصرة عمومًـا، والسـلفيّة بخاصّـة، تشـكيليةٌ بقـدر كبيـر، تغفـل محـور التعبيـر، أي مـا يتّصـل بأوضـاع عيانيّـة، بتجـارب ومِحـن، بأزمـات اجتماعيّـة أو سياسـيّة (سأسـتدرك علـى هـذا لاحقًـا)، وتُذيبهـا فـي مُخطَّـط مُسبَق جاهـز، مُسـتمَدّ مـن التـراث الواحـد، بـل مـن جـزء منـه. ولأنّ التـراث هنـا واحـد أو أقـل (جـزء مـن تـراث)، فـإنّ مجـال اللعـب والتغييـر يبقـى ضيّقًـا، ولا تُتـاح مسـاحة اسـتقلالٍ تُـتيح النظـر إلـى التـراث مـن خارجـه ورؤيـة نواقصـه وميزاتـه. يعيـش الإسـلاميّ فـي داخـل تراثـه، يرى بعينَـيِ التـراث، ويحتمـي بـه مـن تجـارب وأزمـات و«كلـوم» محرومـة مـن التعبيـر والكلـمات الجديـدة.

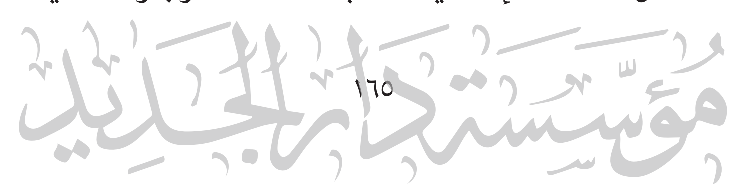
٥ إذا كان التمثيـل حاسَّـة، فليـس بيننـا مـن لا يُمثِّلـون. لكـن هنـاك تمثيـل يضيـف معنًـى أو قيمـة إلـى التـراث، تمثيـلٌ مُنـتج أو «مُبـدع»، وهنـاك تمثيـلٌ لا يضيـف، عقيـمٌ أو اجتـراريّ. الإبـداع هـو مُركَّـبُ تعبيـر/ تشـكيل بـلا سـوابق فـي التاريـخ، ليـس نسـخة مـن شـيء سـابق الوجـود. يأتـي الإبـداع، مـن تغايـر التجـارب والأزمـات، وقـد تقـدَّم القـول إنّ الأزمـات أوضـاعٌ مضطربـة فاقـدة للشـكل، «تدعونـا» إلـى تشـكيلها. لكنّـه (الإبـداع) يأتـي كذلـك مـن اسـتقلال الأشـكال عـن التجـارب ومـن تعدُّدهـا (الأشـكال)، وتعـدُّد التـراثات ذاتهـا.

ولعلّنـا نُوظِّـف فـي الإبـداع الكلامـيّ قـدراتٍ توليديّـة علـى إنتـاج عبـارات جديـدة، القـدرات التـي يعتـقد تشومسـكي أنّهـا فطريّـة وتعـمُّ

الناس جميعًا. ميـزة هـذه النظريّـة أنّها تجعـل الإبـداع فاعليّـةً لصيقـة بالإنسـان بمـا هـو كذلـك، وليـس بـمُبدعين موهوبيـن دون غيرهـم. لكن لعلّ الإبـداع فـي الأدب والفـن والعلـم هو هـذه القـدرات التوليديّة وقد صـارت مقصـدًا مُـدركًا ويقبـل التعلُّـم، أو وقـد وَظَّـف فيهـا «الـمبدعون» طاقـات وجهـودًا خاصّـة. فـإن صحّ ذلـك أمكـن القـول إنّـه يمكـن إبـداع الإبـداع بالتدريـب والرعايـة الخاصّـة.

قـد لا يكـون افتـراضُ الفِطريّـة لازمًـا، وربّمـا يتولّـد الإبـداع مـن تجـارب الـمعنى التـي تعـود علينـا بتوجُّـهٍ أفضـل فـي الحيـاة أو بـسَداد أكبر في الوجـود. بعبـارة أخـرى، ربمـا نُبـدع لأنّ بعـض تمثيلاتنـا مُحْيِـيَة أكثـر من بعـضٍ آخـر. حيـن نقـول الشـيء نفسـه أو نُعبِّـر عـن تجاربنـا الـمختلفة بالكلـمات أو الصـور نفسـها، فـإنّ التجـارب تبقـى غيـر مُمثَّـلة عمليًّـا، فنبقـى ملتصقيـن بهـا لا ننفصـل عنهـا. مـن تجاربنـا مـا ليـس مختلفًـا، شـأن كثيـر مـن أوجـه الحيـاة اليوميّـة (تفاعلنـا مـع عبـارات التحيّـة، مـع تعبيرات الـمجاملة، السـلوك الطقسـي الـمتكرر...)، وتكفـي التقاليد والتعابيـر اليوميـة لتمثيلهـا. الـمجتمع يتكـوّن حـول مـا يتكـرَّر، حـول دليـل مـن التعابيـر والـمسالك التكراريّـة التـي نُسمّيها عـادات وتقاليـد. ليـس هنـاك معنـى وليـد هنـا، هنـاك نظـام وتفاهـم واسـتقرار قديـم. لكـنّ التجـارب الـمغايرة تحتـاج إلـى تمثيـلٍ مغايـر، توليـد للـمعنى نُـكافَـأ عليـه بوجـودٍ أرسـخ. الإبـداع بهـذا الـمعنى فِعـل وجـود، إنتـاج للـمعاني التـي تعـود علينـا بوجـودٍ أجـود.

ونقيـض الإبـداع هـو بالضبـط التكـرار مـن حيـث إنّـه لا يضيـف معنـى، ومـن حيـث إنّ الـمعنى هـو الـمعنى الـمُضاف، نِـتاجه أنَّ معنـى دون إضافـةٍ هـو لا معنـى. الوجود يسـتهلك ويهتـرئ دون تجدُّدٍ في الـمعنى. وقـد نُشخِّص مشـكلة الإسـلاميّة هنـا بـأنّ معانـاة الوجـود الحديـث لـم



تُمثَّل، لـم يواكبهـا إنتـاج معـانٍ مُضافـة. الوجـود السـيء هـو الوجـود بلا تمثيـل، معانـاة بـلا معنـى.

فـي كلّ حـال، تعـدُّد وتغايُـر التجـارب، وبالتالـي التعبيـرات، ثـمّ تعـدّد التراثـات، وبالتالـي الأشـكال، ثـمّ الـمهارات الـمكتسبة الـمتطوّرة، هـذا التعـدّد هـو سنَـد الإبـداع. أفـرادًا وثقافـات، إبداعيَّتـنا تتـدنّى حيـن تكـون تجاربنـا محـدودة النطـاق، لا تتحـدّى مألوفنـا ولا تُقلـق عاداتنـا فـي التعبيـر والتشـكيل، ولا تدعونـا إلـى خوض مغامـرات تمثيليّـة، وحين لا نتعهَّـد قدراتنـا التوليديّـة فنجعـل منهـا اكتسـابًا يتطـوّر، وكذلـك حيـن نكـون محصوريـن فـي تـراثٍ واحـد بـدل تكثيـر تراثاتـنا. ولعلّـه صـار واضحًـا الآن أنّ التـراث ضـروريٌّ للإبـداع، وأنّ الإبـداع لا يكـون قريـنَ الخـروج مـن التـراث إلا حيـن يكـون هـذا تراثًـا واحـدًا لا نخـرج منـه كأنّـه سـجن، فنجـد أنفسـنا بعـد حيـن يطـول أو يقصـر نُكـرِّر أنفسـنا ونجتـرّ مـا يتيحـه لنـا التـراث الواحـد مـن أشـكال وصـور.

وتوفُّـر التـراثات الـمختلفة قـدراتٍ غيـر متسـاوية علـى التشـكيل. التـراث الشـعبيّ أفقـر بالأشـكال مـن التـراث العالِـم، وإن يكـن أغنـى تعبيـرًا. التمثيـل تعبيـريٌّ هنـا. ومثـل ذلـك مـا كان يسـمّى قبـل جيـل أو أكثـر الـمباشرة فـي الأدب أو الفـن. الـمباشرة هـي اسـتغناءٌ بالتعبيـر عـن التشـكيل، وبالتالـي هـي تمثيـل ناقـص. مـا يميّـز الـمباشرة فـي الأدب مـن إعـلاء للـمضمون علـى حسـاب الشـكل هـو وقـوع فـي أسـر التعبيريّـة الفـجَّة، حيـث الأزمـة تُنقـل مباشـرة إلـى الأدب والفـن والفكر، ربمـا طمعًـا بأثَـرها الانفعالـيّ التعبـويّ. ويقتـرن ذلـك بـازدراءٍ للتـراث/ التراثـات أو التقاليـد وغفلـةٍ عـن نَفعهـا التشـكيليّ. كانـت الـمباشرة تلقـى تعزيـزًا فـي نظريّـة الانعـكاس الـماركسيّة (الـمعرفةُ انعـكاسٌ للواقـع) التـي كانـت بدورهـا تختـزل الفكـر والفـن إلـى تعبيـر، وتُلحـق

التمثيـل إمّـا بالــمعرفة العلــميّة أو بمتطلّبـاتٍ عمليّـة (الحـزب، الصـراع الطَّــبقيّ، الثـورة الاجتماعيّـة...)، فـتُعلي مـن شـأن «الــمضمون» وتُهمـل التراثـات أو البعـد التشـكيلي للتمثيـل. الأدب الـذي يُنــتِجه إسـلاميّون هو أدب تعبيــريّ أيضًـا، مضمـون بـلا شـكل، رغـم أنّ القـومَ تراثــيّون. وقـد يكـون فـي جـذر هـذه الــمفارقة أنّ ذاتيّـة الإسـلاميّين الحديثة هـي ذاتيّةٌ قائمـة علـى الصـراع والنفـي، تبحـث عـن تأكيـد ذاتهـا بحشـد الانفعـالات والتعبئـة ضـدّ جبهـةٍ واسـعة مـن الأعـداء تشـمل العالــم كلّـه تقريبًـا. لن نـرى هنـا انشـغالًا بالشـكل، أو هـو يقتصـر عمومًـا علـى سـجن التـراث الواحـد الـذي لا يضيـف معنـى.

التـراثُ الثقافـيّ العربـيّ يوفّـر قـدرات تمثيليّـة أفقـر ممـا يتيحـه التـراث الغربيّ الحديث، مُتــعدِّد اللغات والأغنى بالأشـكال (الــموسيقى، الرسـم، النحـت، العمـارة، فنـون الأداء...). التـراث الدينـيّ الإسـلامي يُناهـض بعض وسـائط تمثيـل العالــم كالنحـت، وموقفـه ليـس إيجابيًّا حيال الــموسيقى والرسـم (غيـر الزخرفـيّ والخطوطـيّ)، والــمسرح والسينــما. وفـي جـذر ذلـك علـى الأرجـح رفـض منازعـة اللـه علـى الخلـق. لكـنَّ قتـل خَلْقِــيَّة الإنسـان مـن أجـل حمايـة خلقيـة اللـه هـو درب إلـى البدائيّـة، ويعطـي فكـرةً غيـر طيّبـة عـن اللـه ذاتـه، فإمّـا أنّـه يخـاف مـن خلقيـة الإنسـان أو إبداعـه، أو أنّـه لــم يكـن يعـرف أنّ الإنسـان خالـق، أو أنّـه كان يعـرف ثــمّ غيّـر رأيـه. وفـي عمومـه هـذا مُفقـر، ويضعنـا فـي موقـع أضعـف حيـال أزماتنـا. مقابـل هـذا الإفقـار الدينـيّ للُغـات تمثيـل العالــم، هنـاك ضغـط شـديد علـى التمثيـلات اللغويّـة، مـا يرهـق العربيـة ويحـدُّ مـن نجاعـة تمثيلاتهـا ومـن الثقـة بهـا.



٦

لكنَّ التمثيل ليس مضمون النجاح.
والفشـل يمكـن أن يتـأتَّى عـن فشـل التشـكيل أو فشـل التعبيـر أو فشـلهما معًـا.

نفشـل لأنّ تمثيلنـا لـم يُضـف جديدًا إلى الـمخزون الـمتاح من أشـكال وصـور ومقـولات ومفاهيـم، أي لأنّنـا نُـكرِّر، أو لأنّنـا لا نعمل علـى تطوير تمثيلاتنـا بمـا يعطـي تجاربنـا قيمـةً صانعـة للـمجتمع وفاتحـة لـه علـى الـمثيل الـمغاير، أو لأنّ الـمتاح التراثـيّ لا يسـتوعب التجـارب والأزمات الجديدة.

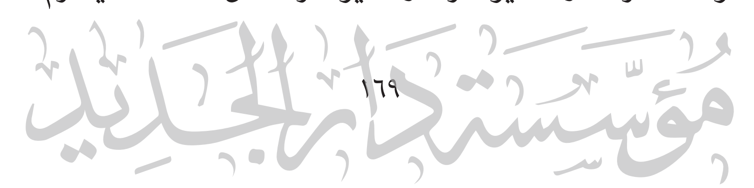
لدينـا أمثلـة قريبـة من الـمتناول لـمشكلات فشـل التمثيل ذات الـمنشأ التراثـيّ، منهـا مـا يتّصـل باللغـة العربيـة ذاتهـا، ومـا يتّصـل بالشـعر وكتابتـه، ومـا يتّصـل بالديـن وأحكامـه. كأنْ نكتـب الشـعر ملتـزمين العمـود والنَّـظم والقافيـة والأغراض الـموروثة، ونتكلّم وفقًا لـما يفترض أنّهـا أصـول الـكلام العربـي الصحيـح، متجنّـبين الـمُولَّـدَ والـمُعرَّبَ مـن الكلـمات، ونتـديَّن وننضبـط فـي سـلوكنا الدينـيّ بقواعـد وموجبـات قرَّرهـا فقهـاء ماتـوا منـذ قـرون طويلـة، أزماتهـا تختلـف عـن أزمـات زماننـا، بذريعـة صلاحيّـة الإسـلام لـكلّ زمـان ومـكان. قـد نتكلّـم فـي الحـالات الثـلاث علـى نزعـة أصوليّـة، لغويّـة وشـعريّة ودينيّـة، تنحـاز للـولاء الحَرفـيّ لصِيـغ فـي التمثيـل تنفـي تغيُّـر الأزمنـة والتجـارب والأزمـات والكلـوم، فتتـرك الـمستجَد مـن هذه غيـر مُمثَّل وغيـر معالج. فشـل التمثيـل ينعكـس علـى الوجـود تلعثمًـا وركاكـة.

شـغلتْ قضايـا التـراث الـمفكّرين العـرب بيـن سـبعينيّات القـرن العشـرين ونهايـة القـرن. شـخَّص محمـد عابـد الجابـري مشـكلات «العقـل العربـي» فـي أنّـه «عقـل قياسـيّ»، يعتمـد آليـةً عقليّـة خاصّـة: قيـاس الغائـب علـى الشـاهد. الشـاهد فـي الفِـقه هـو قضيـةٌ فيهـا حكم

معلـوم، تقـاس عليهـا «نـوازل» أو مسـتجَدّات للحصـول علـى حكـم بشـأنها. وكان استُـخدِم الـمنهج نفسـه فـي النّحـو، وعليـه فـي الأصـل قـام تقعيـد العربيّـة. فـي الـمصطلحات بالـذات لدينـا عالـم مقلـوب، يحـل النـص فيـه محـل العالـم وتجاربنـا فـي العالـم. «الغائـب» (وليـس «الشـاهد») هـو التجربـة أو الأزمـة أو السـؤال أو الوضـع غيـر الـمسـتـقرّ الـذي نعايِـنه ونعانيـه اليـوم، و«الشـاهد» (وليـس «الغائـب») هـو نـصّ قديـم، مكـرّس. بعبـارة أخـرى الغائب هو العالـم الـمتغيّر، والشـاهد هو النـص الـمنتهي غيـر الـمتغير. ولـمّا كان التماثـلُ بيـن «غائب» الشـؤون الإنسـانيّة (مسـتجدّها الـمتغيّر أبـدًا) و«شاهد»ـها (مـا سـبقت معرفتـه و«الحكـم» فـي شـأنه) ممتنعًـا، ولـمّا كان التماثـل هـو «علّـة» القيـاس أصلًا، كان القيـاس آليـة متعـسّفة، تدفـع نحـو سـوق الغوائب الـمختلفة إلـى الشـواهد الـمتماثلة، فتُخضِـعُ اللامتناهـي للـمتناهي، وتشجّع على نظريّـة تماثليّـة وتكراريّـة للعالـم. وعبـر تضييـق العالـم الـمتغيّر علـى هـذا النحـو، يُحـال دون تولّـد الـمعنى الـمضاف، أي الـمعنى. هنا محور التعبيـر لا يعمـل، وتُحـرَمُ التجربـة أو العنـاء مـن التمثيـل أو تُـفـرض عليهمـا «الاسـتقالة»، إن اسـتعرنا مـن لغـة الجابـريّ نفسـه. وهنـا أيضًـا «يسـتقيل» الـمجرِّبُ لـمصلحة القائـس، وهـذا وكيـلٌ لقاعـدة نصيّـة مقـرّرة سـلفًا، لا تُـنـتج معـانٍ. القاعـدة تُخضِـعُ الحاضـر للـماضي، لـما سـبقت معرفتـه، فـلا تُمثِّـل الجديـد ولا تتجـدّد بـه. ومـا ليـس قياسـيًّا يُقصـى إلـى مجـال الشـاذ الـذي لا يُقـاس عليـه.

هـذا فشـلٌ للتمثيـل بسـبب التـراث. تبقـى التجـارب غيـر مُمثَّـلة، وغيـر مُتمثَّـلة، أي مُسـتوعبَة وغير مُمتلَـكة.

فـي كلّ حـال، نحـن هنـا حيـال فشـل التمثيـل بتأثيـر مشـكلات تتّصـل بضغـوط التـراث ومـا يوفـره أو لا يوفـره مـن أشـكال. يلـزم فقـط



تخصيص كلمة فشل. فبما أنّ التمثيل حاسّة كما تقدم، فنحن نُمثِّل في كلّ حال، ويتحتّم لتقمُّصنا التراث حصرًا أن يكون متصلًا بأوضاع اليوم وتجاربه.

٧

وهذا ما أريد التركيز عليه هنا: تعثُّر ترجمة تجارب اليوم وأزماته ـ إلى عبارات وأفكار، إلى فِكر وفنّ، العناء إلى معانٍ، أعني فشل التعبير. ليس مضمونًا بحال أن نستطيع تَعبير المعاناة إلى معنى، بأن ننقلها خارجنا فنُشكِّل مع مَن عبرنا بها ونقلناها إليهم مجتمعًا. وليس مضمونًا بالمِثل أن ننجح في نزع رضّتها ونتمكن من الانفصال عنها، فيتشكل لنا تاريخ. قد تقتلنا حين تتجاوز حدًّا من الرّضّية لا نُطيقه، أو قد تُحطِّم قدراتنا التعبيريّة أو رغبة التعبير عندنا. من ذلك تجارب كالتعذيب والاغتصاب وشروط الاعتقال المديدة القاسية... مما كان نصيبَ كثيرٍ من السوريين في سنوات ما بعد الثورة. هنا لا نُعبِّر، والمعنى لا يتولَّد. من تجاربنا هذه ما يقتل أيًّا تكن وسائطنا وأهلِيَّتنا التمثيليّة. لكن لعلّ هناك تجارب يتجاوز تمثيلها قدرةَ ما لدينا من وسائط وأشكال، وربما يتجاوز كلّ التراث أو المتاح البشريّ. تجارب قاسية، جارحة، مُكربة. قد يمكن تعريف الكَرْب بأنّه نتاج فشل التعبير، حالُنا حين نعيش مع عنائنا لا نستطيع جعله معنى عامًّا (لا مجتمع)، ولا ننفصل عنه (لا تاريخ). نعيش في أَسره، لا شريك لنا فيه ولا بُعد لنا عنه.

بيننا مَن يتحمّلون المصاعب أكثر لأنهم تمرَّسوا بها، يستطيعون تمثيلها، يُحوِّلون الأزمات الصعبة إلى بدايات جديدة. لكنّ المسألةَ في كلّ حال مسألةُ نِسبةٍ وتناسُب. قد تبلغ الصعابُ حدًّا يتجاوز كلّ تمرُّسٍ وقدرة على التمثيل. رضّتُها تبقى معنا، نعيش جَرحى،

مُنطوين على جروحنا، مُزامنين لوقت الرّضّة لا ننفصل عنه. ربما لو استطعنا التعبير، ولو توفَّرنا على أشكال، لساعدَنا ذلك ونَجَونا.

على أنّنا قد لا نُمثِّل لأنّنا لا نريد أن نُمثِّل. نُدرِك أن التمثيل جهدٌ للسيطرة على رضّاتنا وخطوةٌ نحو الانفصال عنها، والسَّير خطوة نحو التصالح مع عالمٍ تسبَّب لنا بها. لا نريد. الاكتئاب أو الميول الانتحاريّة، أو «السنّة» في مفهوم عبد الله العروي الذي سأتناوله للتوّ (الالتصاق بالرّضّة أو الدوران في مدار ضيق حولها)، أو التحول إلى قنابل متفجرة، قد تكون كلّها مُتّصلة برفض التمثيل، وإرادة حماية رضّاتنا من التمثيل (مقابل حمايتنا من رضّاتنا بتمثيلها وتوديعها). وقد نريد معاقبة أنفسنا على تجارب راضّة فنُقاوم تمثيلها، نريدها أن تبقى جارحة عِقابًا للنفس.

في كلّ حال، عالمُ التعبير سياسيّ، يتّصل بتجارب اليوم، وهي تجارب سياسيّة حتّى حين لا تكون بالغةَ القسوة كتجاربنا السوريّة، أعني أنّها تجارب تَتحدَّد بقدرٍ كبير بالدولة ونَواظِمها، وبأفعال فاعلين عامِّين، وبنُظم الدخل وفرص العيش، وبالعالم والقيود على الحركة والتغيّر فيه.

أتوقّف هنا لتوضيحٍ ضروريّ. تَقدَّم أكثر من مرّة أنّ تمثيل تجاربنا يساعد على «الانفصال» عنها أو أخذ مسافةٍ منها، فيصير لنا تاريخ على هذا النَّحو. لكنّ استعارة مسافة الانفصال هذه لا تُمثِّل تجربة التمثيل على أنسب وجه. بالتمثيل وإنتاج المعنى نحن نتملَّك تجاربنا، نتغيّر بامتلاكنا لها وإضافتها إلينا. ولذلك فقد تكون الاستعارة الأنسب هي استعارة العُمق: عبر تمثيل التجارب، أي تعبيرها وتشكيلها، نضعها مُرتَّبةً على رفٍّ في خزانتنا الداخلية. مُرتَّبة أي مُستقرَّة في شكلها لا تخرج منه ولا تفيض عليه. تصير



وراءنا في الماضي لأنها استقرَّت في شكلٍ في الداخل العميق. ليس الأمرُ أمرَ توديعٍ إذًا، وإنما هو أمر إيداع. تجاربنا الجديدة تبني على سجلٍّ من تجارب مُخزَّنة على نحوٍ مُرتَّب كثيرًا أو قليلًا. تبقى معنا الملفات التي لا نُرتِّبها، «المُفشكلة». مُفشكل تعبيرٌ من المَحكِيَّة السوريّة يلتقي فيه مُدركًا الفشل والمشكلة (أي فقدان الشكل)، وهو لذلك مناسب جدًّا لأغراض هذه المقالة.

بالتحوّل من استعارة المسافة إلى استعارة العمق، ننتقل من التاريخ إلى الأنثروبولوجيا، أو يتأسّسُ التاريخُ أنثروبولوجيًّا.

٨

ثمّ هناك فشلٌ للتمثيل مُتولِّدٌ منِ الْتقاء فشل التعبير بفشل التشكيل، أي الْتقاء جارجِيَّة التجارب بقُصورات التراث. عبد الله العروي هو مَن طوَّر مفهومًا ديناميكيًّا للتراث، وربَط في **السنّة والإصلاح** بين التراث، والذي يُسمِّيه السنّة، ومشكلات الواقع أو أزماته، والذي يُسمِّيه الحدث. يعتقد العروي بأن «السّنّة» هي فاعليةُ تَسنين (لا يستخدم المصطلح في كتابه)، لا تكفُّ عن تصفية «الحدث»، أي الأزمة أو التجربة. لدينا هنا تمثيل للتجربة يمتصُّها ويُعطِّل أثرها «المُحدَث» في مُخطَّط معطى مسبقًا لا يكفُّ عن توكيد نفسه. أو بالأحرى لدينا هنا رفض للتمثيل ومقاومة له، يُلغي ذاتيّةَ التجربة ومغايرتها. يتعلّق الأمر بنفي ديناميكيٍّ للتاريخ، يُحتمل أنّ مَنشأه صفة راضّة للتاريخ لا تطاق. العروي نفسه يشير إلى ذلك. يتكلّم على «تاريخ تراجُع وخذلان»، إلى «ضَيم وهوان» أصابا «أصحاب الشّرع والرسالة»، العرب. يُلمِح إلى حدثٍ مؤلم غير مسمّى، يشبه «تعرّض حيّ لاعتداء». وعلى هذا الضوء تظهر السنّة كديناميكيّةِ احتماءٍ استقلَّت بنفسها

وظلَّت حيةً حتّى بعدما لم تعد تحمي من شيء، بل حتّى بعدما صار هذا النهج مُهلِكًا. كنّا نَنفي التاريخ عبر السنّة، وعبر السنّة صار التاريخ الذي نَنفيه ينفينا دون توقّفنا عن نفيه. السنّة بهذا المعنى طلبٌ نشطٌ على الخروج من التاريخ، بل انتحارٌ جماعي.

والسؤال الذي يُثيره هذا التصوّر الديناميكيّ للتراث يتّصل بما إذا كان يمكن استخراج الحدث أو الاستدلال عليه من التقليد أو التراث المتاح، من السنّة، أي هل يمكن التعرف في التراث ككلماتٍ على الكلوم التي أطلقت السنّة، وعلى محور التعبير الذي قلنا فوق إنّه يربط بين الكلوم والكلمات؟ هذا ربّما يقع خارج نطاق الدراسات التراثيّة، وأقرب إلى نطاق التاريخ. والمشكلة في طرح العروي، وهو مؤرّخ، أنّنا لا نعرف الحدث الذي أطلق عمليّة التَّسَنُّن، بل يبدو أن هذا الحدث افتراضٌ مُضمَرٌ في مفهوم السنّة على نحو ما قرَّره المفكر المغربي. أي أننا هنا حيال «دور»: السنّة تكوّنتْ حول حدثٍ جارح لا نعرفه، ولا نستدل على الحدث من غير مفهوم السنّة ذاته. تُرى ألا يُحتمل أن يكون أصل السنّة ـ كديناميةِ تصفيةٍ للحدث ـ رفضُ التمثيل، أو التفاعل بين «اعتداء» راض وبين مقاومة لتمثيل الاعتداء واستعداد مُسبَق للانسحاب من التجربة خوفًا من الشقاق والصراع، أي لأسباب سياسيّة؟ لدينا مُركَّب حدَثيّ معاصر ربما يساعد في تمثيل ظهور «السنّة» في أزمنةٍ سابقة من تاريخنا. قبل جيلٍ واحد من اليوم سقطت التجربة الشيوعيّة التي كانت ألهمت حَماساتٍ كبرى وحرَّرتْ كثيرين من الأنانيّة كما حفَّزتْ كثيرين على التعبير والتمثيل. لكن منذ ما قبل السقوط كان التفكير الشيوعيّ يعرض منزعًا اختزاليًّا، يرجع بصورة تكاد تكون آليةَ الظواهر الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة إلى «المستوى الاقتصادي»، ويردُّ كثرة الواقع وتنوّعه وفوضاه إلى بنيةٍ تحتيّة أقل



تنوعًا، تحـوز قـوةً تحديديّـة بالغـة، هـي نـمط إنتـاج الحيـاة الـماديّة. كان هذا الاختــزال يُسمَّى الـمنهج الـماركسيّ أو أحيانًا الـمنهج العلـميّ. وكان السـقوط «ضيمًـا وهوانًـا» أصابَـا عمـوم الشـيوعيّين، وكنـتُ منهـم، فـكان أن تفـرَّق جَمعُنـا فـي كلّ اتجـاه، ومَـن لـم يتفرّقـوا، وبمـا أنّـه لا جماعـة بـلا «سـنّة»، فقـد الْـتأم اجتماعهـم الـمُنكـمِش حـول «سـنّة ماركسـية» (هـي «الـمنهج العلـمي» ذاتـه)، سـنّة نافيـة للحـدث مثـل السـنّة الإسـلاميّة ومقاوِمـة للتمثيـل والتغيُّـر مثلهـا، ونَزَّاعـة إلـى التكـرار ومماثلـة الـذات إلـى درجـة التحجـر مثلهـا. بيـد أنّ هنـاك فريقًـا ثالثًـا، ينحـدر منـه العـروي ذاتـه، وكثيـرون مـن بينهـم أيضًـا كاتـب هـذه السـطور، لـم يُقاومـوا التمثيـل والتغيُّـر عبـر التمثيـل، ولـم يجعلـوا مـن «الـمنهج» سـنّة. عملـوا فـي حقـل الـمعنى، وحاولـوا إنتـاج معـانٍ مـن ضـروب الـمعاناة الـمُتجدِّدة. مفهـوم السـنّة كمـا صاغـه العـروي ينـدرج فـي تصـوّري ضمـن هـذا الـمسعى.

القصـدُ أنّ الحـدث الـراضّ وحـده، أي سـقوط الشـيوعيّة، لا يُفسِّـر، وأنّ السـنّة ربمـا تكـون وليـدةَ ممانعـةٍ سـابقة للتمثيـل فاقَـمَها الحـدث. السـنّة ليسـت نتـاج الحـدث الـراضّ بحـدِّ ذاتـه، ولكنّهـا فاعليّـة إنـكار، أو فِعـل نَشِـط لإنـكار الحـدث، حـالَ دون الاسـتقلال عنـه وتركـه يمضـي.

وفـي التاريـخ العربـيّ يبـدو أنَّ شـيئًا مقاربًـا وقَـع: ضِيقٌ بـواقعٍ كَثـرويّ فَوضـويّ، و«إغـلاقٌ لِـباب الاجتهـاد» سياسـيّ الدوافـع، تفاقـم بنـزعات شـقاقٍ داخليّـة كان تفجُّـرها متوّقعًـا بعـد «معجـزة» الفتوحـات الباكـرة الصاعقـة، وفاقَمَـتْه هـذه النـزعات، قبـل أن تعـرض رضوضًـا أشـدّ هـولًا: الغـزوات الصليبيّـة والـمغوليّة. عبـر هـذه التحـوّلات انقلـب اندحـارٌ تاريخـيّ إلـى تاريـخ اندحـارٍ دام مئـات السـنين، تحـت رعايـة سـنّة اسـتفرَغتْ جهدهـا فـي حمايـة نفسـها بقـدرِ مـا إنّهـا لـم تعـد تحمـي



من أيٍّ شيء.

ويبدو أنّنا اليوم في مواجهة حدثٍ مَهولٍ في جارحِيَّته، يثير بدوره نوازع إنكار قويّة بهدف الاحتماء. وقد يمكن تصوُّره اعتمادًا على لغة العروي بالذات بأنّه انفجار السنّة، بمعنيَيِ التعبير. السنّة كعنوانٍ لهويّةٍ جمعيّة (مذهب أهل السنّة والجماعة) تشهد اليوم تمزقاتٍ كبيرة، كما السنّة كآلةٍ لطَحن الحدث، تخرج منها حوادث ابتلعَتها عبر الأجيال والقرون، في صورة وحوش وغيلان ومسوخ لا شكل لها ولا سنّة تضبطها. وفي مواجهة هذا الحدث، الأزمة الكبرى والكَلْم العظيم، لا بدّ من كلمات جديدة ومن تمثيل مغاير. هذا اليومَ تحدٍّ مصيريّ، ويمكن أن يكون مؤسِّسًا لسجلّ اكتساب جديد. إنتاجُ معانٍ وتأسيس تراث/تراثات حول الحدث الجديد، وليس التمسّك بتراثٍ أخفق في تمثيل حدَثه، هو ما قد يحول دون تحجُّرٍ محتمل.

٩ وفي أيٍّ من حالات فشل التمثيل الثلاث، فشل التشكيل أو فشل التعبير أو فشلهما معًا، ننتقل من تمثيل الأزمات إلى أزمة التمثيل. الأزمة كوضعٍ بلا شكل هي في آنٍ موضوع التمثيل ودافعه. الشكل علاقةٌ بين أحداث العالم وأنفسنا، وما لا شكل له هو أزمة تُربِكنا، تثير توتّرنا. التعبير والتشكيل جهدٌ لاستيعاب الأزمة ونزع رضّيتها، بما يساعد على الابتعاد عنها والشفاء منها. للتمثيل فاعليّة علاجيّة مثلما تقدّمت الإشارة، والثقافة يمكن أن تكون علاجًا لأدواء المجتمع، لأزماته وجراحه ومآسيه.

فشلُ التمثيل بالمقابل (سواء بفِعل عدم مُلاءمة التراث للتجارب، أو بفِعل وحشيّة التجارب وانفلاتها من كلّ تراث، أو كنتيجةٍ للتفاعل

بيـن الاثنيـن)، يُـبقينا مـع رضوضنـا، مَكروبيـن، لا نبتعـد عنهـا ولا نتحـرر منهـا. لا نُوضِّبها فـي أشـكالها ورفوفهـا الـمناسبة فـي خزائننـا الداخليـة، فـلا نتملّكهـا ولا تصيـر منـا.

ومـع تكـرُّر الفشـل يصيـر التفكيـر ذاتـه راضًّـا، فـنتجنَّبه أو ننفـر منـه. هـذه تجربـةٌ متواتـرة، يعـرف مـا يُشـبهها كثيـرون مِنّـا حيـن يتجنَّـبون تنـاول بعـض الشـؤون أو سـماع نشـرات الأخبـار أو قـراءة الصحـف، لأنّهـا تصيـر مؤلــمةً أو حتـى لا تُطـاق. نريـد الانعـزال عـن معانـاةٍ لا نسـتطيع تمثيلهـا، أي إنتـاج معنـى منهـا. يحصـل ألا نكتـب عـن تجاربنـا الـمؤلــمة لأن الكتابـة عنهـا والتفكيـر بهـا مؤلِمـان، ثـمّ إنّهـا تبقـى مؤلــمة طالــما أنّنـا لا نُمثِّــلها، بالكتابـة أو غيرهـا. وهكـذا تأســرنا دائـرةٌ مُعذِّبـة. يمكـن لهـذا أن يجعـل مِنّـا حيوانـات غاضبـة، خطـرة. بـل أخطـر. الحيوان يُعبِّــر، وإن كان لا يُشـكِّل. الحيـوان البشـريّ الـذي لا يُعبِّـر، يمكـن أن يقتل دون كلــمة. يصبـح القتـل تعبيرًا.

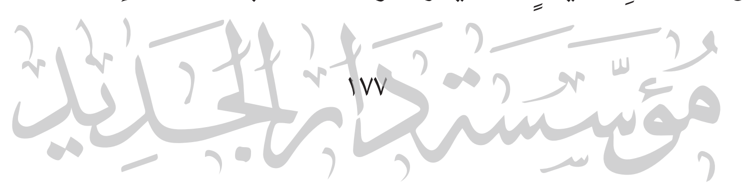
١٠ إن لــم نسـتطع تمثيـل تجاربنـا الراضّـة، وبخاصّـة حيـن يكـون الفشـل حدثًـا جمعيًّـا، وحيـن لا نُمثِّــل مـن تجاربنـا غيـر القليـل والأقـل حِـدَّة ورضّيـة مـن بينهـا، هـذه التـي نحتـاج إلـى تمثيلهـا أقـلّ مـن غيرهـا، يدخـل التمثيـل فـي أزمـةٍ ونفشـل فـي تمثيـل أزمـاتٍ نتحكّـم بهـا أفضـل إن مَثَّــلناها، فتتحكّـم هــي بنـا، فنخسـر الفاعليّـة العلاجيّـة للثقافـة كعالــمِ تمثيـلٍ متعـدّد الوسـائط.

فشـلُ التمثيـل مشـكلةٌ خطـرة، بـل بالغـة الخطـورة. لــماذا؟ لأنّـه فشـل للتفكيـر، للتعبيـر والتشـكيل، الـذي يُسـعف فـي تمثُّــل التجـارب ونـزع رضّيتهـا أو تخفيفهـا، وفـي السـداد أو الوجـود الجيـد والــمُوفَّق، وفـي تشـكيل مجتمـع يتحـوَّل ولـه تاريـخ. وفـي الأنــسَنة. نَـتأَنْــسَنُ بتمثيـل

تجاربنـا وترتيبهـا فـي ملفـاتٍ محفوظـة فـي دواخلنـا.

عبـر العنايـة بالتشـكيل والشـغل علـى التجـارب الخـام نعمـل علـى تحويلهـا إلـى فـنٍّ وفكـر أرفـع، أي أكثـر تركيبًـا، ويخاطـب أفضـل مـا فينـا وجانبنـا الأكثـر إبداعيّـة: التفكيـر. وبقـدر مـا إنّ التفكيـر حـوارٌ مـع النفـس بحسـب حنّـة آرندت، فإن الـمساحة التي يستَـصلِحها التمثيل ولا يكـفُّ عـن توسـيعها هـي الـمساحة التـي تجـول فيهـا أفكارنـا، نفوسـنا. كحـوار مـع النفـس، التفكيـر يعنـي تضاعـف النفـس ويقتضيـه، أن تصيـر لنـا نفسـان أو أكثـر، أن نصيـر مجتمعًـا.. أن يُضـاف لنـا ونتـغيَّر.

معلـومٌ أنَّ آرنـدت ربطـتْ بيـن الشـر وبيـن فشـل الحـوار مـع النفـس، ومـا يفضـي إليـه مـن ضبـط أنفسـنا بأنفسـنا. مـاذا يعنـي ضبـط النفـس؟ يعنـي أنَّ إحـدى نفسَـينا تضبـط نفسـنا الأخـرى. هـذه القـوّة الضابطـة قـد نسـمّيها الضميـر. للتفكيـر مفعـولٌ مُؤنْـسِنٌ عبـر تضاعـف النفـس، مثلـما لـه مفعـول مُثـرٍ اجتماعيًّـا عبر التمثيـل كتضاعفٍ للعالـم أو صنع عوالـم موازيـة. إنتـاج التعبير الـمُشكَّل، وضبـط النفس بالنفس، يُسعف فـي خفـض التوتّـر الـمتولّد عـن معانـاة العالـم. دون حـوارٍ نلتصـق بأنفسـنا فـلا نسـتطيع ضبطهـا، وتنكمـش الـمساحة الداخليّـة التـي هـي موضـع التفكيـر، ويَضمُـر الضميـر. أدولـف آيخمـان الـذي درسَـته آرندت يجتـرُّ قوالـب كلاميّـة مُكـرَّرة لأنـه يفشـل فـي التفكيـر وفـي مضاعفـة نفسـه، ومعلـومٌ أنـه تسـبب بكثيـر مـن الشـر (كان مسـؤولًا عـن نقـل يهـود أوروبـا إلـى معسـكرات الاعتقـال النازيّـة التـي قُـتل منهـم فيهـا ملاييـن). مِثـلُ ذلـك ينطبـق علـى مجاهـدي الـمنظّمات العدميّـة الإسـلاميّة، وعلـى الـوكلاء العقدييـن عمومًـا: يعرضـون اسـتعدادًا بالغًـا للعنـف، بقـدر مـا يخلـو عالـمهم ممـا يتوسَّـط بيـن العنـاء والـمعنى مـن مسـاحةِ تمثيـلٍ وتفكيـر متوسّـعة، أو بقـدر مـا إنّ «السـنّة» أو



«الـمنهج» تقتضي أولويّة الـمعنى القديم الثابت على العناء الـمتغير، والـمتناهي على اللامتناهي، ما يؤدي إلى تضييق العالـم بدل توسيع «الـمنهج»، وما يتسبّب بكثير من العناء دون معنى، ودون إحساسٍ من قِبَلِ «الـمعنيين»، أو «إخوة الـمنهج». القوالبُ الكلاميّة تُغني عن التفكير، وإن أشبعت الحاجة الاعتقاديّة (الحاجة إلى عالـم واضح، مُفرِط التنظيم، يُغني وضوحه الـمُصطنَع عن التفكير فيه). بالـمقابل، قد يؤدّي فشل التفكير بسبب قسوة التجارب إلى سُكنى قوالب تعبيرية ضيّقة وحَشر العالـم فيها. هذا من مناهج الإسلاميين أيضًا.

معلومٌ أنّ السلفيّة تُحكِّم قوالب كلاميّة مستوردة من زمن قديم، تُنكر تجارب الحاضر، فلا تضيف معنى أو دلالة. ومعلومٌ أنّها معادية للرأي، أي للتفكير. كان أبو عبد الرحمن أمين، وهو من قادة الجهاد في الجزائر في تسعينيات القرن الـماضي، يجمع الكتب ويحرقها، بما فيها كتب سيد قطب، لأنها تقوم على... «الفكر»، والفكر عنده «بدعةٌ وصَل حكمها إلى حدِّ القتل سياسةً»، بحسب أبو مصعب السوري (**مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر**). الاقتران بين معاداة التفكير وبين القتل ليس عارضًا لأنّ الضمير لا ينشأ هنا، ولا تتولد نفسٌ مثيلة ضابطة.

في إطار الإسلاميّة الـمعاصرة، الكلام قلَّما يعني، لأنّه لا يُمثِّل ولا يضيف. الـمعنى لا يتولّد بسبب مقاطعة الحدث أو التجربة. هذا عمليًّا قتلٌ للّغة العربيّة بحرمانها من أن تعني. تصير لغة «أجنبيّة»، نظامًا من الرموز يتعارف عليه بعضهم بتداوله فريق من الناس، لكنه نظام أجنبي على تجارب أفراد هذا الفريق بالذات. اللغة العربيّة الإسلاميّة، إن جاز التعبير، هي لغة أجنبية على جميع مُتكلِّميها. إنها مِثل العربيّة التي يُصلِّي بها غير عرب، وغير قليل

من العرب، يُتعبَّدُ بها، لكنّها لغة لا تعني، فاشلة أو تكاد.

يقتـل التكـرار الــمعنى علـى نحـوٍ نعرفـه حيـن نسـرق فكـرة مـن غيرنـا: حتـى حيـن لا يعـرف أحـدٌ بالسـرقة، نحـن نعـرف، نعـرف أنّـه ليـس هنـاك معنـى مضـاف، أي ليـس هنـاك معنـى. أنّ هنـاك تكـرارًا فحسـب. ولعلّنـا لذلـك بالـذات نُكـرِّر الفكـرة الــمسروقة محاوليـن، عبثًـا، تملّكهـا.

السـرقة تقتـل الــمعنى مـن وجـهٍ آخـر: فصلـه عـن «الــمعاناة»، عـن اختبـار العالــم.

١١

الغـرضُ ممـا تقـدَّم هـو القـول إنّ التجـارب الراضّـة تقـع علـى مُفتــرَق طـرق، يقـود واحـدٌ منهـا باتجـاه التمثيـل الـذي هـو إعـادة إنتـاج للرضـوض فـي صورٍ مَثيــلة ومغايـرة (التعبيـر محاكاة وعبـور أو تجـاوز)، تُحيِّـد الانفعـال الخـام، وتقبـل الاسـتيعاب الاجتماعـيّ والنفسـيّ، وتُــتيح اختبـار تجـارب جديـدة، ويقـود واحـدٌ إلـى الخـوف مـن التمثيـل وقتـل التفكيـر، وباتّجـاه الشـرّ والقسـوة والعدميـة. الضميـر يتولّـد عـن التفكيـر بوصفـه لقـاءً بالنفـس وحـوارًا مـع النفـس وضبطًـا للنفـس بالنفـس. إنّـه قـوّة اجتماعيّـة تتوفَّـر أفضـل الشـروط لنــموها حيـن نكـون نحـن أنفسـنا مجتمعًـا (ناقشـتُ ذلـك فـي مقالتـي: «الضمير الخارجـي: فـي أصـول الشـرّ السياسـيّ»).

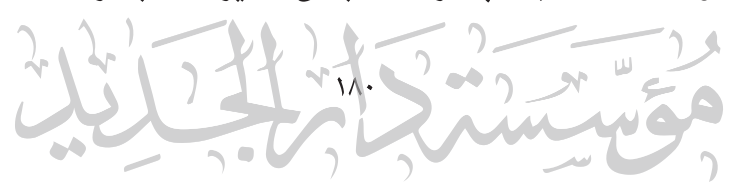
الغـرض أيضًـا أنّ التمثيـل ليـس شـيئا كماليًّـا، ليـس «زيـادة خيـر»، بـل هـو الخيـر، والشـرّ هـو غيابـه. فـي التمثيل نُعيـد إنتاج العالــم، فـنَنفلِت مـن «الــمباشرة»، ونُدخـل تعـدّدًا واجتماعيـةً فـي أنفسـنا وفـي العالــم مـن حولنـا. فـإذا كنّـا كأفـرادٍ نَصيــرُ قسـاةً أو أشـرارًا بفعـل فشـل تمثيـل تجاربنـا وتوسـيع نفوسـنا وضبطهـا معًـا، أي بفعـل فشـل عمليّـة تعدُّدِنـا الذاتـيّ، فإنّنـا كمجتمـع نستسلـم للقسـوة بقـدر مـا نفشـل كـمُنــتجين

للتمثيل في صنع عوالم موازية، محاكيةٍ لعالمنا ومتجاوزة له، نتملّك عبرها تجاربنا وأزماتنا المباشرة. الربطُ بين انحطاط الثقافة وبين البربريّة أو التوحّش وجيهٌ جدًّا. فالثقافة عالمٌ من التمثيل الفنيّ والمفهوميّ والأخلاقيّ، يفصلنا عن التجارب المؤلمة أو يساعدنا على استيعابها وتملّكها، وهي سنَدنا في مواجهة الوحشيّة. المجتمع يتشكّل حول تصريف الرضوض وتقاسم التجارب الراضّة، من مرضٍ وجروح وفقدان وموت. وتساعد طقوس الدفن والعزاء والحداد في التغلب على فقد الأحبّة. والمجتمع بهذا المعنى متشكّل حول الثقافة كتمثيلٍ للعالم ولتجاربنا فيه.

١٢

أبرزُ أمثلة فشل التمثيل تُلحَظ في مجتمعاتٍ تغرق في البؤس واليأس بفعل تعرّضها لرضوض وفظائع وحصار لوقت طويل، مثل كثير من بيئات الثورة في سوريا، أو في جيلي مثل كثير من معتقلي سجن تدمر الذين قضوا فيه سنوات طويلة. تتخطّى التجارب الراضّة قدرتَنا على تمثيلها، وتمثُّلها، فتقود إلى انكماشنا على أنفسنا وفقدنا الثقة بالعالم، على ما قال جان آمري، الناجي من الهولوكوست، عن تعذيبه. إمّا نعيش ككائناتٍ خائفة لا تختلط بغيرها، أو ينقلب بعضنا وحوشًا كاسرة، تجد في توحش العالم البيئةَ الأمثل لازدهارها وإدارة توحّشها الخاصّ. وفي أخفّ الحالات نصير «كلبيِّين» (سنيكال)، لا نؤمن بشيء ولا نحترم شيئًا ونتشكّك في كلّ شيء.

وقد يمكن التفكير فيما يخصُّ سوريا، وفي نطاق أوسع منها، في مجتمعات تفشل في التمثيل، وبالتالي في مضاعفة عالَمها، بفِعلِ فائض العنف والتجارب الراضّة. تبقى أسيرةَ المباشرة وردّ الفعل.



الفــن والثقافــة والإبــداع تنحصــر فــي أطُــر ضيّقــة، وتنحــدر قدرتهــا علــى صنــع التعــدد، أعنــي مضاعفــة العالَــم ومضاعفــة النفــوس. لا يلــزم أن يكــون كلُّ واحــدٍ منــا تعــرَّض لأعنــف التجــارب، ذلــك أنّ مجتمعًــا عُومِــل بقســوةٍ لأمــد طويــل يُشــكِّل إطــارًا اجتماعيًّــا لتجــارب وتفكيــر حتّــى مَــن لــم يخبــروا بأنفســهم التجــارب الأقســى، يُورِثــهم إيّاهــا مثــل مَــن عاشــوها، فيدفعهــم إلــى الالتصــاق بأنفســهم والعيــش فــي عوالــم ملتصقيــن مثلهــم، عالَــم مــن الــمباشرة وردّ الفعــل، يخلــو مــن كلّ عمــق.

١٣ ومــن هــذا الــمدخل قــد نــرى فــي الوحشــيّة علــى نحــوِ مــا نشــهدها فــي ســوريا اليــوم نتــاجَ أزمــةٍ فــي التمثيــل أبقــتْ أوســع قطاعــات الســوريين علــى تمــاسٍّ مــع جروحهــم ورضّاتهــم. فحيــن يفشــل التمثيــل ترتــدُّ النفــوس إلــى شاشــاتٍ ســلبيّة للرضــوض، ويقــود تضيُّــق الــمسافة بيــن الــمعنى والعنــاء إلــى أن تصيــر معاناتنــا هــي مَعنانــا، تنــمحي الــمسافة بيننــا وبيــن عالــم الــمُباشرة الحيوانــيّ.

فــي بلدنــا التمثيــل «الثــقافيّ»، الفنِّــيّ والــمَفهوميّ، بالصــور والأصــوات والخطــوط والــمفاهيم، محــدودٌ جــدًّا مــن حيــث النِّــطاق والفاعليّــة لأســباب متعــدّدة منهــا الجارحِــيَّة الــمطلقة والنِّســبية للتجــارب، أعنــي كــون الكثيــر منهــا مــن الصنــف القاتــل أو الــمُغلِق للنفــس والــمُعطِّل للحــوار مــع النفــس، أو تجــاوز كثيــرٍ آخــر منهــا فــي الحِــدَّة للأشــكال وأدوات التمثيــل الــمتاحة. ويتّصــل بذلــك أنّ التجــارب الجارحــة هــي غالبًــا تجــارب مــع «الدولــة»، مــا يجعــل تمثيلهــا، التعبيــر عنهــا وتشــكيلها ومشــاركتها مــع الغيــر، خطــرًا سياســيًّا علــى الــممثلين الــمحتملين، ومــا يدفــع شــيئًا فــشيئًا هــؤلاء إلــى تجنُّــبها وإلــى تضيُّــق مســاحات التفكيــر وتدنــي مســتوى التمثيــل. لقــد تعــرّض الــمجتمع، مفهومًــا كــنظامٍ

لـتصريف الرضـوض، لـرضوضٍ تفـوق قدرتـه علـى التصريـف، وأخَـذ فـي الانهيـار بأشـكال مختلفـة.

ثـم إنَّ غيـر قليـلٍ مـن التجـارب الجارحـة هـي تجـارب مـع الديـن الـذي انقلَـب بـدروه مـن تطبيـب الجـروح إلـى جـارح عـامّ آخـر. الـرضّ هنـا مضاعـف: الأذى نفسـه، ثـم الحرمـان مـن لغـة للتعبيـر عنـه بفِعـل كـون اللغـة الدينيّـة هـي لغـة تشـريع الأذى والحـضّ عليـه. الحرمـان مـن اللغـة يتـرك تجـارب مَـن لا يمتلكـون غيرهـا لتمثيـل تجاربهـم غيـر مُمثَّـلة، ويتركهـم هـم فـي كَـرب.

هـذا وضـعٌ بالـغ الفـرادة، وحشـيٌّ وخصـبٌ فـي آن. مثلــما الأزمـات مُحـرِّك التمثيـل وموضوعـه، الثـورات والحـروب كأزمـاتٍ كبـرى يمكـن أن تُحفِّـز ثـورات فـي التمثيـل، فـي الثقافـة والاجتمـاع، للتغلـب علـى الرضـوض، ويمكـن أن تقـود إلـى انهيـارٍ مديـد وانحـلال يُسـهِّل الانـدِراجَ فـي مجتمعـات أخـرى بــفِعل الفشـل فـي معالجـة الرضـوض.

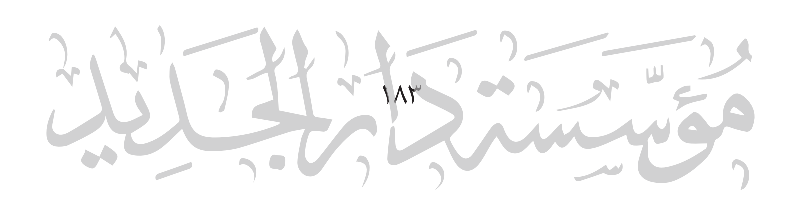
لذلـك فـإنَّ التمثيـل حقـلٌ للــمقاومة والتغيُّــر علـى نطاقنـا كأفـراد ومجموعـات، وعلـى النطـاق العـامّ، ومسـاهمةٌ فـي التغيُّــر العالــميّ.

١٤ علـى مسـتوى مجتمعـاتٍ كُــلّية، يمكـن أن نُميِّــز بيـن حالتيـن قُصويَيــن: تمثيــل التجــارب كلّهــا، أي بـــناء عوالــم مُحاكِيـة ومُتــجاوِزة مــن تجاربنــا، وبيــن اللَّاتمــثيل، والوجـود العــاري، الـمؤلـم إلـى أقصـى درجـات الإيـلام. مـرةً لدينـا عوالـم بـلا عـددٍ نجـول بينهـا بحرّيّـة، ومـرةً عالــم واحـد ضيـق، يكبـس بثِــقله علـى أنفاسـنا ويهـرس أجسـادنا ذاتها. ليسـت هاتـان الحالتـان القُصويـان «واقعِيَّــتَين»، لكنهمـا ترسـمان الحـدود التـي يبـدو أنّ الــمجتمعات التاريخيّـة تتحـرك ضمنهـا. بعضهـا تُمثِّـل أقـلّ، فتَــترك كثيـرًا مـن التجـارب غيـر مُمثَّـلة،

غيـر مُتمَلَّكـة بالتالـي، ومؤلــمة؛ ولعلـه يتـاح لبعضهـا أن تُمثِّـل كثيـرًا مـن تجاربهـا، فـتُعطي انطباعًـا بالتعـدّد والانفتـاح و«الحضـارة»، والغِنـى الفكـريّ والثقافـيّ.

وأقـرب إلـى قطـب التمثيـل الأقـل، قـد نُميِّــز بيـن مـا لـم يُمثَّـل وبيـن مـا لا يمكـن تمثيلـه. مـا لـم يُمثَّـل هـو تجاربنـا التـي حُرمـتْ مـن التمثيـل، مـن التنـاول الفكـري والفنِّـي والرمـزي. لدينـا الكثيـر مـن هـذه فـي سـوريا، كُبتـتْ ولـم نتـداول فـي شـأنها. سـوريا كـكُل بلد لـم يُمثَّـل فكريًّـا وثقافيًّـا إلا بحـدودٍ ضيقـة ولشـريحة ضيّقـة مـن تجـارب النـاس فيـه، وبقـدر مـا كانـت الثـورة جهـدًا مـن أجـل التمثيـل السياسـيّ (سـيجري الـكلام عليـه بعـد قليـل)، غيـر قليـل مـن تعثُّـراتها تولَّـدتْ من حرمـانٍ مديـد لتجـارب الأحيـاء مـن السـوريين مـن التمثيـل، وبالتالـي مـن الرسـوخ فـي العالـم والتوجُّـه فيـه. فـإذا كانـت سـوريا بلـدًا مجهـولًا حتى تَـفجُّر الثورة، فلأنه لـم يُمثَّـل، لأن الناس فيه لـم يُنـتِجوا التمثيل ويعبّـروا عـن أنفسـهم ويشـكّلوا عوالــمهم الــمَثيلة والــمتجاوِزة التـي تعطـي البلـد تعـدّدًا وعمقًـا.

هــذا دون قــول شــيء عمَّــا لا يمكــن تمثيلــه، علــى تجــارب ومِحــن تتحـدّى التمثيـل، ويعجـز أمامهـا. وهـذا حـال معظـم تجاربنـا مـا بعـد الثـورة لــتجاوزها الحـدود النِّسـبية والــمطلقة لقابليّـة التمثيـل، ولاتِّسـاع نطاقهـا، وللشـروط السياسـية للتمثيـل التـي تمنـع إنتـاج عوالـم إضافيّـة: التعذيـب، الاغتــصاب، القتـل، الخطـف والتغييـب، قطـع الـرؤوس وكثيـر غيرهـا تنتمـي إلـى مجـال مـا لا يمكـن تمثيلـه. يُكبَـت داخـل النفـوس، لا يُسـتدعى ويُحـاوَر لشـدّة مـا هـو مؤلـم، أو ينعـزل الــمرضوضون الــمكروبون عـن غيرهـم لأنّ الاجتمـاع بالغيـر مؤلـم بـدوره.



١٥ التــراوحُ بيــن التفكيــر والتوحُّــش، أو بيــن الثقافــة والعدميّــة، أو بيــن التمثيــل والإبــادة، يقــوم فــي الــمجتمع وفــي النفــس الفرديّــة علــى حــدٍّ ســواء. ليــس أنّ بيننــا، البشــر عمومًــا، متوحّشــون وبيننــا مفكّــرون، بــل نحــن نتحــرّك بيــن القطبيــن، نــميل إلــى أحدهمــا أو الآخــر بحســب شــروطٍ عامّــة تُــتيح التمثيــل أو لا تُــتيحه. فــإذا كان أحــدُ القطبيــن هــو التوحّــش العــامّ، الخــروج الواســع النِّــطاق مــن الثقافــة كــنطاقٍ للتمثيــل والحــوار الذاتــي (ومــن السياســة كنطــاقٍ إضافــيّ للتمثيــل والحــوار ضمــن «الــذات الاجتماعيّــة»)، فمــاذا يكــون القطــب الآخــر؟ إنــه ببســاطة الإنســانيّة، جميــع النــاس يُمثِّــلون تجاربهــم ويفكــرون، فـــيُوسِّعون مســاحاتهم الداخليّــة ويضاعفــون أنفســهم، ويتَأنْــسَنون. الإنســان كائــنٌ اجتماعــيّ ليــس فقــط بمعنــى إلفَــته لغيــره واجتماعــه بغيــره، لكــن بتعــدُّدِه الذاتــيّ، أي بتكوّنــه هــو ذاتــه كــمجتمع. لا يتشــكّل منّــا مجتمــع حيــن لا يكــون الواحــد منــا مجتمعًــا هــو ذاتــه، ولا يكــون الواحــد منــا مجتمعًــا حيــن لا يكــون مُنــتِجًا لعالــمٍ آخــر عبــر التمثيــل.

القطــبُ الآخــر هــو هــذه الإنســانيّة الاجتماعيّة الــمتعدّدة تعــدّدًا مُركَّــبًا، تعــدُّد مُتعدِّديــن.

أتكــلّم علــى الإنســانيّة لأنّــه وإن أمكــن للتَّــأنْــسُنِ أن يتحقّــق بمقاديــر متفاوتــة فــي مجتمعــات أكثــر مــن غيرهــا، وفــي قطاعــات مــن هــذه الــمجتمعات أكثــر مــن غيرهــا، فإنّــه يبقــى اليــوم مُهــدَّدًا بالانقــلاب دون تحكــمٍ عالــميّ بالأزمــات والرضوض. نعلــم مــن تجاربنا الحديثة، وســوريا أبلغهــا، أنَّ الرضــوض عالــميّةُ الإطار والــمنشأ، وأنّ الــمجتمعات الجريحة أو الــمرضوضة بقســوةٍ يمكــن أن تتوحَّــش، وتجتــهد فــي أن تُوسِّــع دائرة الألــم والتوحّــش، وأنّ مــن شــأن ذلــك أن يُقــوِّض قدرتنــا علــى الأنْــسَنَة

والتمثيل.

والفكرة باختصار أنّنا نتَأنْسَنُ عبر التمثيل وإنتاج المعنى، يرتفع منسوب «المعنويّ» فينا أو الفكريّ، أو المِثاليّ، أي أيضًا «الروحي». يمكن تصوّر حالةٍ قصوى يتحوّل الإنسان فيها إلى «روح»، يشفُّ كيانه ويتخلَّله المعنى، ضرب من «الإنسان الكامل» الذي تكلّم عليه مُتصَوِّفة مُسلِمون. وفي الحالة القُصوى المقابلة ما سمَّاه ابن عربي «الإنسان الحيوان»، أي الذي انحدر التمثيلُ وإنتاجُ المعنى لديه إلى الصفر، والأرجح أنّ مثل ذلك يتحقق عبر التكرار. هنا الإنسان جسدٌ غليظ، مادِّي وآلي، مُبرمَج على حركات وأفعال غير شخصيّة تتكرّر كلّ الوقت، وهنا المعاني ذاتها تتجمَّد، أو تصير عضلات وأيد باطشة. نموذجه هو الهومو-إسلاميكس الذي يتطلّع إلى إنتاجه بالجملة الإسلاميّون: إنسان آلي لا يفكّر إطلاقًا، لكن له برنامج تشغيل اسمه الشريعة.

قد نضيف في هذا المقام حالةً قصوى ثالثة، الإنسان النبات، «الفاصل» في سجون الدولة الأسديّة و«المسلم» في معسكر آوشفيتز النازيّ ومعسكرات إبادة أخرى: الإنسان الذي لم يعد إنسانًا، لم يعد يتفاعل ويتذكّر، الذي يتردّد المرء حتى في وصف موته بأنه موت بحسب بريمو ليفي.

١٦ لا يناسب المقام تناول التمثيل السياسيّ، لكن يمكن قول أشياء قليلة على عجل. يُوفِّر التمثيل السياسيّ للسكان مساحةً للمداولة والنقاش، لحوار المجتمع مع نفسه، بما يُترجِم المعاناة الاجتماعيّة إلى سياساتٍ عامّة سديدة، والكلوم الاجتماعيّة إلى كلمات وأفعال عامّة، على نحو يُقلِّل من وقوع هذه الكلوم

ويعالج ما يقع منها. قد يمكن تعريف السياسة في هذا السياق المخصوص بأنّها لقاء المجتمع مع نفسه وحوار المجتمع مع نفسه عبر مساحةٍ مضمونة للتمثيل. لزوال التمثيل فِعلٌ نازعٌ للمجتمع والاجتماعيّة، مثلما يُفضي زوال التفكير إلى نزع إنسانيّة الفرد.

مساحةُ التمثيل هذه لا تقتصر على البرلمانات أو المجالس المنتخبة، إذ إنّ هذه أشكال تقليديّة أو تراثيّة (أو «سنيّة») للتمثيل السياسيّ إن جاز التعبير، تقع على محور التشكيل. الدولة بالذات شكلٌ تقليديّ مُنظم للمجتمع. هناك أشكال تعبيريّة مُولِّدة للجديد في الاجتماع والتمثيل كالأفعال الاحتجاجيّة، والتجارب الاجتماعيّة الطَّليعِية، والثورات. يمكن التفكير في الثورات، وفي البال الثورة السوريّة هنا بخاصّة، كتمثيلٍ للنفس، كجهدٍ واسع النطاق لامتلاكٍ للسياسة، أي للكلام العامّ على الكلوم الاجتماعيّة، وللاجتماع أو اللقاء بالغير، وللامتلاك النَّشط والاحتجاجيّ للفضاءات العامّة بوصفها مساحات تُمثِّل البلد ككُل. هذا التمثيل النشِط، الإبداعيّ، هو ما عملت الدولة الأسديّة على تحطيمه منذ وقت مبكّر.

فإذا كانت الثقافة علاجًا ممكنًا لأمراض المجتمع، فإنّ السياسة كلقاءٍ للمجتمع بنفسه هي المساحة التي تجري فيها معالجة الأمراض الاجتماعيّة معالجةً محافظة عبر الدولة، ومعالجةً هجوميّة عبر الأفعال الاحتجاجيّة والتجارب الطَّليعِية والثورات.

ومثلما يُعيد التمثيل الثقافي إنتاجَ تجاربنا في صُورٍ تساعد على ترتيبها، على إيداعها في شكلٍ مستقرّ وتوديعها، التمثيل السياسي هو بمثابة إعادة إنتاج المجتمع لنفسه سياسيًّا، عبر التعبير المُحاكي، وعبر التعبير المُجاوز، أي النشاط المباشر والتجارب الطَّليعيّة والثورة، أي كلّ ما يُتيح للمجتمع التضاعف والحوار مع النفس وتوسيع



مساحة اجتماعيّته وضبط نفسه بنفسه أو سياسة نفسه. عبر التمثيل يضاعِف الـمجتمع ذاته، ومن دونه يقع في الـمباشرة والالتصاق بالذات، أو الانقسام إلى جماعات مباشرة ملتصقة بذاتها. ومثلما اللقاء مع النفس، أو التفكير، قد يصبح راضًّا فنَجتنِبُه ونُوكِل أمر ضبط أنفسنا إلى ضابطٍ خارجيّ، فإنّ الاجتماع أو اللقاء مع الغير قد يصبح راضًّا ونتجنَّبه. فكأنّنا مَسلوخو الجلد، الوجود في العالم يؤذينا. كان من شأن التمثيل السياسيّ أن يكون جلدًا لنا، يحمينا. مسلوخين سياسيًّا، نبتعد عن غيرنا خوفًا من الألم.

١٧ تحتشِد لدينا مشكلات الثقافة كعالـمِ تمثيلٍ للتجارب، والسياسة كعالـمِ تمثيلٍ اجتماعيّ، وأُضيف إليها الاقتصاد كعالـمِ تمثيلٍ للأعمال بدُخول ومواقع اجتماعيّة. في سوريا أخذت قيمة العمل تنهار منذ سبعينيّات القرن العشرين لـمصلحة السلطة والقرابة والـمال. صار العمل لا شيء والسلطة كلّ شيء. والسلطة قوّة جَرح ورضّ عامّة.

وبقَدر ما إنّ الثورة السوريّة جهدٌ من أجل التمثيل الذاتيّ وامتلاك السياسة، فإنّها مدخل لـتمثيل العمل أو ثورة مجتمع العمل الذي تدهورتْ مُقدَّراته وقدرته على العيش في سنوات الحكم البعثيّ التي كانت، من وجه آخر، سنواتِ ظهور طبقةٍ ضارية وصعودها، طبقة، شديدة الوحشيّة بقَدرِ ما هي رَثّة، تستخدم الدولة الـمُخَصخَصة لجَنيِ الثروات وإضعاف العمل، كشرائح اجتماعيّة وكقيمة.

لا يستغني أيُّ تفكيرٍ في التمثيل أو نظريّةٍ عامّة في التمثيل عن النظر في تمثيل عالـمِ الأعمال. نظَر ماركس في التمثيل الرأسماليّ للعمل، ورأى فيه استغلالًا، يُستَولى فيه على «فضل القيمة» لـمصلحة

الرأسماليّين، ويُدفع للعُمال ثمن إعادة إنتاج قوّة عملهم فحسب. ومنذ أيّام ماركس، زَكَّى الفكر الاشتراكي شعار: «مِن كلٍّ حسب قدرته ولكُلٍّ حسب عمله»، كقانونٍ لتمثيل العمل في المرحلة الاشتراكيّة، على أن يحلَّ محله: «من كلٍّ حسب قدرته ولكُلٍّ حسب حاجته» في المرحلة الشيوعيّة. الطَّرح الماركسيّ ضيقٌ بعض الشيء، يردُّ القيمة إلى العمل بمعنى الكدح اليوميّ الذي يقوم بأود الحياة البيولوجيّة، ويُقلِّل من شأن الشُّغل المنتِج لأشياء مديدة العمر، منها التكنولوجيا ذاتها، وذلك بحسب نقدٍ لحنّة آرندت، ويُقلِّل من شأن أشكالٍ أخرى للعمل أو لا يراها، منها الفعل الذي تقوم عليه السياسة. ترى الماركسيّة السياسة كشيءٍ أقلّ شأنًا من العمل المنتِج للحياة الماديّة، بل كتَكوينٍ فوقيّ يتطفَّل عليه.

لكن في جميع معانيه، ككَدحٍ وشغل وفعلٍ، بمُصطلحات آرندت، العمل غير مُمثَّل في «سوريا الأسد». الثورة السوريّة كانت تمرّدَ مَن حُرِمَتْ أعمالُهم وحُرِموا هم أنفسهم من التمثيل.

١٨ في صُورِه المختلفة، التمثيل يضاعِف العالَم أو يُكثِّره فيُضاعف حياتنا فيه ويكثرها، يضاعف نفوسنا أيضًا ويكثرها، فيُؤنْسِنُنا ويُحسِّن اجتماعنا. الإنسان حيوانٌ يُمثِّل، يعيد خلق عالَمه عبر التمثيل، ولا يستلِمُه ناجزًا. وما تعطيه مجتمعاتنا المعاصرة من شعور بالضيق ناشِئٌ في تصوُّري عن أننا لا نُكثِّر عالمنا، مفهوميًّا وفنيًّا، ولا نكثره سياسيًّا عبر التمثيل السياسيّ. المجتمع يتضاعف حين يُعبِّر عن نفسه سياسيًّا ويُنتِج حركاته ومنظماته وأشكال انتظامه المتنوّعة. وليس هذا حالنا في عالمنا اليوم. يُفاقِم من الضيق أنّنا لا نكاد نتضاعف إلا بيولوجيًّا: نتكاثر عددًا في عالمٍ لا

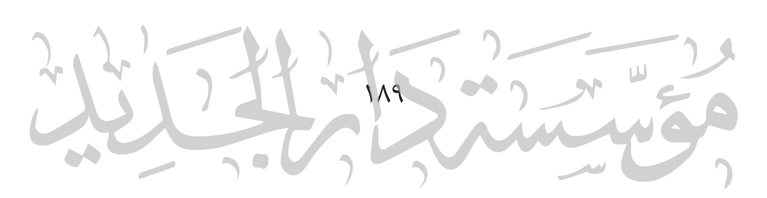
يتكاثـر لأنـه بـلا تمثيـل، فـيَزداد ضيقًـا علينـا ونـزداد ضيقًـا بـه.

أذكـرُ هـذه الاعتـبارات السياسـيّة والاقتصاديّـة، فضـلًا عـن الثقافيّـة، لأنّها تسـاعد علـى فَهـم أوضـاع التوحُّـش التـي نعيشـها، وتُحفِّـز علـى ثـورةٍ فـي التمثيـل بمـا يتجـاوز إخـراج التمثيـل مـن الأزمـة إلـى ثـورةٍ فـي الثقافـة، أعنـي تمثيـل تجاربنـا فـي الخـروج مـن الوصايـة/ الوصايـات الـمتعدّدة، تمثيـل صراعنـا، وإنتـاج عوالـم موازيـة، ثقافيّـة وسياسـيّة واقتصاديّـة، تُكثِّـر حيواتنـا، وتُوسِّـع مكاننـا، الخارجـيّ والداخلـيّ. التمثيل فـي أشـكاله الـمتنوّعة حليـفٌ للحيـاة ومقـاومٌ للـموت.

خلاصة

إن أمكـن تلخيـص هـذا النـص بـجملةٍ واحـدة فهـي أنَّ تمثيلنـا للعالـم قـد يفشـل بـفِعل قسـوة تجاربنـا أو صفتهـا الراضّة (وهي قسـوة سياسـيّة أساسًـا فـي عالـم اليـوم)، وأنّ هـذا فشـلٌ لـما يُميِّـز الإنسـان مـن تفكيـر، وفشـل للأنْـسَنَة تاليًـا. حيـن يكـون التفكيـر راضًّـا والاجتمـاع راضًّـا مثلـه، فإننـا نَنحَـبِسُ داخـل أنفسـنا منغلقيـن دون غيرنـا، ومـا قـد ينفـتح لـه بـاب أو أبـواب هـو العنـف. فـإذا كنـا نضاعف أنفسـنا والعالـم بـتمثيل تجاربنـا، فـنحصل علـى عوالـم أكثـر، فـإنّ مـا يتمخَّـضُ عنـه العنـف هـو أقـل مـن عالـمٍ واحـد، أنقـاضٍ لا يتكـوّن منها شـيء متماسـك.

تفجَّـر بلدُنـا منـذ أكثـر مـن سـبع سـنوات مثـل بـركانٍ تتـلاقى فيـه مشـكلات التمثيـل الـمَفهومي والفنِّـي مـع مشـكلات التمثيـل السياسـيّ مـع مشـكلات تمثيـل العمَـل، مـا يمكـن أن يكـون مُنطـلقًا للتفكيـر فـي أشـكالِ تمثيلنـا للعالـم وتمثُّـلنا لـه، فيمـا يتجـاوز سـوريا نفسـها. الحوار مـع النفـس اليـوم هـو حـوارٌ مـع العالـم، حـوار فضـاؤه العالـم، وليـس بغيـره يتكـوّن ضميـر العالـم.





تعبير: الكلمات والعنف

ماذا يحدث حين تفشل الكلمات؟ وهي تفشل كثيرًا. هذا واقعٌ لا يحجبُه واقع آخر: أننا لا نكفُّ عن الكلام. إذ يمكن للفشل أن يكون دافعًا جزئيًّا للاستمرار في الكلام، في مسعى منّا للاقتراب من النجاح في قول ما نريد قوله. دافع جزئيّ لأنّ النجاح يبقى غير مضمون، ولأنّ التجارب البشريّة، ومنها ما هي شديدة القسوة، لا تبدو مُصمَّمة على نحوٍ خاصّ بحيث تنجح الكلمات في تمثيلها، وأنّ الكلمات من وجهٍ آخر لا تبدو مُصمَّمة على أفضل نحو كي تُحيط بكلّ الأوضاع والتجارب الممكنة للكائن البشريّ. ثمّ لأنّنا نتكلّم ما دُمنا أحياء، وقد لا يكون استسلامنا للصمت غير نَفضةِ يدٍ نهائيّة من الحياة ذاتها.

ماذا نفعل حين تفشل الكلمات؟ نُمارس العنف، نبكي مقهورين، أو نموت بحَسرة بعد حينٍ يطول أو يقصر. أو هذا ما تُقدِّره هذه المقالة وتحاول النظر فيه.

•

فشل الكلمات لكن ما معنى فشل الكلمات؟ في أيِّ شيءٍ تفشل الكلمات؟ في التعبير، في نقل ما نشعر به إلى غيرنا،

ترجمته إلى كلامٍ مفهوم يشاركنا فيه آخرون. الكلام يُحوِّلُ تجاربنا الذاتيّة إلى شأنٍ مشترك مع غيرنا، يُخرجها من داخل الذات إلى ما بين ذوات متعدّدة فيُقيم رابطةً اجتماعيّة. ومن هذه الرابطة قد نتلقَّى صورًا من الدعم والمساندة والمواساة حين تكون تجاربنا قاسية أو ساحقة.

وبقَدر ما إنّنا في الكلام نتبادل الكلمات والإصغاء مع مُكلِّمينا، فإنّنا نأخذ في اعتبارنا ما يقول المُتكلِّمون، وهم يفعلون الشيء نفسه، فلا نبقى كما نحن، ولا يبقون، نتغيّر معًا. ونتعدّد. إذ نأخذ ما نسمع معنا ونُقلِّبه في أذهاننا أو نتداول في شأنه مع أنفسنا. فكأننا نأخذ شركاءنا في الكلام معنا. يصيرون هم داخلنا ونصير داخلهم، حتى إذا حاوَرنا أنفسنا حاورناهم. هذه وظيفةٌ فكريّة للكلام الداخلي، بقَدر ما إنّ التفكير «حوار مع النفس» بحسب حنّة آرندت تأسيسًا على أفلاطون (ناقشتُ متحفظًا تصوُّر التفكير عند آرندت في «أصوات الغائبين: أفكار لإصلاح التفكير»). فشل الفِكر قد يتولَّد عن فشل الكلام المتاح، إما لفَقره أو لفَيض التجربة عنه. مَن يَشرع في التعبير هو شخصٌ بتصرُّفه مخزونٌ كلاميٌّ قد لا يلائم ما خَبِرَ من تجارب. ولا أعني بالمخزون الكلامي مُعجمنا من الكلمات المفردة، بل الطرق الكلاميّة لتمثيل التجربة من مفردات وتعابير وأمثال وشروح وقصص مختلفة باختلاف السياقات، تُستحضَر عند الحاجة.

الكلام بهذا المعنى يُقيم علاقةً لنا بغيرنا كما يُقيم علاقةً لنا بأنفسنا. وهذا بقَدر ما إنّه لا تفكير بلا كلمات، ولا كلمات دون مُكلِّمين، جماعة. يقيم الكلام على هذا النحو استمراريةً بين التفكير والاجتماع، بحيث يكون التفكير اجتماعَنا بأنفسنا وتآمرنا مع أنفسنا، والاجتماع تفكيرنا وتآمرنا مع غيرنا. وفي هذا ما يقيم



استمرارًا بين وظيفة الكلام الفكريّة ووظيفته الإقناعيّة، فما يمكن أن يُقنِع الغير هو كلام جرَى تَدبُّره في النفس، وما نتدبره في أنفسنا نَبنيه من تفاعلاتنا مع غيرنا.

•

العنف والبكاء في الكلام نحن في وضعٍ حواريّ، قد لا يخلو منِ انفعال، لكن لا يستمر الكلام إلا بقَدر ما يبقى الانفعال منضبطًا. حين يفلتُ من السيطرة، إنْ نحو العنف أو البكاء، ينحلُّ الكلام نفسه فيهما وقد يزول تمامًا.

في العنف نحن في وضعٍ مُتشنِّج، نطرُد التعدّد من داخلنا، ولا نحاور أنفسنا أو نفكّر. التفكير والعنف لا يجتمعان معًا. الجلَّاد لا «يأخذ صفنة» وهو يعذّب ضحيته. في جوهره، التعذيب وضعٌ مضادٌّ للتفكير ومضادٌّ للنقاش. وهو ليس جزاءً على نقاش فشَل، فمن يُعذِّب يفعل لأنه يملك القوّة ولا يخشى العواقب، ولا يحتاج إلى إقناع غيره. بالعكس، نعلم مِن تجربتنا السوريّة أنّ هناك تعذيبًا لأنه ليس هناك نقاش أو إقناع. مَن يُعذِّبون لا يفكرون بأنفسهم كمجتمعٍ مع مَن يجري تعذيبهم، يتبادلون معهم النظرات والابتسامات والخدمات والأشياء، وقبل كل شيء الكلمات. لقد ترقَّتْ سوريا إلى دولة تعذيب في ارتباطٍ مباشر وقوي مع مَنع النقاش العام، وما يقتضيه ذلك من تعبير الناس عن أفكارهم ومشاعرهم ونِيَّاتهم، وكذلك مع تراجع وزن الإقناع والاقتناع في السياسة. ويبدو الأمر أقرب إلى قاعدةٍ عامة، فحيث هناك نقاشٌ عامٌّ علنيّ، يُطوِّر عددٌ أكبر من الأفراد تفكيرًا شخصيًّا، ويتشكّل مجتمع نشِط، وينمو البُعد الإقناعيّ في السياسة، وتنحسِر ممارسة التعذيب. وبالعكس، كان التعذيب مزدهرًا في مجتمعات انحسرتْ فيها ساحات النقاش والكلام الحُر.



وغير التعذيب، مَن هو في وضعية قتالٍ لا يتوقّف للتفكير بينما هو يقاتل. كأنما في القتال يجري طَرد الفجوات في داخل الـمقاتل، يتصلَّب نفسًا وجسدًا، ويتوقّف حواره الداخلي. وكأن توقّف الكلام مع الغير في الحرب يُثمِر توقّفه مع النفس، توقّف التفكير ذاته. وهذا بابٌ للشرّ وفقًا لحنّة آرندت التي تُرجِع الشرّ إلى انعدام التفكير، وتآكل الضمير الذي هو نتاج للتفكير بحسب الـمنظِّرة الـمرموقة. من شأن تعميم حالة الحرب، أو الاستنفار الحربيّ عبر حالة استثناءٍ مديدة، أن يوقف التفكير، فيُفضي إلى ضمور الضمير، وإلى شرورٍ كثيرة.

أمّا في البكاء فنحن، بالعكس، في وضع شبه سيَّال، ونفقد كلّ صلابةٍ ونسيل إلى خارجنا من الـموقع الذي نطلُّ فيه على الخارج، عيوننا. يحصل أن نفقد السيطرة على أنفسنا فكأن أحدًا آخر يتحكّم بنا. كأنّنا غيرنا.

والواقع أنّه في العنف الفرديّ كذلك قد يفقد الـمرء السيطرة على نفسه، يُسلِّم نفسه لـنَوبةٍ من الغضب والتحطيم، تطال الأشياء وربما الأشخاص. فكأنّ الكلمات هي أدوات التحكّم بالنفس، فيما البكاء والعنف مَجلَيان لـفَقد التحكم. وهو ما يُسوِّغ منذ الآن تزكية استثمار أكبر في الكلمات التي هي أدوات «العقل». والعقل هو ما يُفترض أنّه موقع التحكّم بأفعالنا وأنفسنا.

وحين نصمُت ونموت في عزلة، فربما لأنّنا نجِفُّ من الداخل ونكفُّ عن السيلان إلى الخارج، أي لأنّ الدموع تفشل كذلك وليس الكلمات وحدها. وربما كذلك لأننا نفشل في توجيه العنف نحو الخارج أو لا نحوز نفاذًا نحو وسائله الـمؤثّرة. ولعلّ هذا الـمصير أشيَع مما يبدو، بخاصّة في عوالـمنا الجريحة، الـمُستتِرة والـمحرومة من الكلام.



وبينــما قـد نبكـي فـي عزلـة، أو نــميل لأن لا نُـرى ونحــن نبكـي، فـإن البـكاء فِعـلٌ اجتماعـيّ مـن حيـث البواعـث، متصـلٌ بــتفاعلات اجتماعيّة قاهـرة، وليـس بحـال مـن شـؤون النفـس الفرديّـة. نبكـي تعبيـرًا عـن القهـر أو الحـزن أو الألـم. وتشـير كلــمة العَبْـرة والعَبَـرات العربيـة إلى صفـةٍ عابـرة للدمـوع، صفـة مُعبِّـرة واجتماعيّـة، وإنْ بطريقـة مختلفـة عـن العِــبارات. الدمـوع تُخفِّـف اختــناقنا، تغسـل همومنـا، فـتُصلح علاقتــنا بأنفسـنا. فكأنّهـا ضـرب مـن التفكيـر، وهـذا بــقَدر مـا إنّنـا فـي التفكيـر نحـاور أنفسـنا وقـد نتفاهـم معهـا.

ولعلَّـه تبكـي النسـاء أكثـر مـن الرجـال فـي مجتمعاتنـا لأنهـنَّ محرومـاتٍ مـن الـكلام أكثـر مـن الرجـال، إنْ على مستوى الأسـرة أو على الــمستوى العـام. ثـم إنّ العنـف الجسـديّ ومـا بُنِــيَ عليـه مـن فنـون حربيّـة ورياضـات طوَّرهـا الرجـال ليـس ممَّـا تحـوز النسـاء فيـه أفضليّـة. ولا ريـب أنهـنَّ يبكيـنَ أقـل فـي مجتمعـات يتكــلَّمنَ فيهـا أكثـر. ثـمّ إنّـه يبـدو أنّنـا، الرجـال الذيـن تدربنـا علـى كبـح انفعالاتنـا، ومنهـا بخاصّـة البـكاء، أسـخى دموعًـا اليـوم. وهـذا فـي ارتبـاط مُرجَّـح فـي تصـوّري مـع فشـل كلــماتنا أمـام تجاربنـا، وتطـور صـورٍ للرجولـة أقـل عضليّـة وأكثـر أنثويّــة.

•

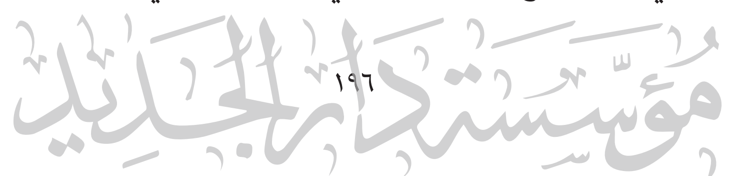
... والـمجتــمع مـن فشـل الكلــمات، إذًا، قـد ننتــقل إلـى العنـف أو إلـى البـكاء. الشـرط الـذي يـؤدي إلـى واحـدٍ منهمـا يـؤدي إلـى الآخـر. فـي العنـف تنقطِـع الرابطـة الاجتماعيّـة، وفـي البـكاء يجـري الانسـحاب منهـا والانكفـاء علـى النفـس. لكـن هـذا لا ينــفي عـن العنـف صفـةً اجتماعيّــة مثلــما لا ينفيهـا عـن البـكاء. قـد نتكلّـم علـى مجتمـع أو مُـتَّـحَدٍ سياسـيّ polity حزيـن، حيـن يكـون البـكاء، التعبيـر بالدمـوع،

ممارسةً مُنتشرة، شرطًا اجتماعيًّا بالمعنى الواسع للكلمة الذي يشمل السياسيّ. وربّما نتكلّم على مجتمع أو مُتَّحَدٍ عنيف، حين يكون العنف، بما فيه التعذيب، شرطًا اجتماعيًّا سياسيًّا.
فشلُ الكلمات خطيرُ العواقب على ما هو ظاهر. المجتمعات التي تتكلّم أقلّ يمكن أن ينفجر فيها العنف أكثر، وتكون أكثر حزنًا وبكاء. وفي زمننا يغلب أن يكون شرط المجتمع الذي لا يتكلّم هو الوجه الآخر لشرط الدولة التي تتكلم وحدها، أو التي تحتكر الكلام «الشرعيّ» فوق احتكارها للعنف. جَمعُ الدولة بين احتكار الكلام واحتكار العنف يُلغي الشرعيّة عن العنف المُحتكَر، بأثر تعطيل الصفة الإقناعيّة للكلام، التي هي مدار الشرعية.

في كلّ حال، البكاء والعنف، كما الكلام، أفعالٌ اجتماعيّة وسياسيّة، لا تُفهَم خارج هذا الشرط الأساسي.

على أنه لا يتعيَّن التفكير في الصفة الاجتماعية للدموع والعنف، وللكلمات بطبيعة الحال، في تقابُلٍ مع أجسادنا وتكوينها واستعداداتها، من صنف التقابل بين الثقافة والطبيعة. الواقع أنّ الصفة الاجتماعيّة لكلٍّ من الكلام والعنف والبكاء مؤسّسةٌ على تكوين الجسم البشري. فالكلام يُميِّزنا تطوُّريًّا عن غيرنا من الكائنات الحية. لدينا نظام إشاريّ مجرد، نَنفرد به عن غيرنا من الأحياء، هو اللغة. «العقل» هو نتاج هذا النظام الإشاريّ. ويبدو أنّنا نَنفرد بالدموع كتعبيرٍ عن الانفعالات أيضًا، وهو ما يُشجِّع من وجه آخر على التقريب بين الدموع والأفكار، وعلى تصوّر أنّ الدموع ضربٌ من الرؤية. على أنّنا نشارك أحياء أخرى العضلات التي نتوسَّلُها في العنف وفي الهرب من العنف.

نحن في المجتمع بأجسادنا التي تفكّر، وتبكي، تضرب وتهرب،



ونحن مع أنفسـنا بأجسـادنا. لا يبدو أنّ لنا أنفسًـا مسـتـقلّة عن أجسـادنا واجتماعِيَّـتـنا. صحيحٌ أنّنـا لا نوجـد مـع أنفسـنا إلا بـفِعل وجودنـا فـي مجتمـع، أو أنّ الفـرد مُكـوَّن مـن مجتمع/مجتمعـات، أكثـر ممـا يتكـوّن الـمجتمع مـن أفـرادٍ سـابقين فـي وجودهـم عليـه، لكنّنـا لا نكـوّن أفـرادًا بغيـر شـعور أجسـادنا أو تجربتهـا.

ويمكـن أن نَبنـي علـى مـا تقـدّم أنّنـا حين نخسـر ما يُميِّـزنا من كلـمات عـن شـركائنا مـن الحيوانـات، ومـن دمـوع، نسـتقرّ علـى مـا يجمعنـا بهـا مـن عمـل العضلات.

•

كيف تـفـشل الكلـمات؟ يفترض الـمرء أن كلـماتنا، وإن لـم تكن مُصمَّمـة فـي أحسـن صـورة للتعبيـر عـن العالـم حولنـا، وأن تجاربنا وإن لـم تكـن مُصمَّمـة لـتنحلّ فـي كلـماتنا دون بـاقٍ، فـإنّ تشكُّـلَهما معًـا، الكلـمات والتجـارب، كـوجهين لوجودنـا في العالـم، يؤسّـس لعالـمٍ من التجـارب/ الكلـمات، لا توجـد فيه التجارب دون كلـماتٍ تُخزِّنها، وتُسـهِّل عبـر الذاكـرة التعامـل مـع تجـارب لاحقـة، ولا توجـد الكلـمات إلا بـقَدر مـا تَـتَـمَفْصَلُ مـع تجـارب وتَصوغُهـا فـي تعبيـرات تقبـل التـداول، تَعبـر منـا إلـى غيرنـا.

نعـم، لكـنّ التطابـق بيـن الكلـمات والتجـارب ينكسـر حيـن نُمنـع مـن الـكلام، أو حيـن تكـون التجـارب مَهولـة وغيـر مسـبوقة، تتحـدّى مخزوننـا الكلامـيّ فـلا يُسـتجابَ لهـا بكفـاءة، أي حيـن يحـدث مـا لا يقبـل التعبير. إذ قـد تبلـغ التجـارب مـن الشـدّة بحيـث تكسـر الكلـمات فيمـا تكسـر. وهـذه مـن خبراتنـا الـمتكرّرة فـي سـنوات الثـورة السـوريّة: نشـعر أنّ كلـماتنا تقـف عاجـزةً أمـام مـا يحـدث، فإمّـا نصمـت لأنّ «الحكـي مـا بيفيـد»، أو نُـثابر علـى الـكلام فـتـقِلّ طاقـة الكلـمات على حمـل معنى



أو توليـد معنـى للتجـارب الـمهولة الجديـدة. ثـم إنّـه ينكسـر التطابـق بيـن الكلـمات والتجـارب حيـن تـتـنـدَّبُ نفوسـنا بـفِعل تكـرّر جِـراح التجربـة ورضوضهـا، فننعكـف علـى أنفسـنا ونفقـد القـدرة علـى امتـلاك كلـمات جديـدة والاسـتجابة الفاعلـة لتجـارب جديـدة. مثـل النُّـدوب الجسـديّة التـي تُغلـق مـكان الجـرح، النـدوب النفسـيّة تحمـي مـن جـرحٍ أو رضّـةٍ جديـدة، لكنّهـا فـي الوقـت نفسـه تُقلِّـل حساسـيتنا حيـال مـا يجـري حولنـا. فـكأنّ مسـاحة تفاعلنـا مـع العالـم، مسـاحة لقـاء التجارب والكلـمات، تتقلّـص، لأنّـه سـبق أن وردَتـنا الآلام مـن هذه الـمساحة، أو كأنّنـا ننسـحب مـن العالـم لأنـه جـارح ومـؤذٍ.

النفـس الـمُتـنَـدِّبة هـي نفـسٌ جريحـة أو مرضوضة، قد تموت بحسـرتها، أي دون عـلاج لجروحهـا. وهـذا أكثـر مـن شـائع فـي تصـوّري، بـل لعلّـه القاعـدة. وهـو يعطـي وجاهـةً كبيـرة لـقول الـمتنبي إنّ «الـموت نـوعٌ مـن القتـل». كلنـا مَيِّـتون، لكـن لا يبـدو أنّ أحـدًا منـا يمـوت بسـلام، ولا يبـدو إلّا أنّنـا نـموت مكلوميـن مُصابيـن.

هـذا غيـر أنَّ مـن شـأن تواتـر نُدوبنـا النفسـيّة وتصلُّبهـا أن يُحوِّلهـا إلـى دروع، تُغلـق النفـس ولهـا أثـر خانـق. وقـد تنقلـب النفـس الـمُتـنَـدِّبة، الـمُدرَّعة، إلـى مُدرَّعـة مُفخَّخة، مُهيَّـئة لأن تنفجر بعنـف. على الخريطة النفسـيّة، إن جـاز التعبيـر، ربمـا تقـع النفـس الجريحـة الـمقهورة التـي فقـدت الـكلام والدمـوع والعنـف، والنفـس الـمُفخَّخة التـي تنفجـر لأنهـا محرومـة مـن الـكلام ومـن وسـائل عنـفٍ مؤثـرة ـ فـي مَوقعيـن متجاوريـن، فـلا يمتنـع التحـوّل مـن واحـدة منهمـا إلـى الأخـرى.

إن صحَّـت هـذه التقديـرات فـإنّ الأفـراد والجماعـات والـمجتمعات فـي أشـد الحاجـة إلى العناية بالكلـمات والاسـتـثمار في الكلام. الـمجتمعاتُ العنيفـة والـمجتمعات الحزينـة، هـي مجتمعـاتٌ تعطَّـلَ الـكلام فيهـا،



سـواء بـــمَنعه أو بـــتجمُّده علــى أحــوال تُعطِّـل قدرتــه علــى التعبيــر، بـــفِعل هـول التجـارب. فــبما أنّ الكلــمات أدواتــنا فــي التعبيــر، وفــي التفاهــم مــع غيرنــا، أي فــي السياســة كذلــك، فــإنّ مــن شــأن العنايــة بالكلــمات وتطويرهــا، وإدخــال كلــمات جديــدة، وصُنــع روابــطَ مغايــرة بيــن الكلــمات، أن يكون نهجًا حــيويًّا لــتجنّب العنف والحـزن. قد يمكن التفكيـر فـي الــمجتمعات الغربيّــة الــمعاصرة بأنّــه اعتُنِــيَ فيهـا بالـكلام عنايـة مميـزة، بوظائفـه الفكريّـة والإقناعيّـة معًـا، مـا أتـاح التقليـل مـن مسـتوى العنـف فيهـا، وأن تكـون مجتمعـات أقـل حزنًـا مـن غيرهـا.

•

قوالِــب وقواقــع تَعطُّــلُ التعبيـر يتولّـد عـن الــمنع، لكـن يمكـن أن ينجـم كذلـك عـن اختـــناق التعبيـر بأثـر قوالـبَ كلاميـة تُفـرَض علـى التجربـة فـتـثلــم حدَّهـا وتـتــرك تحدِّيهـا دون اسـتجابة، فــتُغني عـن خلـق التعبيـر أو الإبـداع. علـى هـذا النحـو شـرح عبـد اللـه العـروي آلــيةَ التَّســنُّــن أو صنـع التقليـد فـي كتابـه **السـنّة والإصـلاح** (الـذي كانـت الإشـارة إليـه فـي الفصـل السـابق). أُذكِّـر بــتحليل العـروي ليـس لــتماثُلٍ بنيــويٍّ بيــن «التَّســنُّــن» وبيــن إخمــاد الفاعليّــة التجديديّــة للتجـارب الــمغايرة بقوالـب كلاميـة غيـر نوعيّـة، ولكـن كذلـك للإشـارة إلــى الــمصدر الدينـي لغيـر قليـلٍ مـن القوالـب الكلاميّـة فـي تداولنـا. حيـال تجـارب الفَقـد، وحتـى الفظيـع منـه، نتوسّـل عبـارات مـن نـوع: لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل، إنـا للـه وإنّـا إليـه راجعـون... مـا لدينـا هنـا هـو تمثيـلات غيـر تجريــبيّة تُضـاف إلـى مـا تقـدّم ذكـره مـن تجـارب غيـر مُمثَّلـة. ولاسـتجاباتنا الــمُحدّدة إيديولوجيًّا للكثيـر مـن تجاربنـا أثــرٌ مُشـابِه، غيـر نوعــيٍّ لهـذه التجـارب. مـا يجمـع بيـن الــمعتقدات الــمختلفة هـو إضعافهـا الوظيفيّـة التعبيــريّة للـكلام،



مـن حيـث إنّ التعبيـر هـو العلاقـة بيـن التجـارب والكلـمات. فـمَن يتكلّـم هنـا ليـس نحـن الجَرحـى الـمَذهولون، بـل العقيـدة، الديـن أو الـمذهب أو الـمنهج، السـابقة للتجـارب. مـا يُدخِـل عقائدنـا اليـوم فـي أزمـةٍ هـو قـوّة التجـارب وقسـوتها، واشـتداد الشـعور بـفشل تعبيـراتنا الـمألوفة.

ولعـلَّ القوالـب الكلاميّـة والفكريّـة، الدينيـة منهـا وغيـر الدينيـة، وليـدة اختـناقٍ ونفـسٍ جمعيّـة مُتـنَدِّبة، تحتمـي ممـا لا يُعبَّـر عنـه مـن هـولٍ بـتعابير/ قواقـع، تسـاعد علـى التحمُّـل، لكـن لا تحمـي مـن التجـارب.

هـذا شـكلٌ مـن الإنسـانيّة نجـد أنفسـنا، فـي السـياق السـوريّ، فـي موقعٍ متـناقض حيالـه اليـوم. فهـو مـن جهـةٍ أُولَـى يَمنـع مـن الاشتـباك مـع التجربـة، ومـن العمـل علـى توليـد معـانٍ حَيَّـة منهـا، أي بنـاء فكرنـا وثقافتـنا علـى تجاربنـا الـمُعاشَة، بمـا يُحسِّـنُ فُرصنـا فـي بقـاءٍ نشِـط؛ لكـن مـن جهـةٍ ثانيـة تبـدو حاجـة الاحتمـاء بالغـة القـوّة اليـوم، ويبـدو نـازع التَّـقوقُع أقـوى مـن النازع الـمعاكس، فكأننا نعرّض أنفسـنا لـمزيدٍ مـن الأذى إن خرجنـا إلـى العالـم بـدون حمايـات مُجرَّبـة.

بيـد أنَّ هـذه الحمايـات لا تحمـي فـي واقـع الأمـر. وأزمـة الانكشـاف تُحـرِّض بالأحـرى علـى كسـر القواقـع وشـقِّ دروبٍ مغايـرة للتعبيـر.

•

التعبيـر والتـشكيل فـي الـمقالة السـابقة، «الكلـوم والكلـمات: فـي تمثيـل الأزمـات وأزمـة التمثيـل»، عملـتُ علـى إظهـار أنّ التمثيـل هـو مسـاحةُ تقاطـع التعبيـر الـذي يربـط بيـن التجـارب والأفـكار (أو بين الـمعاناة والـمعاني، أو في هذا السـياق الـمخصوص بين العَـبَرات والعِبـارات)، وبيـن التشـكيل الـذي يوفّـره لنـا التـراث وكل الـمتاح الإنسـانيّ مـن أشـكال، لإخـراج تعبيرنـا اجتماعيًّـا. لدينـا اليـوم أزمـة

تمثيل بـفِعل تلاقي أزمةٍ في التعبير متّصلة بـهول التجارب وبتَـندُّب النفوس، مُعزَّزين بالـمنع أو قمع حريّة التعبير، بأزمة في التشكيل. تَعطُّـلُ الـكلام بفضل فقر أو جمود قوالب كلام وتفكير موروثة هو من نوع تَعطُّـل التشكيل، أي تراجع مُلاءمة الـموروث الـمتاح للتجارب الـمُعاشة. أما الحظر النشِط للكلام فهو يمسُّ التعبير أساسًا، الربط بين التجارب والأفكار، وهذا بـفِعل الصفة السياسيّة جدًّا للتجارب، والـمَنبت السياسيّ لأشد صور الـمعاناة قسوة وعمومًا. ولـمّا كانت أشدّ تجاربنا هولًا هي تجارب سياسية كذلك، فإنها تتحدى التعبير أولًا، وليس التشكيل.

ولا تبدو العلاقة بين أشكال الإخماد الدينيّ والإيديولوجيّ للتعبير وحظره السياسيّ علاقةً برَّانِيَّة بين ظاهرتين منفصلتين. يمكن التساؤل عمّا إذا كانت القوالب الـموروثة تستمرّ بـفِعل غريزة بقاءٍ تخصُّها رغم عدم ملاءمتها أو لا تجريبِيَّتها، أم أنَّ تلاقي هول التجارب مع حظر التعبير يضائل إلى أقصى حدٍّ فُرصَ تولُّد كلامٍ أكثر تجريبية وملاءمة، ودلالة، فيُزكِّي الـموروث الـمعروف للعموم من كلام غير شخصيّ. بعبارة أخرى، نتوسّل الكليشيهات في تعبيرنا ليس لأنها غير تجريبيّة ولا تدل، بل بالضبط لأنّها غير تجريبية، حين تكون التجارب ساحقةً ولا تطاق. أي لا يمكن أن يُمثِّلها شيء أو لا تَقبل التمثيل. الـمَهول الذي يتحدّى الكلمات ويهزمها يلوذ بقوالب الكلام وعاداته الـمألوفة.

وقد يمكن التفكير في حالنا السوريّة من هذا الـمدخل. فتجاربنا طوال نحو عقدٍ هي تجارب قاسية، قُصوى، تحدَّت طوال السنوات الـماضية مُتاحنا اللغويّ والتعبيريّ، ووقف هذا أمامها عاجزًا بـقدر كبير. وهذا على خلفيّة حظرٍ كلاميٍّ وفقر تعبيريّ أطول أمدًا. لا كلام هنا يمكن أن يكون ملائمًا أو مُعبِّرًا. وهذا يلعب لصالح الصيغ



الـمُقَولَبة مثـل الحَوقَـلة والحَسبَـلة، ومثـل نظريّـات الـمؤامرة. فإن كان لنـا أن نقـاوم أن «نطـقّ» ونتحلَّـل، وليسـا بالـمستبعدين فـي كيـانٍ سياسـيّ حزيـن ومُعنَّـف، فـلا بـد مـن ثـورة تعبيريّـة إن جـاز التعبيـر، تُـتيح لنـا التعبيـر عمّـا لا يمكـن التعبيـر عنـه اليـوم.

أو بالأصـح ثـورة فـي التمثيـل، فـي إنتـاج الـمعاني وترجمـة التجـارب إلـى أفـكار، كمـا فـي تطـوّر الأشـكال وتنوعهـا. فـإذا كانـت تلتـقي فـي شَـرطنا اليـوم تجـارب غيـر مُمثَّـلة (هـول، فظاعـة، جـروح عميقـة) بـتمثيلاتٍ غيـر تجريبيّـة (قوالـب كلام، كليشـيهات)، أي مشـكلات التعبير والتشـكيل، فـإنَّ مضمـون الثـورة التمثيليّـة هـو تجـاوز هـذا الشـرط، والتقريـب بيـن تجاربنـا وتعبيراتنـا، والاشـتباك مـع فَرادتهـا ومُمانعتـها الجوهريّـة للتمثيـل. وفـي الوقـت نفسـه ثـورة فـي التشـكيل، وإنشـاء طُـرقٍ جديـدة للـكلام.

والواقـع أنّـه ليـس هنـاك تجـارب تَمنـح نفسـها للتعبيـر والتشـكيل طائعـة، وأنّ الأصـل فـي التجـارب هـو امتِـناعها علـى التمثيـل، أو أنّـه في البـدء ثمّـة فشـل الكلـمات، وأنّ كلامنـا وتفكيرنـا وثقافتنـا هـو اشـتباكٌ مـع مـا لا يُعبَّـر عنـه ولا يقبـل التشـكيل، مـع مـا لا يمكـن تمثيلـه، وهـو اعتنـاء بالكلـمات كـي تعنـي، أي كـي لا تفشـل. فنجـاح الكلـمات هـو أن تعنـي.

وامتنـاع تمثيـل التجـارب يعنـي أنّنـا لا نُمثِّـلها إلا بـأنْ نخلقهـا هـي ذاتها، وأنّ التجـارب قبـل خلقنـا/ تمثيلنـا لهـا، تكـون غمامًـا، شـيئًا لا شـكل لـه ولا يُعبَّـر عنـه. تمـوت التجـارب التـي لا تُمثَّـلُ عبـر الصـراع مـع امتناعهـا علـى التمثيـل، التـي لا نُمثِّـلها إلّا بـأن نخلقها فـتُمثّـلنا.

فـي كل حـال التمثيـل ليـس شـيئًا كماليًّـا. فبمـا هـو اشـتباكٌ مـع العالـم وترميـز لـه، فإنّـه إنتـاج لـ «علـم» يُعيـن علـى الرسـوخ فـي العالـم،



ويجعل من جراح الاشتباك ذاتها منابع للمعنى. تمسُّ الحاجة إلى ثورة في المعاني بفعل ما حدث من «ثورة» في المعاناة، كَمًّا ونوعًا وشِدّة. الملايين تعرَّضوا لتجارب جارحة، مختلفة عن مألوف أكثرهم، وخلال زمنٍ قصير نسبيًّا لم تُتح لهم فرصٌ للاستعداد والتكيُّف. نخسر إنْ تغلَّب لدينا مرة أخرى نازع الاحتماء والتقوقع على واجب الخروج، وإنْ مع معاناة لسعات الوجود المُنكشِف. أوّل ما يلزمنا اليوم هو الشجاعة في التعبير.

وتبدو العوائق دون ثورةٍ تمثيلية أقل صعوبةً في الشتات بفِعل زوال القيود العامّة أمام التعبير وعدم الاضطرار لممارسةِ رقابةٍ ذاتيّة، وتوفّر المسافة التي تُتيح إعادة خلق التجربة أو إنشاءها، ثم بفِعل ما يتاح من احتكاكٍ بلغات وأدوات وأساليب تعبير مُغايرة في مجتمعات اللجوء السوريّ. أي توسُّع التراث المتاح.

•

ولادة التعبير وحُرّيته فيما تقدّم ما يتيح مقاربةَ مسألة حريّة التعبير من مدخلٍ مغاير. حين نتكلّم على حرّيّة التعبير ينصرف تركيزنا عادةً إلى كلمة حرّيّة، وإلى العوائق العامّة، السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة، التي تَحول دون أن يُعبِّر الناس عن أفكارهم وآرائهم ومعتقداتهم بحرّيّة. نفترض أنّ لدينا أفكارًا وآراء ومعتقدات تحول دون التعبير عنها عوائق خارجيّة، قمع سلطةٍ ما، فلا نتكلّم على فشل الكلمات أو فشل التعبير الذي يتولّد عن هول التجربة، أو عن تَندُّب النفوس الذي تُسبِّبه الجروح والرّضّات النفسيّة الفرديّة والجماعيّة، ولا عن العيش في عزلةٍ بسبب التَّندُّب. فشل الكلمات لا يأخذ حتمًا شكل الصمت عن الكلام، لكن ربّما شكَّل الصمت عن المعنى إن جاز التعبير. وهذا هو المقصود بالكلمات القوالب،

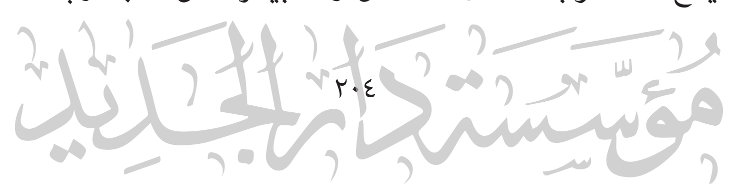


أو الكليشـيهات.

فـإذا كان الجـرح هـو النافـذة التـي يدخـل منهـا النـور إلـى نفوسـنا، بحسـب صيغـةٍ بديعـة لجلال الديـن الرومـيّ، فإن جراحًـا تَندَّبـتْ تَحول دون دخـول النـور. يمكـن أن نفكّـر بالجـرح كـفقدٍ مؤلـم، كمعانـاةٍ قاسـية، وبالنـور بوصفـه الفكـرة التـي نسـتولدها مـن التجربـة/ الجـرح، أو الـمعنى الـذي نسـتخرجه مـن الـمعاناة. ولعلّهـم ليسـوا قِلَّـةً مَـن يدخـل إليهـم النـور مـن جِراحهـم، لا يقتصـر الأمـر بحـالٍ علـى كُتّـاب وفنّانيـن مُكرَّسـين. الثقافـة الشـعبيّة، وربمـا فـي «مناسـينا» الـمكبوتة أكثـر مـن غيرهـا، هـي نـورٌ دخـل مـن جـراح عمـوم النـاس.

والـمسألة علـى مـا يظهـر أوثـق صلـةً هنـا بـولادة التعبيـر وموتـه منهـا بـحُرّيته وقَمعـه، بامتناعـه منهـا بـمَنعه. فـإذا تعـزَّز الامتنـاع الـمُتولِّد مـن هـول التجـارب وتَـندُّب النفـوس بالـمنع والقمـع، حصَلنـا علـى أزمـةٍ تعبيريّـة، علـى ضـرب مـن العِـيِّ الاجتماعـيّ، أعتقـد أنّنـا عرفنـا طـورًا متقدّمًـا منـه بيـن أواسـط ثمانينيـات القـرن العشـرين ونهايتـه، وهـذا مـع بقائنـا طـوال الوقـت حتّـى الثـورة فـي عِـيٍّ نسـبيّ. فـي العقـد السـابق للثـورة أخـذتْ تتوفّـر شـهادات عـن الهـول، ضمـن «أدب السـجون» بخاصّـة، لكـن لـم يَجـر التفكيـر فـي الأزمـة التعبيريّة، والتمثيليّـة، فـي عِيِّـنا العـام. ولا نـزال فـي تصـوّري نجـد أنفسـنا فـي افتـقارٍ متفـاوت إلـى اللغـة، إلـى الكلـمات والتعابيـر غير الـمَمضوغة، التـي تُسـعِف فـي تعبيـر تجـارب الهـول وتمثيلهـا.

ومـن أوجـه امتنـاع الـكلام فيمـا يتّصـل بإشـاعة سـوء اسـتخدام الكلـمات، ممـا كان ولا يـزال جهـاز حُكـمٍ فـي سـوريا. أعنـي احتـكار الـكلام الصحيـح عبـر وسـائل إعـلامٍ مُسـيطَر عليهـا، وإحلال الكليشـيهات والصِّيـغ الـمُقَولَبة محـلّ النقـاش والتعبيـر عـن التجـارب الفعليّـة،



ونشـر منـاخٍ مـن التشـكُّك فـي كلّ مـا يقـال مـن كلام مسـتقلّ. هـذا فضـلًا عـن تعميـم السـباب والبـذاءة اللفظيـة فـي الحيـاة اليوميّـة مـن قِبَـلِ وكلاء النظـام والـمُوالين لـه كـشكلٍ بطريركـيّ مـن أشـكال التعبيـر عـن الفحولـة والسـؤدد. يرتـدُّ الـكلام هنـا إلـى فعـلٍ عضلـيّ، تقـوم بـه عضلـة خاصّـة هـي اللّسـان. وحيـن لا يكـون هـذا الفعـل اللّسـانيّ عنفًـا لفظيًّـا، ملحقًـا بالعنـف الجسـديّ كمـا فـي وضعيّـات التعذيـب، فـإنّ التعسُّـف وفقـدان الـمعنى أو اللَّامَفـهوميّة هـو خاصّيتـه. يتعـدّى الأمـر سـوء اسـتخدام الكلـمات إلـى سـوء معاملتهـا، تعذيبهـا في الواقع مثلــما يجـري تعذيـب النـاس، وانهيارهـا مثلــما يحـدث أن يقـع لــمَن يتعرّضون للتعذيـب مـن النـاس. لا يـكاد يكـون ثمّـة كلـمات لـم تُعـذَّب وتَـنهر فـي سـوريا الأسـد: الوطـن، الحرّيّـة، الاشـتراكيّة، الدولـة، الديمقراطيّـة، الوحـدة الوطنيّـة، الأمـن، الإعـلام... وهـذا مـن أوجُـه التدميـر الاجتماعـيّ خـلال خمسـين عامًـا التي لـم تنل الاهتمـام الـمستحق. تنهار الكلـمات بـأن تفقـد معناهـا. الـمعنى لا يربـط الكلـمات بالتجـارب فقـط، ولكـن الـمتكلّمين ببعضهـم، أي هـو مرفـق اجتماعـيّ. نعتنـي بالكلـمات كـي تعنـي، فتعتنـي بنـا. كـي نصيـر مجتمعًـا.

يبقـى ولادة التعبيـر وموتـه مشـروطين سياسـيًّا مثــلها، مثـل حرّيـة التعبير وقمعـه فـي تجربتنـا الـمعاصرة. فليـس بالـمنع الـمباشر فقـط يتحكّـم الطغيـان بالتعبيـر، وإنّمـا كذلـك بتحطيـم القـدرة علـى الـكلام، بإحـداث تجـارب لا تُوصَـف ولا يُعبَّــر عنهـا. بـل لعـلّ النجـاح فـي إنتـاج مَـن لا يسـتطيعون الـكلام أو لا يقولـون غيـر كلامٍ ركيـكٍ لا يعني هو الـمثل الأعلى للطغيـان الحديـث. ولذلـك فـإن خلق الـكلام وتوليـده، والعمل علـى تمثيل مـا لا يُمثَّـل، أي «الإبـداع»، هـو فعـل مقاومـة سياسـيّة.

مـن شـأن ثـورةٍ فـي التعبيـر، أي نقلـة نوعيّـة فـي تمثيـل تجاربنـا، أن



تضعنا في موقعٍ أفضل بكثير من أجل حرّيّة التعبير. نحتاج إلى تحرُّر قدرتنا على التعبير كي نقاوم بكفاءة أكبر القيود الخارجيّة على التعبير. وأن نُوسِّع الكلام المتاح لنكون في وضع أفضل للعمل من أجل توسيع المباح منه. من شأن زوال هذه العوائق الخارجيّة، بالمقابل، أن يساعد كثيرًا في فتح طُرقٍ سالكة بين التجارب والأفكار، لكنه لا يضمن بحدٍّ ذاته تشكيلًا لأفكارنا في صُورٍ تخاطب المزيد من الناس. الثورة هي ثورة على المُستويَين: التعبير والتشكيل، الاشتباك مع التجارب الجديدة، الهائلة، وغير المسبوقة، ثم توسّع الأشكال المتاحة مع توسّع التراث ليَشمل المتاح في ثقافاتٍ أخرى وبلُغات أخرى.

•

مجتمعُ كلام؟ هل يمكن تصوّر أوضاع تُحَلُّ فيها مشكلات التعبير والتشكيل، وتُعاصِر فيه ثقافتنا مشكلاتنا، وتستجيب لما يعانيه اجتماعنا من توتّرات وصراعات؟ هل يمكن للاجتماع البشريّ أن يكون ناطقًا، يدير شؤونه ويعالج مشكلاته بالكلام، فيستبعد كُليًّا أو بقدر كبير شرط المجتمع الباكي و/أو العنيف؟ لا يبدو أن التاريخ المعروف يوفر أمثلة على ذلك، وإن تكن المجتمعات متفاوتةً في عنفها وحزنها، بما يعني أنّ حزنًا أقل وعنفًا أقل ممكنان دومًا. وكما سبقت الإشارة، فإنه يبدو أنّ الثقة بالكلام أو الاعتماد الواسع على الكلام في تشخيص المشكلات ومعالجتها يتوافق مع آلامٍ سياسيّة أقلّ. هناك آلامٌ وجوديّة، تتّصل بخاصة بخبرة الموت، موت القريب والحبيب، لا سبيل إلى تجنّبها، لكنْ حتّى حيال هذا الـ«نوع من القتل» يمكن للكلمات السديدة أن تساعد. ولعل في ذلك ما يُحفِّز على التفكير في آلام الوجود كآلامٍ سياسيّة هي الأخرى.


مؤسسة دار الجديد

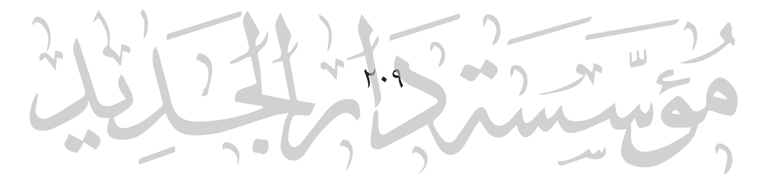
عِــرفــان

كتبـتُ نصـف مـوادِّ هـذا الكتـاب فـي برليـن، وقـت كنـت زميـلًا فـي «فسنشـافتس كولـغ تسـو برليـن»،[1] معهـد الدراسـات الـمتقدّمة فـي العاصمـة الألـمانية بيـن ٢٠١٧ و٢٠١٩. لقـد أُتيحـتْ لـي هنـاك خـلال عاميـن فرصـة ممتـازة للقـراءة والكتابـة، وتبـادل الأفـكار، تتجـاوز قـدرة أيٍّ كان علـى الاسـتفادة الكاملـة منهـا. أنـا ممتـنٌّ كلّ الامتنـان علـى هذه الفرصـة الثمينـة بالفعـل.

وكانـت نصـف الـموادّ كُتـبتْ فـي إسـطنبول التـي أقمـتُ فيهـا بيـن مطلـع تشـرين الثانـي ٢٠١٣، بعـد بضعـة أسـابيع مـن مغـادرة بلـدي، وأواخـر صيـف ٢٠١٧. لقـد نشـرتُ هـذه الفصـول كـمقالاتٍ فـي مجلـة **الجمهوريـة** الإلكترونيّـة، التـي كنـت مـن مؤسِّـسيها فـي ربيـع ٢٠١٢، ويُديرهـا ويعمـل علـى تطويرهـا واسـتمرارها منذ سـنوات زميـلاتٌ وزملاء شـبّان، مسـتحِقّون بـدورهم لـكلِّ الامتنـان. لقـد أُضيـفَ إلـى النصـوص وحُـذف منهـا عنـد تحريرهـا للنشـر في كتاب، وأُعيـدَتْ هيكـلتها بـقدرٍ متفـاوت، فهـي هنـا بـمثابة طبعـات ثانيـة، «مزيـدة ومنقّحـة».

---

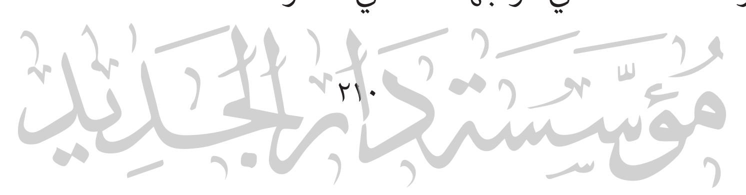
(١) الـمقصود: Wissenschftskolleg zu Berlin



ليس لدي أسباب شخصية للشكوى في الحاضرة الألمانيّة، وما كانت لدي في الحاضرة التركيّة قبلها، ولكن ليس لِلَّاجئ ما هو شخصي منفصل عما هو سياسي، وبخاصة إن كانت أسباب الغضب السياسيّة قد أخذتْ شكلًا بالغ الشخصية منذ ٢٠١٣ ـ العام الفظيع الذي شهد خَطفَ امرأتي سميرة الخليل في دوما وتغييبها، وقبلها أخي فراس، وبينهما ومعهما خروجي مضطرًّا من الرّقة إلى تركيا. تقطَّعتْ بنا السُّبل وتفرّق شملنا في صورةٍ بالغة القسوة ووخيمة العواقب ولا تقبل السلوان. إن كانت هذه التجربة الطاحنة جزءًا من المصاب السّوري العامّ، فإنّها تحوز قيمةً تمثيليّة ضمنه، ليس بوصفها قطعة متوسّطة من هذا الصراع الأليم، ولكن لأنّها نموذج من الأشدّ تطرفًا وكثافة من القسوة والوحشيّة التي عرفها صراعنا. بصورةٍ ما القصّة الرهيبة تمثيليّة لأنّها ليست تمثيليّة، أو بالأحرى لأنّها تُحوِّر تصوّر التمثيل ذاته، تنقله من الوَسطيّ إلى الأقصى، ومن المثال غير الحصريّ إلى المثال الذي يَحصر ويَستبعد. وأن لا أستطيع ولا يستطيع أحدٌ رواية القصّة كاملةً إلى اليوم، بعد ما يقترب من سبع سنوات، فهو مما يُعزِّز التمثيليّة الخلّاقة للقصّة، ويُضفي عليها بُعدًا من السرّ والسحر.

لا أستطيع القول ما إذا كانت هذه النصوص لِتُولَد لولا غياب سميرة. لكن لا ريب أنّ لوعة غيابها هي ما تبثُّ في هذه النصوص نَفَسًا من الاستِماتة التي تتمازج فيها الحياة والموت، وبالقدر نفسه اليأس والأمل.

ممتنٌّ في النهاية للقمان سليم وفريقه من بعده الذي اعتنى قبل اغتياله بكتابي. لقمان شاهد على الفظيع، وما قتله الحقود إلا برهانًا على فاعليّة التمثيل وقوّة الكلمات. هذا الكتاب يراهن على قوّة الكلمات في مواجهة كاتمي الصوت.



« من أعْوامِ السِّجْنِ إلى عُقودِ الدَّأبِ في الاسْتِقْصَاءِ والتَّحْلِيلِ، منَحَ يَاسِين الحَاج صَالح سُورِيّا المُعَاصِرة حَيَاته كُلَّها ومَا يَزَالُ: جَسَّدَ بِسِيرَتِهِ مُعَاناتَها ومُقَاوَمَتَها وبَسَطَ في أعْمَالِه وَقَائعَها ومَعَانِيها...»

أحمد بيضون

« مَع نَصِّ يَاسِين، تَلْتَحِمُ السِّيَاسَةُ والأفْكَارُ بِتَجَارِبِ البَشَرِ وَعَذَابَاتِهِم، بِاللَّحْمِ والدَّمِ وَحَسَاسِيَّاتِ المَقْهُورِين. وَهَذَا بَعْضُ ما يَمْنَحُهُ خُصُوصِيَّةً تَرْفَعُهُ عَنْ مَألُوفِ الكِتَابَةِ السِّيَاسِيَّةِ العَرَبِيَّةِ حَيْثُ العَوْدُ الدَّائِمُ عَلَى بَدْءٍ وَاثِقٍ. هَكَذَا يَتَّفِقُ المَرْءُ وَيَخْتَلِفُ مَعَ ذَاكَ النَّصِّ، لَكِنَّهُ لا بُدَّ أنْ يُقِرَّ بِأنَّ جُرْحَ كَاتِبِهِ جَارِحٌ وَعَمِيقٌ: يَتَحَوَّلُ سُؤَالًا غَيْرَ مَطْرُوقٍ، كَمَا يَغْدُو مُحَاوَلَةَ جَوَابٍ تَجْتَمِعُ فِيها مَسْؤُولِيَّةُ شَيْخٍ مَهِيبٍ حِيَالَ الكَلامِ وَرَشَاقَةُ فَتَىً مُتَجَرِّئٍ عَلَيْهِ.»

حازم صاغيّة

« هَذَا كِتَابٌ لا يُشْبِهُهُ شيءٌ مِمَّا كُتِبَ حَتَّى الآنَ عَنْ نِظَامِ الإبَادَةِ الأَسَدِيِّ، يَدْعُونَا فِيه يَاسِين الحَاج صَالح إلى التَّفْكِيرِ مَعَهُ في وَسَائِلِ إنْتَاجِ هَذَا النِّظَامِ وإعَادَةِ إنْتَاجِهِ طَوَالَ خَمْسِينَ عَامًا، وَفي الحَاجَةِ المُلِحَّةِ إلى تَجْدِيدِ القَوْلِ في تَجْرِبَةِ السُّورِيِّين المَهُولَةِ، سَبِيلًا إلى امْتِلاكِها مَعْرِفِيًّا وَسِيَاسِيًّا، والرَّبْطِ بَيْنَ العَنَاءِ والمَعْنَى.»

فاروق مردم بك


9 789953 112107